

كتاب العصر تحت ضوء
الإسلام
أنور الجندي

أنور الجندي

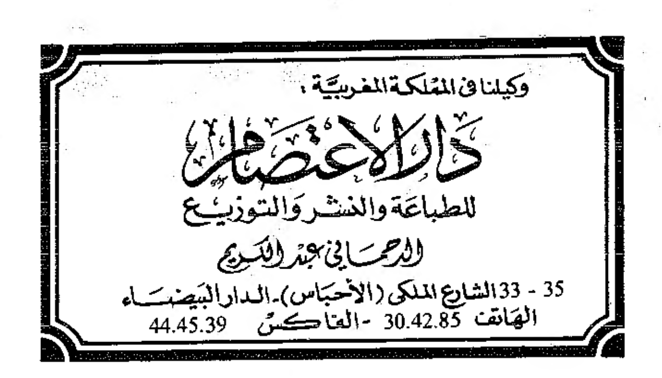
كتاب العصر

تحت ضوء الإسلام

دار الفضيلة



الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس: ٤١٨٩٦٦٥
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات: دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦







مدخل تاريخى

توالت مدارس التغريب والعلمانية والغزو الفكرى لمحاصرة ثقافتنا الإسلامية منذ استطاع النفوذ الغربى السيطرة السياسية والعسكرية على مقدرات « أمة الإسلام » ، وكانت الحملة الفرنسية الحلقة الأولى فى هذا الصراع بعد أن انتهت الحروب الصليبية بهزيمة الغرب هزيمة تامة .

ولقد استطاعت الدولة العثمانية حماية الوجود الإسلامى أربعة قرون ويزيد فى ظلال الخلافة الإسلامية حتى كانت الأمة الإسلامية تعمل لتجديد مقوماتها على نحو يبعث اليقظة فى أرجاء عالم الإسلام ، وكانت حركات اليقظة تتجدد فى عدة مواضع من بلاد الإسلام : منها حركة محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية ، وحركة الشوكانى فى اليمن ، ثم ظهرت فى قلب الأزهر تلك الحركة النافذة :

البغدادى ـ الذى رد على الأمة قدرتها على تذوق اللغة والأدب وعلوم العربية .

الجبرتى الكبير ـ حيث تولى تجديد علوم الهندسة والكيمياء .

الزبيدى ـ حيث قام ببعث التراث اللغوى والدينى .

وكان ذلك كله منطلق الحملة الفرنسية على مصر التى اقتحمت الأزهر ، وحطمت كل مقومات النهضة .

ولقد كان هناك إجماع فى كتابات المؤرخين الأوربيين إذ ذاك على أن هناك نهضة اجتماعية فى مصر والشام قبل وصول الحملة الفرنسية بأكثر

من أربعين عــامـاً ، ويشـيـر إلى ذلك مـؤلف كـتـاب الجـذور الإسـلامـيـة الرأسمالية (مونته الأمريكى) .

ويقول بيتر على جران ما ترجمه سامى خشبة :

إن الفكر العلمى الإسلامى الذى أنتجه شيوخ الأزهر المصريون لم يشرع فى التبلور إلا بعد منتصف القرن ١٨ م حتى أجهضته التحولات الكبرى فى عصر إسماعيل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ويرى بيتر جران أن حملة نابليون على مصر وفلسطين لم تكن كما قال (مقدم كتاب وصف مصر) ولا ما قال كادت بك هى المحرك الذى حفز العقلية المصرية إلى الاستنارة والبحث عن الحداثة بل على العكس : إن هذه الحملة الاستعمارية أجهضت التصور الاقتصادى الفكرى الحقيقى والأصيل والقومى فى مصر .

ويقرر أن مصادر هذا الفكر لا توجد إلا فى الكتب والمخطوطات المصرية الموجودة فى مكتبة الأزهر ودار الكتب والتى ظل الدارسون المحدثون يصرفون النظر عنها منذ عصر محمد على ، أ هـ .

* * *

ومع الغزو الفرنسى الثقافى الذى تتابع فى عصر محمد على بالبعثات ، وأبرز مفادها رفاعة الطهطاوى الذى استطاع المستشرق الفرنسى (جومار) احتواءه كمدخل إلى هذه الخطة من التبعية التى توالت وتمثلت بعد ذلك فى طه حسين وماسنيون وغيرهم ، وكان محمد على حين ولى أمر مصر قد أراد أن ينقل الحضارة الأوربية إلى مصر بإقصاء الشريعة الإسلامية، وإحلال القانون الوضعى المستمد من فرنسا المتحضرة.

ومن خلال الهجرات الشرقية والغربية جاءت الهجرة الخطيرة إلى مصر : هجرة الموارنة اللبنانية ومعاهدهم وجامعاتهم التى تمثل كل تيارات الاستشراق والتبشير والتغريب حيث كانت الخطة ترمى إلى السيطرة على المنطقة الإسلامية فى جامعات أمريكية ثلاث :

١ ـ فى بيروت .

٢ ـ فى إستانبول .

٣ ـ فى القاهرة .

وتشكلت تلك الجماعة العلمانية التى سيطرت على الصحافة المصرية والتى تتمثل فى عدد كبير من الكُتّاب الذين يحملون كل أحقاد الزمن للإسلام والدولة العثمانية ومنهم :

شبلى شميل : مترجم نظرية دارون .

ويعقوب صنوع : مؤسس المسرح والفنون المكشوفة .

والثلاثة الذين تولوا المقطم والمقتطف : صروف ونمر ومكاريوس والأهرام (سليم تقلا) وجرجى زيدان (الهلال) .

وهناك جماعة كبيرة اشتغلت بالصحافة منهم : سليم عنحورى ، وعشرات غيرهم .

* * *

ويمثل هذا التجمع جذور التراث التغريبى الذى تمثل فى جيل جديد على رأسه يوسف الخال ، وفى أحضان الهلال والأهرام والمقطم تكوّن ذلك الجيل الذى استولى على الفكر والصحافة خلال الفترة الممتدة إلى الحرب العالمية الثانية .

ومن هذه المدارس الماركسية والعلمانية كانت مدرسة سلامة موسى ، وأبرز دعاتها لويس عوض وغالى شكرى .

ومدرسة الفلسفة المادية وعلى رأسها الأب جورج قنواتى وتلاميذه ، مراد وهبة ، وعاطف العراقى ، وفؤاد زكريا ، وعبد الرحمن بدوى ، أما يوسف الخال فقد تصدّر المدرسة التى ورثت المهجريين (ميخائيل نعيمة ، وجبران خليل جبران ، وأنتجت أدونيس ، ومذهب الحداثة اللعين ومن ثمارها نزار قبانى وعبد الوهاب البياتى وصلاح عبد الصبور ثم نشأت

المدرسة الماركسية والمادية معاً : محمود أمين العالم وجماعته ، ثم ظهر الانحراف فى الأزهر حين اتجه طه حسين إلى العلمانية .

فجاء على عبد الرازق وسعيد العشماوى وحسن حنفى وخلف الله وصبحى منصور .

وفى ظل هذا الاتجاه العلمانى الماركسى ظهرت المدرسة السياسية : بقيادة ميشيل عفلق .

ثم ظهرت المدرسة الفرنكفونية ، محمد أركون ، عبد الله العروى ، الجبالى ، عابد الجابرى ، وفى مصر جابر عصفور وحجازى .

* * *

هذه ملامح المدرسة العلمانية التغريبية التى وجدت أمامها الأفق واسعاً فى ظل حركات القيادات العسكرية ومن خلال الأيديولوجيات الغربية المطروحة فى أفق الفكر الإسلامى وأبرزها : الفكر القومى ، الفكر الاشتراكى .

كان المراد بالدعوة إلى القومية : هدم الوحدة الإسلامية الجامعة وتأكيد الحدود الإقليمية ، وإعلاء شأن الهدف الأصيل فى العمل الاستعمارى وإدامة الاحتلال والسيطرة ، وهو تمزيق الوحدة الإسلامية أساساً .

وإعلاء شأن كل إقليم بتاريخ زائف له ، مستقل عن التاريخ الإسلامى يعتمد أساساً على الدعوات القديمة التى هدمها الإسلام وأزالها من الوجود بإحياء الفرعونية والفينيقية والأشورية والبابلية والزنجية وإحياء البربرية فى الجزائر كما يحدث اليوم تحت اسم (الأمازيعية) وكل هذه الدعوات عمل النفوذ الأجنبي على تركيزها وأقام لها المهرجانات ، وحشد لها الباحثين ، وحاول أن يقدم لكل منها تاريخاً ومنهجاً فكرياً ، ولكنه عجز مع الأسف بعد طول الوقت على تحقيق هذا الهدف .

وجاء مفكرون منصفون من شرق الأرض وغربها ليؤكدوا وجود الانقطاع الحضارى بين عالم الإسلام الذى تشكل بالقرآن الكريم ، ورسالة

محمد ﷺ وبين كل ما سبقه من دعوات بشرية .

ولقد علا الفكر القومى فى الفترة التى نتحدث عنها ، واستعلى وأعطت له القوى التغريبية كل المعطيات القادرة على إنجاحه ، ولكنه مع الأسف عجز عن تحقيق أى نجاح .

فقد كان المنطلق الذى انساق فيه منحرفاً عن الطريق الصحيح ، إذ إنه انفصل انفصالاً تاماً عن تراث الأمة الإسلامية وعن منهجها فى تكوين الجماعات على نحو ما رسم القرآن الكريم : ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ [سورة الحجرات : الآية ١٣] وكذلك كان الأمر بالنسبة (للماركسية ـ الاشتراكية) عندما رأت بعض دول إفريقيا وآسيا أنها ستجد فى حضانة روسيا ومذهبها ما يُمَكّنها من النهضة بعد أن خرجت من نفوذ الاستعمار الغربى .

لقد كانت التجربة فى هذا المجال أشد مرارة من تجربة القومية وسقطت توجيهات كبار رجال الاستشراق الذين دعوا المستعمرين إلى تمزيق الجامعة الإسلامية بهذين السيفين .

ولقد كان العمل فى مجال تدمير الوحدة الإسلامية الجامعة ، والحيلولة بين المسلمين وبين امتلاك إرادتهم أو تكوين مجتمعهم الأصيل واسعاً وعميقاً وقد جندت له كفايات من كبار السياسيين والفلاسفة ، وحشد له جمع من أبناء المسلمين الذين أخذوا ليتعلموا فى جامعات الغرب ، ويعودوا أتباعاً للنفوذ .

وكانت الخطة كما رسمها (جب) هي أن يكون لكل قطر (فكر سياسى واجتماعى) مختلف عن القطر الآخر ، فى محاولة جريئة لتمزيق وحدة الفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية ، وليكون لكل قطر منهج وتاريخ وسياسة منفصلة تماماً ، وكان من أخطر هذه الصور الأقطار الثلاثة التى سيطرت عليها فرنسا فى إفريقيا (تونس) و (الجزائر) و (المغرب) فالمسيطرة على الأقطار الثلاثة هى فرنسا ، ولكنه فى كل قطر منها نظام ثقافى وتربوى مختلف ؛ حتى لا تلتقى ولو على الوحدة الغربية .

وكان العمل الموجه إلى عالم الإسلام موزعًا داخل الأقطار ، ولكنه كان موحداً فى دائرة النفوذ الأجنبى .

وكانت هناك قوى مختلفة تعمل فى الميدان :

أولاً : قوى النفوذ الاستعمارى السياسى المسيطر .

ثانياً : قوى التبشير المنطلق فى قلب العالم الإسلامى لإخراج أهله من دينهم .

ثالثاً : قوى الاستشراق التى عملت على تزييف كل مقومات الإسلام فكره وتاريخه ، وأصدر رجالها أكثر من ٦٠ ألف كتاب تحوى تلك الشبهات وتقدمها للغربيين حتى يتجنبوا الوصول إلى حقائق الإسلام .

رابعاً : بروتوكولات صهيون التى خططت على أن تسيطر على الأمة الإسلامية بعد إسقاط الخلافة ، وتدمير الإمبراطورية العثمانية الإسلامية .

خامساً : سموم العلوم الإنسانية والاجتماعية .

وقد كانت هذه الأطروحات كلها بالغة الأثر فى شبكات الأمة الإسلامية عن طريقين :

الطريق الأول : هو طريق التعليم .

الطريق الثانى : هو طريق الصحافة .

ففى الوقت الذى حجب فيه النفوذ الأجنبى المسيطر على أغلب أقطار العالم الإسلامى الشريعة الإسلامية عن التطبيق فى المجتمع الإسلامى خاصة فى مجال :

(المصرف والمحكمة والمدرسة) .

إذ رفعت القوانين الإسلامية ، وحلت محلها القوانين الوضعية ، فأصبح الاقتصاد ربوياً ، وأصبحت المحكمة تحكم بقوانين الغرب ، أما الخطر الشديد فهو تغريب التعليم ، وفرض مناهج الغرب فى كل العلوم تقريباً ، وكانت مقررات الغرب هى فى المقدمة .

نظرية دارون ، نظرية فرويد ، نظرية ماركس ، نظرية سارتر ، ونظرية

دوركايم فى علوم الطبيعة والنفس والاقتصاد والاجتماع والأخلاق ، ولقد واجه الفكر الغربى فى أفق العالم الإسلامى والفكر الإسلامى نفس ما واجهته الدعوات القومية والاشتراكية ، فقد عجزت هذه النظريات المادية عن أن تجد قبولاً حقيقياً ، وسرعان ما تكشف موقعها وعجزها عن العطاء نتيجة لعدم قدرتها على مواجهة متغيرات الزمن والبيئة ، فقد تأكد : أن هذه النظريات فى النفس والأخلاق والاجتماع والتربية والاقتصاد قاصرة وعاجزة ، وغير مقبولة أصلاً فى أفق الفكر الإسلامى ، الأصيل المرن الواسع القادر على الاستجابة للنفس الإنسانية والعقل الإسلامى وتكامل النظرة إلى الحياة وإلى المجتمع ؛ لأنها قامت على العقل والقلب والمادة والروح والدنيا والآخرة .

ولم يكن من المعقول أن يستجيب المسلمون للمناهج المادية الانشطارية ، وعندهم المنهج الأصيل المتوازن الجامع القادر على العطاء والذى أعطى قبل ذلك العالم كله أكثر من ألف سنة ، وفى مقدمة ذلك عطاؤه فى مجال العلوم التجريبية ، ونظرية المعرفة الجامعة بين العقل والقلب .

* * *

هذه هى المدرسة التى شكلها النفوذ الأجنبى داخل الجامعة وداخل الصحافة والتى أطلق عليها هاملتون جب : مدرسة التغريب فى سبيل صبغ الفكر الإسلامى ، بصبغة التحرر الكامل عن كل ضوابط المجتمع الإسلامى وفتح الطريق أمام الغزو فى مختلف جوانبه حيث تطورت المعركة من التغريب إلى الغزو الفكرى ، ثم تطورت مرة أخرى إلى العلمانية والتنوير ، وذلك فى سبيل إقرار مجموعة من الخطايا ، وتدمير مجموعة من القيم والأصول التى هى الثوابت التى جاء الإسلام لإقرارها والدفاع عنها ولقد كانت هذه الدعوة المسمومة التى تحملها الريح الصفراء ، وتعطى نفسها أسماء الأضداد ، حيث تسمى التنوير والتقدم

تصدر تحت أسماء ثلاثة : هى العلمانية والماركسية وبروتوكولات حكماء صهيون تحت العمل على هدم الأصالة (والغاء التميز الخاص للأمة الإسلامية ، والدخول فى التبعية الكاملة للحضارة المادية) .

وهى ترمى إلى تفكيك القيم ، وتدمير الضوابط ، وهدم الحدود ، وفتح الباب واسعاً أمام (المحرمات) .

على هذا النحو كانوا يكتبون فى مختلف القضايا : محمد أركون وتلميذه أحمد عبد المعطى حجازى ، وسعيد العشماوى ، وحسين أحمد أمين ، وأدونيس و غالى شكرى . فى محاولة للقضاء على خصوصية الفكر الإسلامى وتميزه الواضح وربانيته وأصالته (بحيث تفقد الأمة الإسلامية فى معركة الحضارة كل سلاح تستلهمه من ثوابتها ومن تراثها وحضارتها ، وينهار سريعاً لفقدانها جهاز المناعة أمام الشرائح الحضارية الأخرى التى تكوّن فى النهاية الجسم البشرى ، فالحياة الإسلامية ثوابت بالدرجة الأولى ، واستيعاب للتطور بالدرجة ، الثانية فالمسلمون يضمون قلب هذا العالم إلى عقله ، بحيث يقدمون صياغة حضارية للحياة الإسلامية تتميز عن النزعة المادية التى تسيطر على الحياة الوافدة ، نحن جزء من البشرية ، ولكننا نؤمن بأن لنا رسالة خاصة ومتميزة (عبد الحليم عويس) .

لقد جاءت المرحلة الأولى زاخرة كالريح الصفراء تحمل مفاهيم مادية وإلحادية وإباحية يراد فرضها على الفكر الإسلامى على النحو الذى رسمته بروتوكولات صهيون ، تهدف إلى تدمير الوجود الأصيل للإنسان من خلال أمرين :

(أ) من خلال الفلسفة المادية التى تنكر وجود الله الحق ورسالة النبوات والوحى والغيب والبعث والجزاء .

وقد عمل الكثيرون فى هذا المجال فى محاولة لإثارة الشبهات أمام منهج القرآن وقانون الإسلام القائم الحق الذى لا يتغير وهو :

(قانون الثوابت والمتغيرات) .

فهناك محاولة خطرة مضللة ترمى إلى تحويل الثوابت إلى متغيرات ووضع أمور الحياة كلها فى خانة المتغيرات .

ونرى هذا واضحاً فى كتابات كثيرة تجرى للعمل على إنكار ألوهية النص القرآنى وتزييف السنة النبوية ، جاءت هذه الدعوة على أقلام كثيرة في محاولة لفرضها على العقل الإسلامى وإقرارها ، وإحالة الدين إلى مجموعة من التراتيل والصلوات ، وحجبه عن الحكم فى أمور المجتمع والاقتصاد والسياسة والتربية ، وينتهى هذا إلى تدمير الشباب جملة برفع الضوابط التى قررها الإسلام ، ليعمل فى مجال العبث والإباحة ما شاء وجاءت قوى كثيرة تحاول أن تثبت هذا المعنى وتخدم هذه الغاية فى سبيل تدعيم وجود القوى التي عرفت نفسها في (بروتوكولات صهيون) بأنهم قادة الحكومة العالمية التى تسبق الصهيونية لإقامتها على بقايا الوجود الإسلامى القائم ، حيث يجرى بناء هيكل سليمان ، وإقامة اليهودية الماسونية الصهيونية بديلاً لكل أديان السماء .

كانت الغاية هى ضرب مفهوم « الدين » الذى أقامه القرآن الكريم والإسلام ، وتحويله إلى تعاليم أخلاقية ولاهوتية لا صلة لها بالحياة والمجتمع هذا جانب ، أما الجانب الآخر فهو فرض الفلسفة المادية التى تنكر عالم الغيب جملة ، وتتمثل فى مفاهيم العلوم الإنسانية والاجتماعية التى تدمر الإنسان عن طريق الوجودية (سارتر) والماركسية (ماركس) والتحليل النفسى (فرويد) والمادية (دور كايم).

وفى عالمنا الإسلامى فرضت نفسها ثلاث قضايا كبرى من خلال هذا التيار الزاحف من العلمانية والتغريب الذى يحاول أن يسيطر على التعليم والصحافة ، حيث يحمل لواء قضايا ثلاث يريد أن يثبتها ويقيمها ويحميها ، حتى يستظل بها شباب الإسلام وهى :

١ ـ (قضية الحداثة) والتى يحمل لواءها : أدونيس وجماعته .

٢ ـ (قضية الجنس) والتى يحمل لواءها خلفاء إحسان عبد القدوس .

٣ ـ قضية تزييف نصوص القرآن والسنة تحت اسم (قضية النص) على النحو الذى يدعو له نصر أبو زيد وغيره .

والكل يعمل فى ظلال الفلسفة المادية المنكرة لوجود الله تبارك وتعالى على تدرج ، وهى الخيط الممتد منذ بدأت مدارس الإرساليات وصحف الموارنة فى مصر ، والجامعات الأمريكية والكاثوليكية فى بيروت والقاهرة وأستانبول .

وقد مس هذه القضايا جميع الأعلام من طه حسين إلى سلامة موسى إلى زكى نجيب محمود إلى على عبد الرازق إلى توفيق الحكيم إلى لويس عوض ، واليوم يتمثل فى مجموعة من الأقزام الذين يعيشون مرحلة الهزيمة التى بدأت حين بدأ المسلمون إقامة منهج التأصيل الإسلامى ، وإقامة البدائل وأسلمة العلوم والمصطلحات ، وكشف الإعجاز القرآنى فى العلوم على هذا النحو الذى يزعج العلمانيين والمستغربين إزعاجاً شديداً [(١)] .

غرة المحرم ١٤١٧ هـ

المؤلف

* * *

(١) مراجع أساسية : للمؤلف (منهج كامل لمراجعة الفكر الحديث)

(أ) إعادة النظر فى كتابات العصريين .

(ب) الصحافة والأقلام المسمومة .

(ت) قراءة إسلامية لتاريخنا الحديث .

(ث) جيل العمالقة والقمم والشوامخ .

(ج) الشبهات والأخطاء الشائعة .

طه حسين

رائد مذهب الشك في الفكر الحديث

كان علينا أن نتحدث عن الآثار التى تركها طه حسين فى آفاق الفكر الإسلامى والأدب العربى بعد مائة ، عام وما هو موقف الفكر الإسلامى فى عصر الصحوة من النظريات والأفكار التى طرحها خلال أكثر من خمسين عاماً ، ونحن نقول : إنه بالرغم من كل ما كتبه التغريبيون فى هذه المناسبة ، فإنه لم يتحقق لهم أى نصر حقيقى .

وننتهز هذه الفرصة فنؤكد أنه خلال الدراستين اللتين صدرتا عن دار الاعتصام تحت عنوان :

١ ـ طه حسين : حياته وفكره فى ميزان الإسلام .

٢ ـ محاكمة فكر طه حسين .

لم ترد مطلقاً أى كلمة يمكن أن توصف بأنها اتهام بالكفر أو الإلحاد ، فقد مضى البحث فى ضوء المفهوم الإسلامى الأصيل بعيداً عن الهوى ، وربما كان غيرنا هو الذى قال مثل تلك العبارات .

وإنما قلنا : إن كل ما فى الموضوع أن الأمانة بالنسبة للأجيال الجديدة من شباب الإسلام تقتضينا أن نضع أمامها حقائق الإسلام فى مواجهة الشبهات التى ساقها العميد ، أما غير ذلك من شأنه هو شخصياً فهذا أمر نكله إلى الله تبارك وتعالى .

ومن يدعى غير ذلك فليقدم لنا النص الذى اعتمد عليه ، وهو غير موجود أصلاً .

ولعل أقرب الطرق إلى التعرف على حقيقة إنسان ما ، هم أهله وأقرب الناس إليه والذين تتلمذوا عليه، وعرفوه عن قرب ، وهؤلاء هم أقدر الناس على تصويره والحديث عنه.

وهؤلاء مازالوا يتحركون فى دائرة الثقافة ، وقد كتبوا أو مازالوا شهوداً ، هناك الأساتذة:

محمود محمد شاكر ، ودكتور نجيب البهبيتي ، وهناك دكتور محمد محمد حسين ، وزكي مبارك ، ومحمد الخضيرى رحمهم الله ، ولهم كتابات مسجلة تكشف موقف الدكتور طه حسين منهم عندما اختلفوا معه فى رأى من الآراء ، وما نالهم من الاضطهاد والإبعاد .

الدكتور محمد محمد حسين هاجر إلى بيروت ثم إلى الرياض ، والدكتور البهبيتى إلى المغرب ، والدكتور الخضيرى أخرج من الجامعة ؛ لأنه ترجم ونشر رسالة ديكارت (مقال عن المنهج) التى ادعى طه حسين أنه يتخذها منهجاً له ، وهى لا تحوى أى عبارة مما نسبها إلى ديكارت.

والأستاذ محمود محمد شاكر ترك الجامعة كلها وترك مصر ؛ لأنه لم يستطع أن يكاشف طه حسين بأن ما يقوله فى الشعر الجاهلى هو كلام مرجليوث الذى كان قد نشره قبل ذلك فى إحدى المجلات الغربية ، أما زكى مبارك فقد رفض الدكتور طه حسين تجديد عقده فى الجامعة ، فخرج هائماً على وجهه ، وكتب مقاله المشهور (لو جاع أولادى لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه) هذه المعركة التى أطلق عليها معركة لقمة العيش ، والتى قال عنها المازنى (إن طه حسين الذى أعرفه قد مات أما هذا الذى ينزع اللقمة من فم أسرة بأكملها فلا أعرفه) .

إن حديث تلاميذ طه حسين وتغيره عليهم حديث طويل ، فإذا رجعنا إلى النظريات وجدنا حقائق مذهلة :

أولا : لقد كتب طه حسين (الفتنة الكبرى) فى الظرف الذى استعلى فيه المد الإسلامى بالدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وكان خلاصة ما أذاعه :

« أن العرب لم يقبلوا منهج الإسلام ، وأن هذا الإسلام لم يترك أى أثر فى المجتمع الجديد وأن نظامه فشل فى أواخر أيام عمر بن الخطاب ، واستدعى قيام هذا الصراع فى عهد عثمان ، فكانت هذه الأحداث علامة على أن هذا المنهج لم يعد صالحاً » .

وهى دعوى باطلة مدّعاة تكذبها عشرات المواقف والأحداث ، ولكنها كانت فى وقتها ترمى إلى هدم الصيحة المنطلقة للدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية والكشف عن صلاحيتها وعطائها الذى اعترف به أساطين رجال القانون فى الغرب فى عديد من مؤتمراتهم ، وطوال أكثر من أربعين عاماً متوالية .

ثانيا : مما يذهب إليه البعض من مآثر طه حسين أنه أدخل هذا المنهج الديكارتى إلى ميدان البحث فى التراث والتاريخ .

ولقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا المنهج كان معروفاً ومعتمداً لدى مفكرى العرب والإسلام من رواة ومحدثين وفقهاء وفلاسفة ومؤرخين ، ولكن بمفهوم آخر غير ما ذهب إليه طه حسين ، ولقد ثبت أيضا أن « ديكارت » قرأ رسالة (المنقذ من الضلال) للإمام الغزالى ، وأشار أمام بعض النصوص عبارة تنقل إلى بحثنا (مقال عن المنهج) ولقد تعرف بعض كتّابنا إلى هذا النص ، وقرءوه فى مكتبة ديكارت فى جامعة السربون ، وسمعته شخصياً من فم المؤرخ الكبير عثمان الكعاك الذى روى لى هذه الواقعة والتى سجلها الدكتور زقزوق فى كتابه عن « الغزالى وديكارت » .

فما معنى هذا ؟ معناه أن طه حسين لم يكن قد اطلع على الفكر الإسلامى أو أحاط بملامحه الأساسية ، وإلا ما وقع فى هذا المأزق الخطير الذى يؤكد (عدم إلمامه) بأبعاد الفكر الإسلامى ، ولو أنه كان قد اطلع على بعض ما اطلع عليه ديكارت الغربى من رسالة المنقذ من الضلال ما كان قد وقع فى هذا المأزق والادعاء الباطل الذى استعلى به وهو ليس على الحق بأن قدم شيئاً لم يكن يعرفه المسلمون .

ولو درى لعرف أن كل من قرأ بعض جوانب الفكر الإسلامى يعرف ذلك ، وقد أكد ذلك الدكتور الخضيرى حين ترجم (مقال عن المنهج) لديكارت ، وطبعه السيد محب الدين الخطيب ليثبت أن طه حسين لم يكن صادقاً فى أمرين :

الأول : فيما نقله عن ديكارت .

الثانى : فيما ادعاه من أن المسلمين لم يكونوا يعرفون هذا المنهج ، ولقد انبرى طه حسين يقول لعلماء الأزهر : هذا علم لا تعرفونه ، فرد عليه الدكتور محمد أحمد الغمراوى قائلاً : نحن نعرفه وأنت لم تقل الحقيقة ، فما هكذا عرض ديكارت لفكرة الشك حين جعلها مقدمة للإيمان ، ويصدق المستشار عبد الحليم الجندى فى هذا الموضوع إذ يقول :

إن طه حسين هو أول من أدخل فكرة الشك الفلسفى فى الأدب العربى والفكر الإسلامى ، وغداها حياته كلها .

وقد أشار أحد الباحثين إلى أن المستشرقين قالوا لطه حسين إن منهج ديكارت يغيظ الأزهريين ، وإن أسلوب الشك هو مصدر الشهرة وإحداث الدّوى .

ثالثاً: قال الدكتور محمد حسين هيكل فى حديثه عن كتاب (على هامش السيرة) إنه يدعو إلى مثيولوجية إسلامية لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ، تشكك المستنيرين ، وتدفع الريبة إلى نفوسهم فى شأن الإسلام ونبيه ﷺ ، فقد كانت تلك هى غاية الأساطير التى وضعت فى الأديان الأخرى ، ومن أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين فى جميع العصور بتطهير العقائد من تلك الأوهام .

وهذه شهادة خطيرة من زميل دربه ورفيق صباه ، تكشف عن الهدف المبيت الخطير .

رابعاً : إذا نظرنا إلى الشبهات التى أثارها نجدها قد تحطمت واحدة بعد الأخرى .

١ ـ تحطمت نظرية (بشرية القرآن) التى فرضها على طلبة كلية الآداب حين قال لهم : انتقدوا القرآن كنقد أى نص بلاغى ، وحين قال إن لغة القرآن المكى جافة ، ولغة القرآن المدنى مذللة حين اتصل النبى ﷺ باليهود .

٢ ـ تحطمت نظريته فى أن اللغة العربية هى لغتنا ونحن أحرار فيها ومن حقنا أن نتصرف فيها كما نشاء ، فقد تكشف خطأ هذه الدعوى ، لأن العربية إن كانت لغة العرب قومياً فهى لغة الثقافة والعقيدة لأكثر من ألف مليون مسلم .

٣ ـ أنكر شخصية عبد الله بن سبأ اليهودى صاحب المؤامرة الخطيرة التى انتهت بمقتل خليفة المسلمين : عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولكن تبين أنه لم يكن قد اعتمد على مصادر سليمة ، وكان ذلك خدمة لبعض الأهداف المشبوهة .

٤ ـ اتهم أبا الطيب المتنبى بأنه (لقيط) وقد كذبت الأيام هذا الاتهام .

٥ ـ حاول أن يسمى مفاهيم الفلسفة علماً ، وقال إن الدين لم ينزل من السماء وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها .

وقد اتضح أن هذه مقولة اليهودى دوركايم ، وكذبها علماء التجريب الذين اعترفوا بوجود الله تبارك وتعالى .

٦ ـ أحيا (رسائل إخوان الصفا) ودعا إلى اعتبار كتاب (الأغانى) وألف ليلة وليلة مرجعين للبحث الاجتماعى ، وادعى أن القرن الثانى الهجرى كان عصر شك ومجون .

٧ ـ من أخطر دعاوى طه حسين مقولته فى أن الإسلام انتهى بعد عصر الراشدين ولم

تطبق الشريعة الإسلامية بعد ذلك ، وقد كذبت الوقائع هذه المقولة ، ويشهد على ذلك رجل وكتاب ، أما الرجل فهو الشيخ الجبرتى الذى سجل فى تاريخه : أن الشريعة الإسلامية كانت مطبقة إلى أن دخل الفرنسيون مصر .

أما الكتاب فهو (وصف مصر) الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية وأشاروا فيه إلى أن المجتمع المسلم كان قائماً على تطبيق الشريعة .

خامساً : كان من أخطر دعاوى طه حسين مقولة أن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدولة ، وأشدها خطراً مقولة أن نسير سيرة الأوربيين ، وأن نقبل من الحضارة الغربية ما يحمد وما يعاب .

* * *

تبعية طه حسين لمناهج المستشرقين

أولاً : مراجعات مع كتابات طه حسين الأولى

ابن خلدون والمعرى

بدأ الدكتور طه حسين حياته الدراسية الأكاديمية بدراسة عن رجلين بارزين فى تاريخ الأدب العربى و الفكر الإسلامى : هما ابن خلدون وأبو العلاء المعرى .

أما ابن خلدون فقد خضع طه حسين فى دراسته لمنهج أستاذه اليهودى (دوركايم) فانتقص قدره وسخر منه ونظر إلى منهجه التاريخى نظرة احتقار بالغ ، وكان فى ذلك متابعاً لنظرة دوركايم الذى كان وفق منهجه وعقيدته ودعاواه الباطلة ، يحاول أن يغض من شأن هذا العملاق الذى اعترف له المفكرون الغربيون بالتقدير البالغ على مدى حياة طه حسين الطويلة ، بل لقد عقد فى مكتب القاهرة مؤتمر لتخليد ذكرى (ابن خلدون) وأقيم له تمثال في ميدان من أهم الميادين ، وقد حضر هذا المهرجان عدد من علماء الغرب الذين أشادوا بالدور الذى قام به ابن خلدون فى بناء منهج علم الاجتماع ومنهج علم التاريخ .

ولكن ذلك لم يكن ليلفت نظر الدكتور طه إلى تصحيح آرائه فى هذا العملاق الذى

أكدت كل المصادر أنه سبق الفيلسوف الفرنسي (أوجست كونت) بأكثر من أربعة قرون ونصف القرن في الآراء التي جاء بها ، ولقد لفت ابن خلدون بقوة عدداً من كبار العلماء الغربيين الذين أكدوا ريادته المستمدة من القرآن الكريم أساساً وليس من علوم أخرى ، وقال عنه (أرنولد توينبي) إنه تصور وصاغ فلسفة هي بلا شك أعظم نتاج أبدعه أي ذهن في أي بلد ، واعتبره (فرانز روزنتال) أحد كبار الشخصيات في كل الأزمان .

وقال عنه أحد الدارسين : (أنه جاء بدون سلف وبقي بدون خلف) ولقد بات واضحاً أن دور كايم وتلميذه طه حسين كانا يحملان على ابن خلدون من خلال الحقد على الإسلام نفسه ، فقد تبين للأول ـ كما تابعه الآخر ـ أن مصادر ابن خلدون لم تكن الفكر اليوناني كما ادعى البعض ، وإنما كانت من القرآن والسنة ، وأن مصطلحاته نفسها التي استعملها مستمدة من القرآن الكريم .

* * *

فإذا ذهبنا ننظر إلى (أبي العلاء المعري) وجدنا أن طه حسين كان يهيم في أجواء البحث ولم يستطع أن يردها ، لقد كان كل هدف الذين قدموه ، أن يدرس المعري من خلال منهج غربي مادي قائم على مفهوم (الجبرية) وبذلك يكون قد جاوز الأصول العربية والإسلامية لدراسة الشخصيات التاريخية ، وهذا هو الهدف الذي مازالوا يفخرون بأنهم دفعوا إليه طه حسين ، وهو هدف لا يشرف أحداً ؛ لأنه يتعارض مع عقيدة الكاتب وثقافته الإسلامية التي تؤمن بالإرادة الفردية أساساً .

وقد ظهر الفارق العميق واضحاً حين قدم الشيخ عبد العزيز الميمني دراسته الواسعة المستفيضة عن المعري ، وحين سجن نفسه في المكتبات الهندية التي تحتضن النوادر والذخائر من المخطوطات والوثائق في اللغة والأدب والتاريخ والسير والتراجم حتى كتب الجغرافيا والرحلات .

فقد كان على ـ حد تعبير الدكتور محمد راشد الندوي ـ طريقه طويلة شاقة متعبة ، ولكنه كان أقوى وأصمد إزاء مختلف المشكلات ، فقد رزق همة عالية ونفساً متحركة وشوقاً ملتهباً ورغبة ملحة للعلم والثقافة ، فكان يقضي الساعات في غرف هذه المكتبات

المظلمة بين المخطوطات التى تكدس الغبار وملفات الوثائق التى تراكم عليها التراب وبين الأوراق المبعثرة والمنتشرة فى المكتبات الخاصة .

ولم يذكر العملاق الميمنى المدة التى قضاها فى إعداد هذا التأليف المهم ولكن الذى يقرأه يدرك كل الإدراك أنه ليس عمل سنة أو سنتين ، لأن المؤلف لم يترك مرجعاً من المراجع العربية والفارسية حتى الإنجليزية إلا وقد قرأها ووعاها بعد غربلة وتمحيص ، وأخرج منها معلومات وأخبار استعان بها فى ترتيب هذا الكتاب وتأليفه .

ثم يقول : فإذا قارنا بين كتاب طه حسين (ذكرى أبى العلاء) وبين كتاب العلامة الميمنى (أبو العلاء وما إليه) ندرك أن طه حسين قرأ أعمال المستشرقين وأبحاثهم قراءة دقيقة فأعجب بها كل الإعجاب ، وتشبث بأفكارهم وآرائهم وإن اختلف معهم فى بعض القضايا الجزئية التى أخطأ فيها المستشرقون بعدم فهم النصوص القديمة ولفقوها كل تلفيق ، هنا هبَّ طه حسين لتصحيح هذه الأخطاء فهو فخور ومبتهج كأنه أتى بشىء جديد ، وأضاف إلى المكتبة العربية خيراً كثيراً ، فالخطة التى رسمها طه حسين لهذا الكتاب أو هذه الرسالة الجامعية هى خطة أجنبية فى ظاهرها وباطنها فى معناها ومغزاها ، قد نقلها إلى العربية فى أسلوب جميل أبدى فيها مهارته وجدارته . فالكتاب ظهر وهو يمثل المثل الأعلى فى الكتابة العربية بما فيها من سحر وجمال ، وقد قدم طه حسين هذه الرسالة ولما يتجاوز العشرين من عمره تنقصه الخبرة الكاملة ، كما تنقصه المواد الكافية ، لأن الظروف لا تسمح له فى تلك الأيام بأن يطلع على جميع المواد المتعلقة بشخصية (المعرى) التى كانت مبعثرة ومنتشرة بين صفحات الكتب المطبوعة منها والمخطوطة ، فلم يكن فى وسع طه حسين فى هذا العمر أن ينتقل أو يتحول إلى المناطق التى توجد فيها المخطوطات العربية النادرة ، ولم يكن فى وسعه أن يقرأ هذه المخطوطات التى كتبت فى أدوار مختلفة بأقلام متغايرة لذلك تشعر بضآلة الموارد والمصادر فى كتابه ، والكتاب يحتاج إلى هذه المواد كلها لأن شخصية المعرى لم تكن شخصية شاعرة وحدها ، بل كانت شخصية متنوعة تتمثل فيها حياة عصر كامل بما فيها من العلوم المختلفة والمعارف المتنوعة والمذاهب المعقدة، ثم نجد أن المعرى كانت صلته بالأمراء والخلفاء والعماء والجاليات المنتشرة فى أنحاء البلاد العربية فكان على المؤلف أن يكون على إلمام تام بهذه الأمور ، ولا شك أن الدكتور طه حسين حاول أن يلم بهذه الأمور كلها كما هو يدعى ، ولكنى أتصور أنه حلّق حول هذه

الموضوعات ولم يردها وإن وردها فقد خطف منها ما طاب له ، لأن الدكتور طه يدعى أنه فى تأليف هذا الكتاب اعتمد قبل كل شيء على آثار المعرى واستقى منها كثيراً من آرائه كما يقول :

« وضعت هذا الكتاب وقدمته إلى الجامعة وكان امتحانه بين يدى الجمهور وتحدث الناس فى أمره بما علموا وما لم يعلموا ، وأرجف قوم بأنى قد جنيت على المسلمين فأخرجت من بينهم رجلاً هو من خلاصتهم أو جنيت على أبى العلاء فأخرجته من بين المسلمين ، ولو أنهم أجادوا التفكير واصطنعوا الأناة لعرفوا أنى لا أملك أن أدخل فى الإسلام ولا أن أخرج منه أحداً ، وأنه ليس على أبى العلاء بأس عند الله إن كان مسلماً فعده بعض الناس غير مسلم ، ولو كانوا قد قرأوا الكتاب ودرسوه لعرفوا أنى لم أقل فى أبى العلاء إلا ما قال عن نفسه ، ولم أصوره فى هذا الكتاب إلا بما صور به نفسه فى اللزوميات أو غيرها من كتبه » .

* * *

(ذكرى أبى العلاء)

وكان طه حسين قد أصدر حكمه عن عقيدة المعرى ومذهبه فقد كان مطمئناً لأنه قدم هذه الصورة كما صورها المعرى نفسه فى كتبه وخاصة فى اللزوميات التى نظمها بعد الرجوع إلى بغداد وإذ ضاقت به الأرض بما رحبت ، وصار غرضاً لحسد الحاسدين وطعن الطاعنين .

يقول العلامة عبد العزيز الميمنى عن أيامه فى بغداد :

رأى ببغداد مظاهر العز والوجاهة والخفض والراحة وأنه ليس بيده فيها غير الأسف وإصغار الراحة على أنه ما فيه من تجرع الغصص فى هذه الحياة النكداء ببلده خلو من الأسرة والأولاد وهاج له عند أهل عصره نيران لذعت جمرتها روحه والحسد كما يقول المعرى .

فأصبحت محسوداً بفضلى وحده لا على بعد أنصار وقلة مال ، لقد اعتمد طه حسين فى تصوير شخصية المعرى على كتبه إذ يقول أنها أوفر المصادر نفعاً وأجلها خطراً ، ولكنا

حين ندرس كتاب الميمنى ونرى مصادره ومراجعه فى تصوير وتحليل عقيدته ومذهبه نقف حائرين مندهشين إذ نجد أنه أورد فى كتابه كثيراً من أقوال المعرى ومحادثاته التى طار بها طلابه ورواة شعره وأحاديثه إلى أقصى البلاد مشرقاً ومغرباً وقيدتها كتب التاريخ والسير والتراجم بل كتب اللغة والأدب التى لم يطلع عليها الدكتور طه حسين لذلك لم تتضح له معالم فكره كل وضوح ، بل نرى الأستاذ الميمنى قد جمع كثيراً من قصائد أبى العلاء وأبياته التى كانت مبعثرة بين صفحات الكتب القديمة ولم يجمعها ديوان من دواوينه ، لذلك فات على كثير من الباحثين الاطلاع عليها والدكتور طه منهم ، ومن هذه القصائد الفائتة أثبت الأستاذ الميمنى عقيدة أبى العلاء التى تغاير كل المغايرة ما أتى به الدكتور طه حسين فى كتابه .

لذلك وقع طه حسين فى الأخطاء والأوهام التى وقع فيها أساتذته من المستشرقين لعدم الاطلاع على جميع المصادر بحياة أبى العلاء المعرى حتى كثيراً من قصائده وأبياته .

ونرى أن الدكتور طه حسين يعترف فى كتابه عن قلة بضاعته وقصر باعه لدراسة بعض الأبحاث العامة التى هى من صميم موضوع الكتاب .

نقول : المقالة الرابعة من هذا الكتاب كانت تحتاج إلى شىء من البحث والإطلالة فى إحصاء التلاميذ والرواة عن أبى العلاء والإشارة إلى ما أنتجت لهم محبته ، ولكنى أعرضت عن ذلك لأن مصادر التاريخ التى كانت بين يدى حين كنت أؤلف هذا الكتاب لم تسعفنى ، بما كنت فى حاجة إليه لأن الوقت قد كان أضيق من أن يسعنى هذا العمل الكبير .

كان الدكتور طه يتمنى أن يتناول هذا الموضوع لأنه من صميم الكتاب ولكن الظروف لم تسمح بذلك فأعرض عنه ، ولكنا حين ندرس كتاب الميمنى (أبو العلاء وما إليه) نجد أنه تناول هذا البحث جهارة فى خبرة وأتى فيه بالنوادر والعجائب .

(مجلة البعث الإسلامى فى الهند ـ محمد راشد الندوى ـ أغسطس ١٩٨٤) .

يستخلص من هذه المراجعات حقيقتان خطيرتان :

الأولى : ظلم ابن خلدون ووضعه فى موضع أقل مما هو أهل له وإنكار لفضله وعالميته وأصالته وسبقه لعلماء الغرب فى مجالى التاريخ والاجتماع .

الثانية : ظلم المعرى وتصويره بصورة الرقيق العقيدة الشاك المضلل وذلك لأنه لم يستطع أن يطلع على كل آثاره .

ويمكن أن نورد بعض الاعتذار عن سرعة طه حسين فى إعداد رسالتيه عن أبى العلاء وابن خلدون وظروف الأطروحات ولكن ماذا بعد ذلك ؟ وقد وصل إلى طه حسين عشرات من الأبحاث التى تكشف عن فساد وجهته ، على الأقل عشرات من الكتب التى ألفت عن المعرى وكتاب عبد العزيز الميمنى الذى عرضنا تلخيصاً له ، وكذلك ما كتب عن ابن خلدون فى عشرات من أبحاث علماء الغرب أنفسهم وخاصة ما نشر وألقى فى المؤتمر الخطير الذى عقد فى القاهرة ، ولابد أن طه حسين قد سمع به والتقى ببعض كتاب الغرب الذين أشادوا بابن خلدون وخاصة أرنولد توينبى شيخ مؤرخى أوربا إذ ذاك ، لقد كانت كتابة طه حسين عن هذين العلمين مغرضة فى أساسها واعتمدت على منهج غربى خالص لإرضاء المستشرقين المشرفين على الرسالتين ، وكان ولاؤه لدوركايم وقبول مفهومه بوصفه مستشرقاً وبوصفه يهودياً فى الأساس ، كل ذلك كان على حساب الأصالة والموضوعية ، وانتهت إلى الظلم وإلى عجز المنهج الغربى الذى اختاره واعتنقه عن الوصول إلى الحقائق فى حياة الرجلين .

وكان يستطيع طه حسين فى حياته الطويلة أن يصحح هذا الموقف وعشرات المواقف التى وجهه إليها أصدقاؤه ولكنه كان دائماً يقول (اكتم عنى) لأنه لا يريد أن تهتز علاقته بالسادة المستشرقين الذين أوصلوه إلى ما وصل إليه .

* * *

المعروف أن الموضوعات أعدت مسبقًا ثم وزعت على تلاميذ المستشرقين بهدف أن يقدم الاستشراق مفاهيمه فى هذه القضايا الكبرى .

رسالة عن المأمون ـ أحمد فريد رفاعي : ليقدمه على أنه صاحب الرأى الحر .

رسالة عن الغزالى ـ زكى مبارك : ليقدمه على أنه عجز عن ملاحقة عصره .

رسالة عن المعرى ـ لطه حسين : ليقدمه لطرح مفهوم الشك الفلسفى وإذاعته وجعله ركيزة البحث العلمى .

يقول الدكتور محمد راشد الندوى (مجلة البعث الإسلامى) ذو القعدة ١٤٠٤ هـ إذا قارنا بين كتاب طه حسين (ذكرى أبى العلاء) وبين كتاب العلامة عبد العزيز الميمنى (أبو العلاء وما إليه) ندرك أن طه حسين قرأ أعمال المستشرقين وأبحاثهم قراءة

دقيقة فأعجب بها كل الإعجاب وتشبث بأفكارهم وآرائهم ، وإن اختلف معهم فى بعض القضايا الجزئية بالنسبة لعدم فهم النصوص العربية القديمة ولفقوها كل تلفيق ، فالخطة التى رسمها لهذه الأطروحة هى خطة أجنبية تماماً فى ظاهرها وباطنها وفى معناها ومغزاها قد نقلها إلى العربية فى أسلوب جميل أبدى فيها مهارته وجدارته ، فالكتاب ظهر وهو يمثل المثل الأعلى فى الكتابة العربية فيها كل سحر وجمال .

وقدم هذه الرسالة وهو لم يتجاوز العشرين من عمره وكانت تنقصه الخبرة الكاملة كما تنقصه المواد الكافية لأن الظروف لا تسمح ، يقول الأمير شكيب أرسلان : إن مأساة طه حسين تكمن فى تصديقه لكل ما يقوله المستشرقون والأوربيون عموماً . إن مناهجه ونظرياته أوربية بحتة ، وإن آراءه الأدبية الصرفة مقتبسة من آراء الأوربيين وبالذات من الأدب الفرنسى ، ويقول جهاد فاضل : إن الباحثين الفرنسيين لا يستطيعون عندما يصلون إلى طه حسين أن يتحدثوا عنه بموضوعية باردة ، فهذه الموضوعية سرعان ما تختفى ليحل محلها إعجاب ممتزج بالحماسة والتهليل وهو إعجاب لا يمكن تفسيره إلا بأن طه حسين كان مجرد تلميذ من تلاميذ ثقافتهم وحضارتهم ، وإن معارك هذا التلميذ هى بوجه من الوجوه معاركهم ، ولأن من أصلاهم طه حسين ناراً حامية إنما كانوا من رموز الثقافة العربية الإسلامية والفكر العربى التقليدى .

وهم يعتبرون طه حسين إن لم يكن فرنسياً فهو كالفرنسى أو أنه من صنع فرنسا ، وكان طه حسين يود الفرنسيين وداً بود ، فكل ما طلع به الفرنسيون من نظريات تناولت تراثنا العربى بحق أو بباطل وجدت صدى لها فى كتابات طه حسين .

* * *

ثانيا : ما يتعلق بالإسلام

إن كل ما يقال عن أن طه حسين رائد وعميد وقائد جيل كل هذا صحيح بمفهوم أنه هو الذى حول فكر الاستشراق والتغريب إلى اللغة العربية ، وجعله مدخلاً للفكر الإسلامى العربى ، وقاد هذه المعركة فى وجه الإسلام ، وكان هذا المنطلق فقد بدأ بالأدب والشعر والترجمة وغيرها من فنون ليصل منها فى النهاية إلى تغريب الإسلام والتأثير فى مفاهيم القرآن والتاريخ الإسلامى ، وكان رائده الأساسى والأصيل هو « منهج الشك »

وإعلاء الفلسفة اليونانية على الفكر الإسلامي ، وانكشف فى الحلقات الأخيرة ذلك الولاء الواضح للصهيونية .

وكان مدخله إلى القرآن الكريم : ويعدد الشيخ محمد عرفة فى كتاب نقض مطاعن عن القرآن ما أورده طه حسين من شبهات :

١ ـ أسلوب القرآن فى مكة يختلف عن أسلوبه فى المدينة ويعزو هذا الخلاف إلى صلة رسول الله ﷺ باليهود فى يثرب ، وكانوا فى رأيه أهل ثقافة ونبوغ .

والحقيقة أن اليهود فى يثرب كانوا موضع التسفيه والنقض من رسول الله ﷺ لما ارتكبوه من انحدارات هابطة وما لاكوه من أقوال شائعة ، ويتساءل أى الفريقين كان مظنة الإبداع : ويتساءل أفريق مكة أهل الفصاحة والبلاغة أم فريق اليهود بالمدينة ، فكيف يكون اليهود ذوى أثر فى كتاب الله تعالى .

ويقول : دون أن يذكره بالاسم : إن الدكتور طه ألف مرآة الإسلام فإذا كان فى ملاحظاته السابقة يذكر تأثير اليهود فى الأسلوب المدنى فإنه فى هذا الكتاب المنصف ينفى كل تأثير .

ويجهل الدكتور فكر طه حسين فى الأولى وفى الآخرة وقد استبدل شكاً بشك وتفرغ لمسألة أشد خطراً ، ولكن هل كذب نفسه أم أشار مجرد إشارة إلى خطئه الأول ؟.

٢ ـ وقد أشار الدكتور محمد البهى فى كتاب (الفكر الإسلامى وصلته بالاستعمار الغربى) إلى مسألة بشرية القرآن فقال : إن طه حسين يعتقد أن القرآن تعبير عن الحياة التى عاش فيها محمد ﷺ بما فيها المكان والزمان وجوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية فإذا كان القرآن انطباعاً منبثقاً من البيئة فهو بعيد عن ذات هذه البيئة وبالعكس إذا كان بعيداً عن البيئة فقد انطبع أولاً ـ بلا شك ـ فى نفس قائله قبل أن يعبر عنه وقبل أن يقوله ، وكلتا الصورتين تفصح عن أن القرآن عمل خاص بمحمد ﷺ تأثر فيه كما يتأثر الإنسان العادى ، وعبر به عن المعانى التى كانت فى نفسه من بيئته كما يعبر الإنسان عن أية معان تجول فى نفسه وقد تأثر بها فى بيئته وانطبعت فى حاضره فى ظروف الحياة التى تحيط به .

٣ ـ وحين تحدث طه حسين إلى طلبته فى كلية الآداب على النحو الذى نشرته مجلة

الحديث الحلبية قال إن القرآن نوعان مدنى ومكى ولكل منهما صفة تتعلق بالبيئة وبالآثار التى تتصل بمن عاشرهم الرسول ﷺ ، ومقولة أن القرآن كتاب أدب يصح نقده وأن على طلاب الآداب أن يقولوا هذه الآية ركيكة وهذه الآية ضعيفة وهذا هو ما تلاه الدكتور عبد الحميد سعيد فى مجلس النواب من كراسة الطالب هو مسجل فى مضابط المجلس .

٤ ـ وأشار الدكتور طه حسين فى كتابه (فى الصيف) من أن الكتب القديمة يجب أن ينظر إليها بروح النقد ، وعلينا أن نعمل فى القرآن ما فعل الغرب فى التوراة .

٥ ـ ما أثبته طه حسين من أن ما أوردته التوراة وأورده الإنجيل عن وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا يعنى وجودهما حقيقة ، مع ترويج لنظرية أن الإنسان يستطيع أن يكون مؤمنا بضميره كافراً بعقله .

٦ ـ أما كتب طه حسين فى السنوات الأخيرة : الشيخان و . . . . . فقد اشتملت على بعض التجاوزات الخطيرة التى تمس العقيدة الإسلامية وتشكك فى عدم وصول الدعوة الإسلامية إلى سائر أقطار الأرض حيث قال بالنص :

أن النبى ﷺ قد أظهر دين الحق على الدين كله فى جزيرة العرب ، لكنه لم يظهره على الدين كله فى سائر أقطار الأرض .

وتشتمل هذه الكتب على افتراءات وأكاذيب باطلة وشبهات مغرضة تمس جوهر العقيدة الإسلامية وشخص الرسول ﷺ (وقد تبين أن هذه الكتب أريد بها أن تقرر فى المدارس) .

وأخطر من هذا كله (على هامش السيرة) والدعوة إلى إقامة (ميثولوجيا إسلامية) أى إقامة منهج الأساطير الذى تعرفه بعض الأديان فى الغرب ، فقد أشار طه حسين إلى أنه ألف هذا الكتاب على النحو الذى ألفه عليه المستشرق فى الغرب .

* * *

ثالثا : إحياء التراث الوثنى

١ ـ عمل طه حسين منذ اليوم الأول إلى إحياء تراث اليونان القديم المسمى (علم الأصنام) وقد ألف فى هذا كتباً وألقى محاضرات ، وكان قمة عمله فى هذا المجال كتابه قادة الفكر .

فقد اعتبر طه حسين أن قادة الفكر الإنسانى هم اليونان وقد ظل هذا الكتاب مقرراً على الدراسات الثانوية سنوات طويلة ، ولم يذكر طه حسين فى قادة الفكر مسلماً واحداً أو عربياً واحداً على أنه من قادة الفكر الإنسانى لا قبل الإسلام ولا بعده ، كأن لم يكن هناك من مفكرى العرب والإسلام من يستحق هذه المكانة التى وصل إليها أرسطو وأفلاطون .

وكيف كان ذلك يدرس لأبنائنا ليعلموا أن الغرب هو الذى قاد الفكر ولا يزال .

٢ ـ وفى عمله باللجنة الثقافية بالجامعة العربية أولى اهتمامه لترجمة كتب اليهود أمثال ول ديورانت وغيره وعشرات من المؤلفات المسمومة حاولت نقل الإلحاد ، والوثنية إلى اللغة العربية تعزيزاً لهدف اليونسكو غير المعلن فى القضاء على التراث الإسلامى ، وإعلاء شأن الأساطير التى عرفتها الماسونية وروجت لها على مدى القرون وتمجيد المادة واحتقار الإنسان .

٣ ـ وفى إحياء التراث أولى الدكتور طه حسين كتاب الأغانى وكتاب ألف ليلة وكتاب رسائل إخوان الصفا اهتمامه البالغ فقد جعلها على ما فيها من سموم وانحراف من الكتب الأساسية والمراجع العامة ، ولقد أمضى طه حسين حياته كلها فى إحياء الأساطير اليونانية وترجمة المسرحيات القديمة وتجاهل التراث الإسلامى .

٤ ـ أما الشعر الجاهلى (ومن بعده الأدب الجاهلى) فقد كان الضربة الكبرى التى وجهها طه حسين إلى الفكر الإسلامى ، فقد روج لنظرية المستشرق اليهودى مرجليوث فى إنكار نسبة الشعر الجاهلى إلى أهله والادعاء بأنه شعر منحول ، كتبه العرب بعد الإسلام .

وكان الهدف الذى ركز عليه المستشرقون وفي مقدمتهم مرجليوث (الذى كان يعتبر المصدر الأول لطه حسين) أو (رينان) (الذى عرف أخيراً بأنه المصدر الحقيقى لطه حسين) ، كان الهدف هو إنكار الشعر الجاهلى الذى يعتبر المصدر الأول لتفسير

مصطلحات اللغة العربية فى القرآن ، فإذا هدم هذا الركن أو أصابته الشكوك كان بعيد الأثر فى هذه الوجهة .

(اقرأ كتابنا محاكمة فكر طه حسين ففيه تفصيل واسع) كان القصد هو تحطيم الدعائم التى قام عليها تفسير الألفاظ العربية الموجودة فى القرآن والتى نزل بها القرآن لأن العرب يعرفون معناها الوارد فى ديوانهم القديم ، والشعر ديوان العرب .

* * *

رابعاً : مستقبل الثقافة

(**مستقبل الثقافة**) أخطر كتاب من كتب طه حسين حيث يضع منهجاً للمجتمع المسلم والعربى على هذا النحو :

أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً وشركاءً فى الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب .

ولا ريب أن هذه الدعوى هى أخطر ما يريد الاستعمار والنفوذ الغربى أن يجد بلادنا الإسلامية وقد تجاوزت حضارتها وثقافتها وعقيدتها ، وانصهرت فى الحضارة الأوربية التى تمر بأقسى فترات انهيارها وضعفها .

ومن أخطر مقولاته فى هذا البحث :

١ ـ أن المؤثر الأساسى فى تكوين الحضارة المصرية وتكوين العقل المصرى هى حضارة البحر الأبيض المتوسط .

٢ ـ اعتبر العرب كاليونان والفرس والرومان مستعمرين لمصر ، ونسى أن كل ما يعزى إلى شخصية المصريين من صمود وقوة وقدرة على حماية المقدرات يرجع إلى عطاء الإسلام .

٣ ـ يرى أن مصر كانت دائمًا جزءاً من أوربا فى كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية .

٤ ـ أن الإسلام لم يخرج مصر من عقليتها الأولى الفرعونية .

وقد قوبل هذا الكتاب منذ اليوم الأول لصدوره بالمقت والاحتقار ، لأنه دعا المسلمين والعرب إلى التسليم الكامل بالتبعية للغرب وقبول حضارتهم .

وقد تبين فساد نظرية أن عقلية مصر كانت دائما عقلية غربية تتصل بالفكر اليونانى ، وكانت هذه الدعوة المدعاة ترمى إلى تحقيق ما سموه حضارة البحر المتوسط بينما الحقيقة أن مصر كانت منذ فجر الإسلام ذات عقيدة ربانية منذ أن جاءت رسل الله تبارك وتعالى : إدريس وإبراهيم ويوسف وموسى عليهم الصلاة والسلام ، ومنذ أن وسدت الهجرات العربية أرضها للفتح الإسلامى الذى حرر المصريين وشمال أفريقيا من عبادة الأوثان .

ولقد كان العقل المصرى والعقل العربى جملة عقلاً موحداً صادق الإيمان بالله تبارك وتعالى ، ولذلك فإنه لم يقف كثيراً أمام قبول الإسلام الذى لم يفرض نفسه على أحد ، وإنما دخله أهل البلاد المفتوحة إيمانا بالعدل والرحمة والإخاء الذى لم يفرض عقيدته على أهل البلاد ، بل تركهم يقومون بعباداتهم فى حرية كاملة .

* * *

خامساً : طه حسين

رائد مذهب الشك الفلسفى فى الفكر الحديث

نظرية الشك الفلسفى :

يكاد المستشرقون والباحثون الغربيون يجمعون على أن هدف طه حسين الأول الذى أعد له ، والذى عمل له خلال حياته كلها من خلال كتاباته سواء منها التى ألقيت فى الجامعة كمحاضرات أو نشرت فى صحف أو فى كتب مطبوعة تجمع على شيء واحد هو : إرساء منهج الشك الفلسفى فى حياة الفكر الإسلامى على نحو يسيطر تماماً على التاريخ والنقد الأدبى والمسرح والدراما ، واتخاذ كل أساليب البيان للوصول إلى هذه الغاية فقد اتخذ ذلك أول الأمر أسلوبه فى الجامعة حيث حمل لواء الدعوة إلى نقد القرآن بوصفه نص أدبى ، وتشكيكه فى وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

ثم عندما تحول من الجامعة إلى وزارة المعارف كان هدفه دس هذه الشكوك وغيرها فى

مناهج الدراسة وكتب القراءة والثقافة ، ثم عندما تحول إلى لجنة الثقافة بالجامعة العربية كان هدفه ترجمة وإحياء الفكر الغربى والفكر اليونانى فضلاً عن فرضه تعلم اللغتين اللاتينية واليونانية كمصدر للفكر الإغريقى القديم ، ثم كانت خاتمة ذلك كله كتاباته المضطربة عن الفتنة الكبرى وعن الصحابة وعن الخلاف بين عثمان وعلى رضى الله عنهما ، وما بعده فى أسلوب خاطف مضطرب ليس أسلوب المؤرخ ولا أسلوب الباحث ، وإنما أسلوب من يثير شبهات وشكوك واتهامات ويتركها من غير إجابة عليها لإثارة العقول والقضاء على الثقة بأصول ومقومات التاريخ الإسلامى .

ويصور هاملتون جب الدور الذى قام به طه حسين فى هذا الصدد فيقول : إن مصر ظلت فى سبيل تحقيق الديمقراطية والعلم الغربى جاهلة لمصادرهما ومحتقرة إياها لبعض الاحتقار فجاء طه حسين وكشف عن أسباب تلك الحالة المتناقضة فلم يرض عنه تلاميذه أولاً وعاندوه ، ولكنهم ما لبثوا أن انقادوا رويداً رويداً حيث هاجم الرأى العام المصرى بطريقة (الشك الفلسفى) والرأى المصرى غير مستعد لها وسار يقطع المراحل من إنكار إلى إنكار .

ومما يذهب إليه البعض من مآثر طه حسين أنه أدخل هذا المنهج إلى ميدان البحث فى التراث والتاريخ .

وقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن هذا المنهج كان معروفاً ومعتمداً لدى قدماء المفكرين العرب والمسلمين من رواة ومُحدِّثين وفقهاء وفلاسفة ومؤرخين حيث خضع الشعر والأدب والتاريخ والحديث النبوى وحتى بعض ما كان من عداد المسلمات الفقهية لقانون الشك من المذاهب الإسلامية من يعتبر الشك أساس الإيمان أو منطلقه ، ومن قال بأن الشك أساس المعرفة وطريق اليقين .

والواقع أن مفهوم الشك الذى عرفه المسلمون كان شيئاً آخر مختلفاً عن نظرية الشك عند اليونان والأوربيين والتى عرفت بنظرية ديكارت والتى ادعى طه حسين أنه يحمل لواءها أما فى مفاهيم الإسلام وعلى النحو الذى عرف عند الإمام الغزالى فقد كان الشك مقدمة لليقين ، أما فى مفهوم طه حسين والاستشراق والغرب فإن الشك للشك .

والواقع أن طه حسين لم يكن قد اطلع على الفكر الإسلامى وأحاط به وإلا ما وقع

فى هذا المأزق الخطير الذى يؤكد على جهله بأبعاد الفكر الإسلامى ولو أنه حتى كان قد اطلع على بعض ما اطلع عليه ديكارت الغربى وهى رسالة (المنقذ من الضلال للإمام الغزالى) ما كان قد وقع فى هذا الادعاء الباطل الذى استعلى به وهو على ضلال بأنه قدم شيئاً لم يكن يعرفه المسلمون ، ولو درى لعرف أن ديكارت أشار فى نسخته الفرنسية من (المنقذ من الضلال) أن اختار عبارات الغزالى واعتمدها فى (رسالة عن المنهج) التى ترجمها الدكتور الخضيرى وطبعها السيد محب الدين الخطيب لكى يؤكد ذلك كذب طه حسين ، وأن هذه النصوص التى أوردها ديكارت ليست هى التى لملمها طه حسين وادعاها لديكارت .

وقد أغضب ذلك طه حسين لأنه كشف عن أنه خدع الأزهريين حين قال لهم إنه جاء لهم بما لم يكونوا يعرفوه ، وقد شاء الله أن يثبت عكس ذلك على لسان الخضيرى[1] مترجماً عن الفرنسية والدكتور الغمراوى .

وتبين للناس جميعاً أن طه حسين بادعائه وصلفه كان كاذباً فى أمرين ، فيما نقله عن ديكارت ، وفى ادعائه بأن المسلمين لم يكونوا يعرفون هذا المنهج .

ولقد علق على هذا الأستاذ محمود محمد شاكر فقال : إن ادعاء طه حسين أن القاعدة الأساسية فى منهج ديكارت أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل بحثه خالى الذهن خلواً تاماً مما قبل ، فإن هذا شيء لا أصل له وتكاد تكون هذه الصياغة كذباً مصفى ، بل هو خارج عن طوق البشر .

هبه يستطيع أن يخلى ذهنه خلواً تاماً مما قبل ، وأن يتجرد من كل شيء كان يعلمه من قبل ، أفيستطيع هو أيضا أن يتجرد من سلطان اللغة التى غذى بها صغيراً حتى صار إنساناً ناطقاً ؟ أفيستطيع أن يتجرد من سطوة الثقافة التى جرت منه مجرى لبان الأم ؟ أيستطيع أن يتجرد من بطشة الأهواء التى تستكين ضارعة فى أغوار النفس وفى كهوفها كلام يجرى على اللسان بلا زمام يضبطه ، محصوله أن يتطلب إنساناً فارغاً خاوياً مكوناً من عظام كسيت جلداً ؟ .

* * *

---

(١) أخرج الدكتور طه الدكتور الخضيرى من الجامعة بعد ترجمة كتاب ديكارت انتقاماً منه .

وقد عرض الدكتور البهبيتى (أحد تلاميذ طه حسين الذين كشفوا انحرافه) منهج الشك فى دراسة وافية عميقة (فى كتابه المدخل إلى الأدب العربى) بدراسة المنهج عند ديكارت ومقارنته بمنهج الإمام الغزالى الذى هو الأصل المنتحل وخرج من ذلك بأن الغربيين أنفسهم انتقدوا منهج ديكارت هذا وتخلوا عنه ولم يطبقوه على تراثهم من جهة وبأن هذا المنهج لم يكن غريبًا على أسلافنا وعلمائنا ، بل إن ديكارت نفسه لم يكن إلا عالة على الغزالى صاحب المنهج الأصلى .

(ولكن طه حسين الأزهرى الذى درس التراث الإسلامى : لم يكن يعرف عن هذا المنهج شيئاً مما يعرفه ديكارت الفرنسى المسيحى) .

يقول الدكتور الودغيرى الباحث المغربى (جريدة العلم ١٩ يوليو ١٩٩٢) : ولم يكن منهج التعديل والتجريح عند المحدثين إلا أصل من مناهج دراسة النصوص وتحقيقها وتوثيقها عند سائر علماء المسلمين وفى مقدمتهم علماء الأدب واللغة من جهة ثانية ، وأن طه حسين صاحب نزوة الشك لم يكن على علم بشىء من منهج ديكارت نفسه من جهة ثالثة وانتهى إلى أنه لا يجوز لأحد أن ينتحل لنفسه مهنة الطعن فى تراثنا وتشويه تاريخنا وهو مجرد من كل دليل ، خال من كل حجة ، كما ظهر طه حسين عارياً أمام النائب العام الذى طالبه بتقديم الحجة والنص والدليل فقال قولته المشهورة : (أنا لا أفهم شيئاً) ومن ثم أصبح من الواجب تصديق النص أو الوثيقة الموجودة إلى أن يظهر ما يثبت فسادها أو وضعهما أو ضعفهما وكذبهما .

وتلك قاعدة أصولية وفقهية إسلامية مشهورة متفرعة من أصل الاستصحاب فى أصول الفقه .

وهى أن الأصل فى المتهم البراءة إلى أن يثبت العكس ، وبذلك نصون عرضنا وتاريخنا من كل دعي ومتقول لا يملك سنداً لإثبات دعواه .

ولقد قال الأستاذ محمد نور النائب العام فى مصر الذى حكم فى قضية التهمة الخطيرة التى ألصقها طه حسين بالأدب العربى وتاريخه ولغته وتراثه قال :

(والشك بغير دليل طريقة سهلة جداً فى متناول كل إنسان عالماً كان أو جاهلاً) .

وفى كل أعمال طه حسين يبدو واضحاً هذا الهدف : هدف إثارة الشكوك والشبهات حول جميع النصوص والوقائع .

فقد كان الشك عنده هدفاً بحد ذاته ، ويثير الشبهة فى النفوس الضعيفة أو التى لم تحط بأصول القضايا دون أن يقدم لها أى إجابة ، وهو منهج يختلف عن منهج الإمام الغزالى الذى عرفه الإسلام ، وبعيداً عن منهج ديكارت الذى كان يدعو إلى الخروج من دائرة الأساطير .

أما طه حسين فقد كان يرمى إلى إثارة الشبهات فى وجه كل الثوابت والقيم والمقومات وخلق جو من القلق والاضطراب .

وكان أخطر دعوات تشكيكه : هى نظرية بشرية القرآن ودعوة طلابه إلى نقد القرآن باعتباره نصاً أدبياً .

ومقولة أن القرآن له لغتان : جافة فى مكة ومذللة فى المدينة ، هذا بالإضافة إلى إنكاره الدين جملة بأنه لم ينزل من السماء ، ولكنه خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ومن ذلك دعواه بأن الحكم بالإسلام انتهى بنهاية الخلفاء الراشدين ، وتشكيكه فى السيرة النبوية وإقامة ما يسمى (ميثولوجية إسلامية) تجمع كل روايات الأساطير وأخبارها .

* * *

سادساً : موقفه من اليهود والصهيونية

تحركت علاقة طه حسين بالصهيونية العالمية واليهود من خلال مراحل متتابعة لعل كان أول نقطة فيها اتصال طه حسين بالمحافل الماسونية ، ثم كانت الخطوة الواضحة خلال عمله بكلية الآداب بالجامعة فى طريقين :

(**الأول**) : محاضراته عن إسرائيل واليهودية فى محافل اليهود .

(**الثانى**) : احتضانه بعض شباب اليهود ، فى مقدمتهم (ولفنسون) الذى أعد أطروحة عن اليهود فى الجزيرة العربية والثانى (بول كراوس) .

ثم كانت المرحلة الحاسمة بعد دخول اليهود فلسطين وذلك فى إصدار مجلة (الكاتب المصرى) وطبع عشرات الكتب التى تخدم الثقافة الصهيونية خاصة خلال عمله باللجنة الثقافية فى الجامعة العربية (وكل هذا قد وضحناه بالتفصيل فى كتابنا : طه حسين حياته وفكره) .

١ ـ تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام ـ إسرائيل ولفنسون ١٩٢٧ :

يقول الدكتور طه حسين فى مقدمة الكتاب :

الموضوع فى نفسه قيم جليل الخطر ، بعيد الأثر جداً فى التاريخ الأدبى السياسى والدينى للأمة العربية ، فليس من شك أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيراً قوياً فى الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز ، وليس من شك أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الإسلام ويهودية هؤلاء اليهود ، وفى أنها استحالت من المحاجة والمحاولة إلى حرب بالسيف انتهت بإخلاء اليهود عن البلاد العربية ، ولم يكن تاريخ هؤلاء اليهود فى بلاد العرب معروفاً على وجهه ، وإنما هى طائفة من الأخبار والأحاديث يرويها القصاص .

فإذا كان عالمنا الشاب (يقصد إسرائيل ولفنسون) قد وفق إلى الخير فى هذا الكتاب الذى قدمه إلى الجامعة المصرية ونال به شهادة الدكتوراه الذى أقدمه أنا الآن إلى القراء سعيداً مغتبطاً بتوفيقه فضاعف جهده لأنه وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل .

وفق إلى أن يبسط تاريخ اليهود فى البلاد العربية قبل الإسلام وإبان ظهوره بسطاً علمياً أدبياً لذيذاً ممتعاً فى كتاب كانت اللغة العربية فى حاجة إليه فأظفرها بهذه الحاجة .

وكان هذا العمل تتمة لمشروع كبير قام به الدكتور طه حسين حين زار المدارس الإسرائيلية وألقى بها محاضرات مضللة عن ما سماه أثر اليهود فى الأدب العربى مما نشرته صحيفة الشمس اليهودية فى محاولة خطيرة تحاول أن تجعل لليهود أثراً فى الثقافة العربية .

ففى إحدى هذه المحاضرات (جريدة الشمس) ٢ يناير ١٩٤٤ فى المدرسة الإسرائيلية بالإسكندرية يقول طه حسين :

العرب قبل الإسلام تأثروا بثقافة اليهود الدينية وفضائلهم وقد أخذوا منهم فلسفتهم فى أن الحياة وسيلة لا غاية ، وأن اليهود المستعربين فى بلاد النصارى عاونوا أبناء عمومتهم

العرب على الفتح بعد الإسلام ، وأنهم كانوا عنصراً أساسياً فى فتح بلاد الأندلس لمساعدة طارق بن زياد ضد القوط ، وأن العرب فى مراحل غزوهم شمالى أفريقيا وأوروبا وحتى فلسطين كانوا يقدمون جيوشهم وكان اليهود يتعاونون فى إدارة البلاد سياسياً واقتصادياً بل فى تسهيل السبيل لسير هذه الجيوش الغازية ، ولولا هذا التعاون الوثيق لما كانت الإمبراطورية العربية الضخمة وإليهم يرجع الفضل فى نقل ثقافة العرب إلى أوروبا وفى جعل الأدب العربى أدباً عالمياً .

وإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أجحف بهم يوم أجلاهم عن الجزيرة بحجة أنه لا يمكن أن يكون بالجزيرة إلا دين واحد .

ولقد كان لما نشره اليهود فى صحيفتهم الشمس وما ألقاه طٰه حسين من محاضرات فى المدارس اليهودية وما كتبه إسرائيل ولفنسون فى أطروحته التى أجازها طه حسين ، كل ذلك كان له أثره فى كتابات الباحثين للكشف عن حقائق الأمور بما يخالف ما رواه ولفنسون وطه حسين ، وقد نشرت مجلة السياسة الأسبوعية (٣٠ نوفمبر ١٩٢٦) رداً عما كان يذيعه اليهود وعملاؤهم .

قال الكاتب تحت عنوان (هجرة اليهود إلى جزيرة العرب) إنهم شراذم من فلول يهودية خرجوا فارين من وطأة الرومان الساحقة بعد المؤامرة على السيد المسيح عليه السلام وقد حطوا على أخصب منطقة هناك فما لبثوا أن أنشبوا مخالبهم فيها واستنفدوا خيراتها وأقاموا فيها مستعمرات وآطاماً خصبة فى يثرب وقريظة وخيبر وفدك وتيماء ووادى القرى ، وأثروا ثراءً فاحشاً ورسخوا وجودهم على حساب الوجود العربى الممزق بالفتنة الخانقة للأوس والخزرج ، وقد أتى على يثرب حين من الدهر طال لخمسة قرون من القرن الأول إلى أوائل القرن السابع حيث لم ينطفىء فيها سعار حروب متوالية بين قبيلة خب فيها يهود أو وضعوا ليدمروا الوجود العربى .

وعاش اليهود يتربصون بالأوس والخزرج ليميلوا مع الغالب على المغلوب ، وكانت آخر حرب بينهما يوم (بعاث) قبل بيعة العقبة الكبرى بأربع سنوات وقد لعب فيها اليهود دورهم المشئوم فما كانت نذرها تلوح حتى تدخل بنو قريظة فتواطؤوا سراً مع الأوس وذاع السر وعلم الخزرج بهذا التواطؤ فأيدوا اليهود ، وغدرت اليهود بالخزرج حين لاحت بوادر الغلبة للأوس ، وانهزمت الخزرج يوم بعاث ووضعت الأوس فيهم السلاح واجتاح يهود

قريظة والنضير بيوت الخزرج ينهبون ويسلبون ، فلما جاء الإسلام أعطاهم النبى ﷺ عهده بالموادعة والأمان على أموالهم وأنفسهم .

والواقع أن اليهود هاجروا إلى جزيرة العرب خائفين هاربين بعد خراب الهيكل ، وقد دخلوا عن طريق القوافل وتجارة الخمور ، وليس صحيحاً ما ادعاه اليهود وأولياؤهم من أنهم حضّروا العرب وأدخلوا إليهم العلم والأدب ، فالحقيقة أنهم هم الذين انصهروا فى اللغة العربية وكتبوا بها وتركوا لغتهم القديمة .

ولم يكن لدى اليهود تعاليم دينية يمكن أن يقال إنها من أسباب المساعدة على ظهور الإسلام فقد كانت ثقافتهم كلها أشلاء وأخلاط مسروقة من ثقافات الأمم التى عاشروها .

ومن يراجع ثقافتهم لا يجدها إلا آراء متناقضة ، فمن القول بالقدر إلى القول بالجبر ومن التشبيه إلى التنزيه ومن القول بالرجعة إلى إنكارها ، والغالب على عقائدهم التشبيه فهم يجعلون الله جل وعلا صورة تكلم الناس مشافهة وتنزل إلى الأرض انتقالاً ويستوى على العرش استقراراً ويحورون الرؤية ، وليس فى الديانة اليهودية اسم علم لله تبارك وتعالى غاية ما عندهم كلمة : (الوهيم) وهى كما لا يخفى اسم جمع ، أما التوراة فقد ذكرت (إهيه ويهوه) .

وكانوا يتناقلون عقائدهم بما يتلقونه من الأفواه من القصص والروايات بلا نقد ولا تمحيص ، ولذلك التبست عليهم الخرافات التى كانت من أساطير الأديان الأخرى القديمة وهى المعبر عنها بالإسرائيليات .

ولم تكن بضاعتهم إلا نظريات مقتبسة من تعاليم شتى تمسك بها اليهود بتأثير القرون فأكسبتهم الأنانية والاحتكار للهداية الإلهية ، وقد زعموا أن الدين بدأ بهم وختم بهم .

وتقول الدكتورة عواطف عبد الرحمن (فى كتابها عن الصحافة الصهيونية فى مصر) عن مجلة (الكاتب المصرى) إن معظم من شاركوا فى هذه المجلة كانوا من التيار المؤمن بالقومية المصرية الذى عبر عنه لطفى السيد ومحمد حسين هيكل وأحمد أمين والعقاد والحكيم وطه حسين فى العشرينيات والثلاثينيات .

ولم تكن (الكاتب المصرى) هى المحاولة الوحيدة للالتفاف حول المثقفين المصريين ،

ولم تكن المحاولة الوحيدة لاكتساب تعاطف طه حسين وقد تتلمذ على يديه كثير من الطلبة اليهود أمثال إسرائيل ولفنسون الذى أعد رسالة دكتوراه عن تاريخ اليهود فى بلاد العرب أشرف عليها طه حسين ، وقد أحاطت الصحافة اليهودية طه حسين باهتمامها الواضح ، وقد قام أحد المثقفين اليهود بترجمة كتاب طه حسين (الأيام) إلى العبرية كما قام بزيارة مدارس الطائفة الإسرائيلية بالإسكندرية عام ١٩٤٤ ، وكان فى استقباله كبار الشخصيات اليهودية وعلى رأسهم الحاخام الأكبر فنتورا ، وأعدوا نشيداً خاصاً للترحيب به ، وألقى طه حسين محاضرة فى علاقة اليهود بالأدب العربى استثمرتها الصحف اليهودية فى الدعاية بينما تعرض الدكتور طه للهجوم بسبب هذه المحاضرة فى الصحف العربية .

وفى دائرة اهتمام الدكتور طه حسين باليهود والصهيونية يأتى اهتمامه بيهودى آخر هو « بول كراوس » احتضنه طه حسين فى الجامعة بحجة سعة علمه بالتراث العربى الإسلامى وقد ظل كراوس فى حماية الدكتور طه وفى ظل نفوذه عميداً للكلية كان أو مجرد أستاذ بها .

وكان كراوس حاقداً على الإسلام فى وقت كان الحقد على الإسلام يتضمن الحقد على العروبة ، ولقد اهتم كراوس أشد العناية بإحياء رسائل كتبها أئمة الملحدين فى عصر الإلحاد والزندقة فى الإسلام وإحياء أئمة الملحدين الذين اعتصموا بالعقل وأخذوا بمنطقه واستهانوا بالإيمان الديني واستخفوا به .

فمن أشهر الرسائل التى جد فى البحث عنها ونشرها بعد دراستها رسائل (ابن الراوندى) وكانت طعناً سافراً فى الإسلام وهدماً صريحاً للنبوة وإبطالاً للرسالات السماوية وسخرية بالمعجزات واستخفافاً بإعجاز القرآن حتى جعل فصاحة (أكثم بن صيفى) تفوق فصاحة القرآن .

وكان ابن الراوندى يبطن الزندقة ويقصد إلى زعزعة الإسلام فى نفوس أهله .

وكان من أحب المفكرين الإسلاميين إلى قلب المستشرق بول كراوس : محمد بن زكريا الرازى .

حقيقة إنه كان من أعظم أطباء عصره ولكن كراوس اهتم به ملحداً شغل نفسه بهدم النبوة استناداً إلى قيمة العقل منطقه ، وتصدى لهدم الأديان كلها ، ربما لأن ذلك خطوة إلى زعزعة العقيدة الإسلامية فى نفوس أهلها ، فقد نقد الرازى الكتب المقدسة وأثار

شبهات حول بيانها وهاجم إعجاز القرآن نظماً وتأليفاً ومعنى ، وهكذا سار سيرة سلفه الملحد ابن الراوندى.

(يراجع عبد الرحمن بدوى الذى نقل هذا إلى العربية عن كراوس) وترجم له كثيراً من بحوثه فى كتابه (شخصيات قلقة) وكان أخلص أصدقاء كراوس ، وقد قام كراوس بنشر رسائل جابر بن حيان الذى كان يعده البعض معجزة العرب فى العلم الطبيعى ، فاعتبره كراوس شخصية خرافية وليس شخصية تاريخية واقعية .

وهو ما ذهب إليه بعض المستشرقين .

واهتم كراوس أن يثبت الصلة بين كتبه المنحولة وآراء غلاة الشيعة الإسماعيلية .

وقد أشار الدكتور نصار عبد الله إلى أن المستشرق كراوس فى حبه للعروبة ودفاعه عنها هو موضع شك كبير .

وتجمع الروايات على أنه كان حاقداً على الإسلام فى وقت كان فيه الحقد على الإسلام يعنى الحقد على العروبة .

وقد كان سبب انتحار بول كراوس فضيحة مالية شهدتها كلية الآداب ومؤداها أن الدكتور طه حسين قد أوفده إلى فلسطين لشراء بعض الكتب والمخطوطات ، وحين عاد كراوس بالكتب لاحظت إدارة الحسابات أنه لم يتقدم بفواتير الشراء ، وأبدت قدراً كبيراً من الشك فى صحة الأثمان المزعومة ، وتبين أن كراوس اختلس معظم الثمن لنفسه .

طه حسين يبشر بمقدم كراوس :

يقول الدكتور طه الحاجرى : ذهبنا إليه بعد عودته من رحلة الصيف فى أوروبا وفى هذا المجلس أخذ يحدثنا عن بعض ما أتيح له فى هذه الرحلة وعن بعض ما اتفق له فيها مما يرجو أن يهيىء لكلية الآداب نصيب موفور ، وهو يعنى بذلك هذا الشاب الذى عرفه هنالك ، إنه شاب تشيكى اتخذ الاستشراق منهجاً له ، لم يكد يتحدث إليه حتى أعجب بسعة ثقافته ومرونة تفكيره وما يملك من أدوات علمية لابد منها لمن اتخذ هذا المنهج يتمثل إلى جانب ما يعرفه من اللغة العربية ، فيما يحيط به إحاطة جيدة من اللغات الأوروبية القديمة وأخصها اللغة اليونانية واللغات السامية القديمة كالعبرية والسريانية

والآرامية ، وقد أعانه على أن يمضى فى الموضوع الذى استهواه وشغل به فكره وهو التأريخ للفكر العلمى عند العرب (مجلة الدوحة - ديسمبر ١٩٨٢) وكان ابن الراوندى فى المقدمة قبل أن ينتحر !

سابعاً : سقوط منهج طه حسين

مهما قيل فى منهج طه حسين الذى خدع بعض الأغرار ثَمَّةَ فقد انتهى هذا المنهج وتكشّف فساده وانهياره ، وصحح الفكر الإسلامى طريقه بعد أن خدعه التغريبيون فترة من الزمن .

ومهما يحاول العلمانيون اليوم ومعهم الماركسيون إحياء طه حسين فإنهم خادعون ومخدوعون ، وفى خلال الندوات التى عقدت فى السنوات الأخيرة تكشفت حقيقة طه حسين فلم يجد غلمان الاستشراق والتبشير من بد فى أن يقدموا أسماء جديدة تحاول أن تقيم الصرح الذى انهار ، هذه الأسماء الجديدة كانت موصوفة لأنها كانت تعمل فى مؤسسات التغريب فى اليونسكو أو فى محطة إذاعة لندن ، أو غيرها من المؤسسات .

ووجد الدعاة المضللون فى تراث الماركسية سناداً لهم على الخداع دون أن يعرفوا أن هناك فوارق عميقة .

لقد سقط منهج طه حسين وما كان له إلا أن يسقط لأنه لم يقم على أسس ثابتة أو قواعد أصيلة ، وإنما قام على هدم كل قيم الثبات والإيمان وإحلال مذهب الشك الفلسفى فى نفوس كل من يقرأ كلماته فى كتبه ، وأكثر الناس تأثراً بهذه السموم طلاب المدارس التى قررت عليها كتبه .

واليوم بعد عشرين عامًا من انكشاف حقيقة طه حسين نجد أن أقرب الناس إليه قد أخذوا فى تصحيح موقفهم وكشف الزيف ، فقد انهدمت هذه المذاهب فى الغرب نفسه ، انهدم مذهب الشك ومذهب فرويد ودارون وماركس ودوركايم .

ولقد كشف هذه السموم أقرب الناس إليه : أنور عبد الملك وعبد الحميد إبراهيم عميد كلية الدراسات العربية بجامعة المنيا تحت عنوان (طه حسين وانتصار النموذج الأوربى) فى موسم ١٩٨٩ .

إن دعوة طه حسين هى الدعوة إلى الأخذ بحضارة استعمارية والعداء للإسلام والأزهر

وخلاصة الاتهامات لعبارة صريحة هى : (التبعية الفكرية والفكر الدينى) .

وقد حملت عليه صحف اليسار بأنه لا يرى من وجوه الحضارة إلا وجهًا واحداً لا خلاف عليه ، أما وجهها الآخر الذى تقترن فيه المعرفة والعلم والعقلانية بالحق والعدل والحرية فهو لا يراه .

فقد كانت دعواه : الأخذ بالنمط الغربى حتى تزول الفروق بيننا وبين الأوربيين ، وهذا يتناقض مع خلق ثقافة عربية .

إن الغرس الذى غرسه هذا الرائد العظيم قد تحطم وأصبح حصاد الهشيم ، وقد أصبح تلاميذ طه حسين يتامى بعد أن انهارت آمالهم وتكشف فساد دعاواهم ، وقد هزموا مرتين بعد انكشاف فساد منهجهم وهزموا بسقوط الماركسية .

وفى المصور ١٧ نوفمبر ١٩٨٩ (ندوة طه حسين فى الجامعة) تحت عنوان « لماذا يهاجمون طه حسين » لرجاء النقاش أشار فى مقاله إلى حملة أنور عبد الملك على طه حسين ، وردها إلى أن أنور ينطلق من فكر يسارى .

فيرى طه حسين أن الدولة العصرية لا تتحقق إلا بالأخذ بحضارة الغرب الأوربى شمال حوض البحر المتوسط بينما يرى أنور عبد الملك أن أوروبا هى الاستعمار والإمبريالية لا العقل والعدل والحرية وأنه لا معدى من الاتجاه للشرق الأقصى أو العودة إلى الأصول .

ويرى أنور عبد الملك أن الحضارة الغربية بفكرها وقيمها المادية وتاريخها ليست النموذج الذى يحتذى فى بناء هذه الدولة المتحضرة التى ننشدها ، وأن النهضة لا تكون إلا بريح آتية من الشرق البعيد ، ويعنى بها الحضارة الهندية والصينية واليابانية مع الارتباط بآسيا وإفريقيا فى إطار الأصالة والإبداع الخاص .

لقد جاء اتهام أنور عبد الملك لطه حسين بكل الصيغ التى تصفه بالعمالة للغرب فى حين أن الماركسيين يرون أن فى سطوة الاتجاه الأصولى الذى يدعو إليه أنور عبد الملك إنما يخدم أهداف الاستعمار فى تخلف وطننا .

وبالجملة فإن الظاهرة الحديثة أنه فى مؤتمرات المنيا ١٩٨٠ ، مؤتمر جامعة القاهرة ١٩٩٠ ألقيت أبحاث تتعرض بالنقد لكثير من مفاهيم الدكتور طه حسين بل إن غالى شكرى يذهب فى كتابه (أقنعة الإرهاب) إلى أنه ألقيت أبحاث أجهد الأساتذة أنفسهم

فيها لإثبات أن طه حسين ليس أكثر من مؤامرة صهيونية شاركت فيها فرنسا ، وأنه أقرب أن يكون يهودياً مزروعاً فى مصر ولهدم الإسلام .

وأشار الكثيرون إلى أن حملة طه حسين على الأزهر لم تكن ضد جمود الأزهر أو أسلوبه التلقينى فى التعليم وإنما هى أحقاد قديمة وأحلام جديدة ترمى إلى زوال هذا النمط من التعليم .

وما تزال آثار المخطط الذى نفذه طه حسين وأتاح له وجوده فى الجامعة وفى وزارة المعارف وفى لجنة الثقافة بالجامعة العربية فرصة واسعة لنمو هذه الأعمال التى تتمثل فى دعم :

أولا : مؤامرة الحوار :

فقد جاءت الدعوة إلى الحوار بين الإسلام والمسيحية من منطلق غربى أساسى فى مرحلة من المراحل التى أصبح فيها الإسلام يمتلك قوة مادية جديدة يحرص الغرب على السيطرة عليها وهى النفط وفى وقت تزايدت فيه الدعوة إلى حاجة العالم العربى إلى الإسلام كمنقذ له من أزماته بعد أن تهاوت النظم الاقتصادية الغربية الماركسية وبروز ظاهرة التطلع إلى الإسلام لتقديم الحلول الاجتماعية والنفسية بعد أن تعالت صيحات الإلحاد والإباحية وسقوط المجتمع الغربى فى أتون الصراع ، فقد كانت الدعوة إلى الحوار تستهدف تحقيق هدف التقارب مع المسلمين دون التنازل عن أى وضع قائم فعلاً ، وكانت أخطر الأوضاع التى تعترض الحوار فى الحقيقة هى إصرار الغرب على تنفيذ مخطط التبشير المعلن على مناطق كثيرة من البلاد الإسلامية .

وقد اقتحم طه حسين هذه الثغرة وخدع الناس ثم تبين أن الغرب يرمى إلى الحصول على كتابات من أعلام الفكر الإسلامى المعاصر بأنه لا فارق مطلقًا بين المسيحية والإسلام فكلاهما دين منزل فلماذا يفكر بعض الغربيين فى الدخول فى الإسلام ، وكان هذا العمل من أخطر المؤامرات التى كانت ترمى إلى حجب مفهوم المسيحية الغربية المعاصرة (التى تختلف عن المسيحية المنزلة) خاصة فى مفاهيمها الثلاثة : التثليث ، والخطيئة (والصليب) .

ثانياً : دعم مفاهيم خطيرة :

أهمها المنهج الاجتماعى الذى يقوم على تحليل الشخصيات وإظهار ظروفها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

وهى النظرية التى حاول تطبيقها على حركة التاريخ الإسلامى بدعوى تجريده من (الغيبيات والخوارق والكرامات والمعجزات والأساطير) على حد تعبير الماركسى (محمود إسماعيل) .

وكان هو العمل الخطير الذى اختلف فيه مع الماركسيين الذين يفسرون التاريخ على مذهب الحادثة التاريخية والجدلية والحتمية ، ومن هنا كانت سقطاته حين سمى الفتح الإسلامى (السلطان العربى) وطالب بفصل الدين عن الدولة وهاجم الدولة العثمانية ورماها بالانحطاط وهى التى حافظت على الإسلام خمسة قرون .

والحقيقة أن طه حسين لم يكن مؤرخاً بأى حال من الأحوال ، ولكنه كان يطبق منهج الشك الفلسفى على وقائع معينة فى التاريخ الإسلامى ليثير حولها الشكوك والشبهات.

ثالثاً : مقولات خطيرة سقطت كأوراق الخريف :

١ ـ مقولة أن مصر فرعونية وأن العرب أمة مستعمرة كالرومان والفرس احتلت مصر .

٢ ـ مقولة أن الإسلام قد بقى على هامش حياة المسلمين ، وأن الدين قد خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها .

٣ ـ مقولة أن العصر الثانى للهجرة كان عصر شك ومجون وفسوق .

٤ ـ إنكار شخصية عبد الله بن سبأ اليهودى .

٥ ـ إعادة الأساطير إلى السيرة النبوية بعد أن نقاها العلماء على طول العصور .

٦ ـ خطأ مقولة أن حضارة البحر المتوسط هى المؤثر الأساسى فى تكوين الحضارة المصرية والعقل المصرى .

٧ ـ مقولة أن الإسلام هو السلطان العربى وأن المصريين لم يخضعوا لهذا السلطان كما لم يخضعوا من قبل للفرس واليونان والرومان .

٨ ـ مقولة أن مصر كانت دائماً جزءاً من أوروبا فى كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية .

٩ ـ مقولة أن الإسلام لم يخرج مصر من عقيدتها الأولى الفرعونية .

١٠ ـ مقولة أننا التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها فى الحكم ونسلك طريقها فى التشريع .

١١ ـ دعوته إلى تأكيد الدولة القومية والقضاء على الوحدة الإسلامية بكل ما يمكن من وسائل .

والواقع أن كل مشروع طه حسين قد تحطم منذ اللحظة الأولى التى بدأت فيها حركة اليقظة الإسلامية ، وكان عمل طه حسين وهيكل والعقاد وتوفيق الحكيم فى كتابة السيرة والتاريخ الإسلامى هى رد فعل واضح للدعوة الإسلامية وانتشارها ، وإن كان أغلب ما كتب فى هذا الاتجاه كان علمانياً .

ولكن عدداً ضخماً من الكتاب المسلمين على رأسهم مصطفى صادق الرافعى والزيات ومحمد أحمد الغمراوى وسعيد العريان ومحمود محمد شاكر ومحب الدين الخطيب قد كتبوا فى الأصالة ، وكان العدد السنوى من مجلة الرسالة مثالاً عالياً لهذا الاتجاه ، وكانت كتابات أخرى تحمل الاتجاه نفسه فى قوة تمثلهم مجلات : النذير والشبان والإخوان والفتح.

لقد غيرت اليقظة الإسلامية الموقف وتلاشى ذلك الجو العلمانى المظلم الذى رسمه طه حسين وسلامة موسى والذى كان يبحث عن التراث المنحرف فى شعر أبى نواس وكتابات إخوان الصفا وفلسفات وحدة الوجود والحلول وابن عربى والحلاج وغيرهم مما حاول طه حسين ابتعاثه ، فإذا جاء اليوم طه حسين يدعى أنه هو وهذه المجموعة قد أحدثوا الأدب الإسلامى فهو لم يكن صادقاً ؛ لأنه إنما كان يدعو إلى أدب الميثولوجيا وقد ذكر ذلك وأكده حين قال أنه أخذ اسم كتاب (على هامش السيرة) من كاتب فرنسى كتب عن أساطير المسيحية هو جول ليمتر (على هامش الكتب القديمة) .

وقد صحح الكتاب المسلمون أخطاء هيكل وطه حسين والعقاد فيما يتعلق بموقفهم من الإسلام خاصة فيما يتعلق بالعبقريات وإنكار الإسراء والمعراج وتحويل الدكتور طه حسين الصحابة الأجلاء رضى الله عنهم إلى سياسيين محترفين كما فعل فى كتابه (الشيخان) وغيره ، ولقد حاول طه حسين أن يتغنى بالدعوة إلى حرية الفكر ولكنه كان

مسرفًا ، فقد خرج على الضوابط والحدود التى رسمها الإسلام لحرية الفكر وحاول أن يشكك فى القرآن ، فى ذهاب إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى الجزيرة العربية ، وفى إنكار استمرار الحكم الإسلامى بعد الخلفاء الراشدين خاصة فى إنكار أن الدين نزل من السماء وأنه خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ، وأن مقولة ديكارت بأن الباحث يجب أن يتجرد من كل شيء يعلمه هذا ما لم يقل به ديكارت ، وهو ليس معقولاً عقلاً .

وإن ادعى الإصلاح فإنه لم يكن من المصلحين من دعا إلى تحطيم الثوابت والشك جملة لم يكن من شأن المصلحين والعلماء .

أما ادعاء الماركسيين بأن هناك صلة بين طه حسين ومحمد عبده فى منهجه الفكرى فذلك ليس صحيحاً بشهادة طه حسين نفسه حين كتب بعد عودته من أوروبا أنه تجاوز الشيخ محمد عبده (اقرأ كتابنا طه حسين حياته وفكره) وأنه دعا إلى تجاوزه بعد أن وصفه بالجمود .

وإن الجبرية التاريخية ، والشك الفلسفى ، والوضعية المنطقية ، والعلمانية والعقلانية بمفهوم الغرب كلها من النظريات التى تختلف مع منهج الإسلام الجامع للعقل والقلب والدنيا والآخرة .

وقد علمه المستشرقون أن منهج الشك الفلسفى هو مصدر الشهرة وإحداث الدوى فجعل الشك قاعدة أساسية لمنهجه .

* * *

فكر طه حسين بعد عشرين عاماً (١٩٧٣)

ظهرت فى خلال هذه السنوات العشرين ١٩٧٣ ـ ١٩٩٣ حقائق كثيرة تؤكد ثبات موقف طه حسين ومنهجه الذى كان يقوم أساساً على إذاعة منهج الشك الفلسفى وتأكيده فى جميع المجالات التى اشترك فيها ، وفى مقدمتها منهج كلية الآداب ، ومناهج الأدب فى الثانوية كمقدمة للجامعة واللجنة الثقافية فى الجامعة العربية بإحياء المفكرين الماركسيين واليهود على النحو الذى حققه فى مجلة (الكاتب المصرى) .

ووضح تحوله من الدعوة إلى الفرعونية إلى الدعوة إلى ثقافة البحر المتوسط وفى هذه المرحلة اتضح أن تبعية منهج طه حسين فى (الشعر الجاهلى) ليس تابعة لكتابات المستشرق اليهودى (مرجليوث) على نحو ما ذكر كثيرون ، ولكنه كان تابعاً لأرنست رينان على النحو الذى كشف عنه الدكتور عبد الرشيد الصادق ، وإن كان طه حسين لم يذكر أحدهما فى محاضراته ، ورد الأستاذ شاكر حين حاول أن يشير إلى بحث مرجليوث، ولكن طه حسين أسكته وظل كل الكتاب يذكرون علاقة طه حسين بمرجليوث فى دعواه إلى انتحال الشعر الجاهلى ، غير أنه تكشف فى السنوات الأخيرة ١٩٨٩ أن طه حسين قد أخذ من رينان وليس من مرجليوث ، وأن محاولات المستشرقين ما زالت تتوالى للتشكيك فى القرآن ، لقد أخذ طه حسين الفكرة من المستشرقين سواء أكان من مرجليوث أم رينان ، وإنما كان الهدف أن ينكر الناس الشعر الجاهلى الذى فسر به المسلمون بعض كلمات القرآن عن الجاهلية حيث طرح فكرة الشك الفلسفى فى أفق الإسلام من ناحية والتشكيك فى نصوص شعرية جاهلية ثابتة هى دعامة من دعامات تفسير ألفاظ القرآن التى جاء بها من قبل الحق تبارك وتعالى .

ففى عشرات من المواضع من كتب التفسير تجدهم يقولون :

قالت العرب فى هذا اللفظ كذا وكذا ومن شعر الشاعر فلان للبيت الآتى .

إن المؤامرة حتى فى محاولة هدم هذا الحصن القوى الثابت وهو ما حاوله مرجليوث ورينان ، ثم جاء طه حسين ففاق أساتذته فى البحث له عن شبهات أخرى تمكن لهيئة الاستشراق والتغريب والشعوبية أن تفرح بفارسها الذى أفاد من كتابات (كليمان هوار) و (كازنوفا) فى محاولة لإثارة الشبهات حول القرآن وإثارة الشبهة حوله بادعاء بشريته .

فضلاً عن دعوته إلى إشاعة الشك الفلسفى فى الأدب العرب كله .

كذلك مما كشف عنه فى هذه الفترة ما أكده الشيخ أحمد حسن مسلم عضو مجمع البحوث الإسلامية ولجنة الفتوى في الأزهر أن كتاب :

(الإسلام وأصول الحكم) .

ليس من تأليف الشيخ على عبد الرازق كما زعم العلمانيون والشيوعيون وأنصار حركة

التنوير المزعومة ، ولكنه من تأليف الدكتور طه حسين وأن هذه الشهادة جاءت على لسان الشيخ على عبد الرازق نفسه .

وقد أصدر الشيخ مسلم بياناً أسماه (بيان للناس) جاء فيه تفصيلاً كاملاً لهذه الشهادة مفادها : أنه بعد صلاة الشيخ مسلم والشيخ على عبد الرازق معاً وبعد الخشوع فى الصلاة ، تعجب الشيخ مسلم من الخشوع فى الصلاة ومما جاء فى الكتاب من افتراء على الإسلام ومن مغالطات كبيرة جاءت فى هذا الكتاب ، وقال الشيخ مسلم إن الشيخ على عبد الرازق قال له : بالحرف الواحد : إننى لم أقم بتأليف هذا الكتاب وإنما الذى ألفه صديقنا الدكتور طه حسين ، وأوضح الشيخ مسلم أن الشهادة أودعها فى مجمع البحوث الإسلامية لتكون وثيقة للتاريخ حول كتاب الإسلام وأصول الحكم .

وقد قامت بطبع هذا الكتاب الهيئة العامة للكتاب على نفقة الدولة أكثر من مرة ، وقد استغله غلاة العلمانية فى مهاجمة الإسلام ووصفه بالإرهاب وتجاهلوا ما قيل عن تأليف الدكتور طه حسين لهذا الكتاب حيث إن هذا الكتاب ينسب إلى الإسلام الأكاذيب وينفى كون الإسلام نظاماً عاماً للحكم .

أشارت مذكرات للأستاذ محمد لطفى جمعة (لم تنشر بعد) قوله : فى ٢٦ مارس ١٩٤٤ ألقى الدكتور طه حسين محاضرة عن معنى الشعر الجاهلى فمجده وقال إنه كلاسيك ، وإن أولى فضائل الصدى فى تصوير الشعور تصويراً صادقاً صحيحاً بسيطاً فطرياً طبيعياً .

والثانية : اللفظ البسيط الملائم للمعنى والسجية للشاعر .

والثالثة : الاتفاق بين الشاعر الجاهلى وبين البيئة العربية الجاهلية وحياة البداوة .

ومن هذه الخصال الثلاث يتكون الشعر الجاهلى ، يقول طه حسين هذا (ويتناسى كتابه عن الشعر الجاهلى الذى رددنا عليه بكتاب الشهاب الراصد ١٩٢٦) .

* * *



مُصْطفى أَمين
أَخْبارُ اليَوْمِ

أتيح لمصطفى أمين أن يتصدر قائمة أعلام الصحافة العربية وليس المصرية فحسب لفترة تزيد عن خمسين عاماً ، وكانت دائرة الضوء متمثلة فى إصدار أخبار اليوم ١٩٤٤ ، والآن ١٩٩٤ ما زال يكتب مقاله اليومى (فكرة) ويصاول ويكافح فى الدفاع عن كل المفاهيم والقيم التى دعى إليها ، وإن كانت أغلب هذه المفاهيم قد سقطت ورثاها هو نفسه فى يوم من الأيام .

وكان يقول دائما كلمته المشهورة عندما يُسأل عن شيء من هذا : (لو عاد الزمان دورته ما اتخذت هذا الموقف) .

ولقد كان مصطفى أمين من أبرز خلفاء محمد التابعى الذى سبق بخطوات واسعة على طريق الصحافة الحرة الإباحية التى نشأت أول أمرها فى قاع كواليس المسرح والفن بكل ما تحوى من رقص وكشف ، هذه الكواليس الخطيرة التى خرّجت هذا الجيل من أهل الخلاعة والمجون تحت قيادات كبرى كان على قمتها يوسف وهبى ونجيب الريحانى وزكى طليمات الذين قننوا لأهل المسرح والفن قيمًا جديدة وتقاليد خاصة ، وكان أخطر ما دعى إليه هؤلاء - وفى مقدمتهم مصطفى أمين - محاولة إعطاء أهل المسرح والفن شيئاً من القداسة والزعامة ، ووضعهم موضع المثل الأعلى سواء بالنسبة للشباب أم للفتيات .

ويمكن القول أن مصطفى أمين هو أساساً مقنن هذه المدرسة التى نشأت خلف كواليس المسرح وأن الصحافة التى أنشأها من خلال هذه المؤسسة الكبرى وأعانه عليها قوم آخرون كانت ترمى إلى بناء هذه الركيزة التى هى أشد خطراً من مؤسسة التبشير ومدارس الإرساليات لأنها تمثل القاعدة الخطيرة التى انطلقت منها عشرات المسرحيات والأغانى والتى استدرج إليها عدد كبير من الفتيات الساذجات اللائى لم يوجهن أحد أو يحذرهن أحد والتى استدرج إليها عدد كبير من فتيات الأسر للسقوط تحت أقدام هؤلاء العتاة صناع

البطولات والقادرين على دفع هذه الأسماء إلى الشهرة والذيوع والظهور على المسرح فى عاصفة تصفيق المعجبين ، وأصبح الإضحاك والسخرية بالقيم وتدمير المجتمع وتوجيه كلمات الإثارة من الأبناء إلى الآباء ومن الزوجات إلى الأزواج ، أصبح هذا الركام العفن يوصف بأنه فن له قوانينه وقواعده ليظهر أمام الناس على أنه عمل رفيع فى خداع شديد ليخفى وراءه جواً يسوده شيء كثير من الدعارة والإباحية ، وقد استطاع التابعى ومن بعده كثيرون ربط مؤسسة الصحافة بتقاليد مؤسسة المسرح والفن ، ووضع مؤسسة الصحافة فى خدمة الفن والمسرح وخلق بطولات فى مجال الفن والمسرح على النحو الذى قامت به الصحافة فى ميدان السياسة والحزبية ثم اختلط الأمر فيها ، وكان لمصطفى أمين فى هذا المجال دور خطير ، فقد أصبح حامى حمى هؤلاء الظلام الفُسَّاق الذين يفسدون الأجيال ، فهو يرد عليهم ويدافع ما يمكن أن يوجه إليهم من نقد ، وقد كانت الصحافة الفنية تتناول هذه الكهف المظلم ، وكان بعض الصحفيين يكشفون ما وراءه من سموم ، ولكن منذ تصدرت أخبار اليوم الميدان الصحفى توقف ذلك كله وحمت أخبار اليوم من تشاء من هؤلاء النجوم من النقد وأشركتهم فى أسهم الجريدة ، وأقامت لهم حاجزاً ضخماً تحت اسم قداسة الفن وعظمة الفن ، وكرامة الفن بل لقد ذهبت إلى أبعد من ذلك إذ أشركت أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب فى سندات الأسهم .

ونشأت قاعدة جديدة هى أن يدفع كبار الفنانين مرتبات للصحفيين الذين يعملون فى صفحة الفن والمسرح حتى توجه أخبارها على النحو الذى يريدونه .

وجاءت فتيات فى مكاتب الإعلانات لخدمة الهدف وبذلك نشأت أجيال جديدة تتحدث عن قداسة الفن ، وقد استطاعت هذه القوى أن تستخدم الصحفيين كما تستخدم الفنانين فى التجسس على اللامعين من رجال السياسة الذين يردون البلاد لمعرفة أسرارهم بين دقات الرقص ورنات الكؤوس .

واتسع نطاق هذا العمل اتساعاً كبيراً فى عصر صلاح نصر وأصبح للفن وجهة فى خدمة السياسة ، واتسعت رقعة الإباحية الفنية وزادت خصائصها واستخفت معالمها وراء حجاب كثيف ، ووصلت الأمور إلى حدود بعيدة حين استخدم هؤلاء الفنانون أو أغلبهم فى خدمة مخططات الماسونية وضموا إلى محافلها واختلطت من خلال مصطفى أمين وغيره الصحافة بالفن باستغلال علب الليل فى خدمات سياسية وإعلانية ووجدت شقق

خاصة لهذه اللقاءات ، وقد كشف النقاب عن بيوت بعض هؤلاء الفنانين التى يأوى إليها بعض الأغراب وما تحوى من ملابس فى مقاسات مختلفة .

وقد تحدث مصطفى أمين فى ذكرياته عن عدد هؤلاء الفنانين والذين ابتدعوا هذه المغامرة الرديئة .

وأشق ما فى هذه الأوكار : تلك الفلسفة التى يسوقها هؤلاء الرواد فى مجال الفن ومفاهيمهم التى تختلف عن مفاهيم المجتمع الإسلامى الكريم المرتفع فوق الإباحيات والحريات المنطلقة والمغامرات والأوبئة .

وتلمس ذلك فى حديث مصطفى أمين الذى وجهه إلى الداخلين فى مجال الفن حيث يحدثهم عن (ضريبة النجاح) والشوك الذى يجب أن يمشوا فوقه ليصلوا إلى قمة المجد .

وحين يتحدث مصطفى أمين عن ذلك اليوم وهو فوق الخامسة والسبعين نجده لا يزال يؤمن بالمجد عن طريق الفن ، ويرى أن النجاح فى الوصول إلى هذه المكانة .

وتلك مفاهيم مضللة عاش مصطفى أمين يرددها ويقولها للذين يدخلهم فى دائرة (قمة المجد) من الفنانين ، وما يزال حتى الآن وهو على أبواب الأبدية يرددها مخدوعاً بها دون أن يستطيع أن يتبين فسادها وضلالها .

إننا نركز هنا على مؤسسات الفن بمفاهيمها المنحرفة وقيمها الفاسدة التى تعمل من خلال دائرة الفن على النحو الذى رسم لها والذى تستخدمه الماسونية ، لقد رسمت أهدافه التى أوردتها المخططات التلمودية والتى تحتمى تحت ظلال كثيفة لتحول دون فضحها وكشفها .

ويتبين اليوم كيف أن مؤامرة الفن مرتبطة بأوكار الصحافة على نحو بعيد الأثر فى المجتمع حيث تتصاعد أشعته على محيط واسع يمتد من المسرح إلى السينما إلى الغناء .

ولقد عملت بعض القوى على حماية هذا التيار ودفعه إلى غايات بعيدة وتمكينه من الإفساد والتدمير .

وكل ما نجده اليوم من مآس وفساد وآثار بعيدة وأزمات فى الأسر والمجتمعات إنما يعود إلى هذه الصور المفروضة على مجتمعنا من هذا التيار الخطير .

إن حمايتهم لأهل الفن والدفاع عنهم هو جذر من جذور الغزو الفكرى لتثبيت دعائم هذه الدائرة الخطيرة الحافلة بأبخرة الحشيش ودوائر العطور وكاسات الخمور والرقص والغناء حيث توجد المدرسة التى تلتقط الفتيات الجميلات من دور العلم ومن الشوارع ومن البيوت بخدعة تلميعهن ونشر صورهن وإدخالهن دائرة البطولة وإتحافهن بالحرائر والعطور والأموال السائلة فى سبيل استلال بكارتهن وشرفهن وإدخالهن إلى مخادع الضحكات العالية الساخرة من كل قيم المجتمعات ، وإعدادهن ليكن أمثلة عليا تقلدها فتيات الأسر وتجرى وراء الموضات والأزياء .

وهذه هى المرحلة التالية للقصة الغربية المكشوفة التى أعطت بعض الفتيات الإحساس بشرعية إلقاء أنفسهن فى أحضان الآخرين من أجل المال والشهرة على النحو الذى دعا إليه الفضاحون من أبناء هذه الأجيال ، ومن هنا جاءت دفاعات مصطفى أمين عن المرأة وعن أهل الفن والغناء .

عمل مصطفى أمين فى الصحافة أولا مع السيدة روز اليوسف ثم فى الأهرام الذى كان يشرف عليه الموارنة أولياء النفوذ الفرنسى ثم مع التيار الأمريكى الذى تعلم مصطفى أمين فى جامعاتهم ، وكان التيار الغربى مرتبطاً بالولاء للقصر واستقل من الولاء للقصر إلى الولاء لحركة الجيش ومن فاروق إلى جمال عبد الناصر ، وقد أدخل مصطفى أمين على الصحافة المصرية بإخراج أخبار اليوم ١٩٤٤ أحدث أساليب العصر فى كتابة الخبر وعرض الفكرة والإخراج ولكنه لم يحترم الأصالة .

يقول : دخلت على أحمد ماهر رئيس الوزراء وطلبت ترخيصاً بجريدة أخبار اليوم فأعطانى التصريح ولم يقل لنا ماذا عن خلفية هذا الحدث التاريخى ، فأحمد ماهر باشا كان فى ذلك الوقت رئيس المحفل الماسونى الأكبر للشرق الأوسط كله فى القاهرة .

وكان مصطفى أمين تلميذ المعاهد الأمريكية وكانت الخطة فى نهاية الحرب العالمية الثانية هى إعداد البلاد العربية لنفوذ أجنبى بديل للنفوذ البريطانى والفرنسى : هو النفوذ الأمريكى .

واستطاعت أخبار اليوم أن تحقق عدداً من الانتصارات وكان المدخل هو (لماذا ساءت العلاقات بين القصر والوفد) ولأول مرة تصدر صحيفة كبرى ليس لها لون حزبى واضح لتهاجم أقدم الأحزاب السياسية وأضخمها ، ولكن ذلك جاء بعد حادث ٤ فبراير وسيطرة

الإنجليز وظهور تيار يؤيد الملك فاروق بقيادة أحمد حسانين ، وفى مقدمة العاملين فيه ، محمد التابعى ، مصطفى أمين ، روز اليوسف ، عباس العقاد . وكانوا من قبل من أولياء سعد والوفد . إلخ .

وسرعان ما استطاعت أخبار اليوم أن تستقطب كل كتاب مصر ، الذين كانوا يكتبون فى مختلف الصحف والمجلات فتجمعوا جميعاً فى أخبار اليوم وحصلوا على أعلى التقديرات فى الأجور الصحفية .

لقد حشدت أخبار اليوم المازنى والعقاد وطه حسين وسلامة موسى والدكتور هيكل وتوفيق الحكيم وغيرهم .

وحصل كل كُتّاب مصر على أعلى التقديرات المادية ، وكانت وجهتهم هى خدمة الولاء الغربى والولاء الأمريكى بالذات فى هذه الفترة ، وعملت أخبار اليوم فى خدمة القصر فى مواجهة أكبر تجمع سياسى فى مصر وهو الوفد ، وجاء الوقت الذى انهارت فيه الأحزاب وصعد نفوذ الملك الذى كان موالياً للنفوذ الأجنبى ، وكان مصطفى أمين فى خدمة هذا الهدف وكان مصطفى أمين هو ذلك الرجل المهيأ فى هذه المرحلة لحمل رسالة تغيير ضخمة للمجتمع المصرى والعربى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وسقوط نفوذ بريطانيا وفرنسا وبروز نفوذ الولايات المتحدة .

ولكن سرعان ما تحول الموقف وسقطت الملكية وحكم الجيش وحمل مصطفى أمين لواء الدفاع عن النفوذ الجديد وما أسماه صناعة الصنم .

وكان مصطفى أمين يعرف ولاء حركة الجيش لأمريكا ، وكان يخدم هذا الهدف .

ولقد عاش بين ولائين واضحين ومن ورائهما ولاء أصيل ولاء الملك وولاء الحاكم العسكرى .

لقد ظهر مصطفى أمين فى أخبار اليوم ١٩٤٤ بصورة الولاء للملك فى مواجهة أقدم حزب سياسى هو الوفد ، وذلك على أثر تكوين جماعة نصرة الملك التى كونها أحمد حسانين بعد حادث ٤ فبراير هذا الحادث الذى فرض الإنجليز فيه الحكم عن طريق الوفد بعد جولة طويلة من الصراع والاتفاق لإقامة حكومة قومية حيث انتهى الأمر بالتسليم من الملك للإنجليز بإقامة حكومة الوفد فكانت الخطة التى رسمها أحمد حسانين وقادها التابعى ومصطفى أمين والتى جمع فيها أبرز كُتّاب مصر فى أخبار اليوم .

وكانت أخطر أعماله فى هذه الفترة كشف أخطاء الوفد ثم جاءت المرحلة الثانية بعد سقوط الملكية فى العمل على كشف خفايا الملك تحت عنوان (ليالى فاروق) .

ثم جاءت المرحلة الثالثة بعد نكسة ١٩٦٧ حيث تولى مصطفى أمين كشف خفايا حكم الجيش .

وقد انتهى هذا العهد بدخول مصطفى أمين السجن بتهمة التخابر مع الأمريكان ، وقد تردد أنه لم تكن هناك قضية تخابر ولكن كان عبد الناصر يحاكمه ليغيظ الأمريكان .

يقول مصطفى أمين : لقد ساهمت فى صناعة أسطورة جمال عبد الناصر ولطالما قلت لنفسى وأنا فى سجنى ماذا أقول لهذه اليمين (أى يده التى كان يكتب بها) وأنا بها قد صنعت الصنم .

لقد كان الشعب يحب مصطفى النحاس ولا تؤدى الدعاية ضده إلى أى آثار ، وكنت أنا أعارضه وأنا أحبه .

ثم جاءت المرحلة القائمة الآن وهى مرحلة ترضية الشعب وخدمته والعمل فى مختلف مجالات البر وقضاء الحاجات ومعارضة الظلم .

* * *

١ ـ خلق مصطفى أمين صحافة الإثارة ، وأعلى شأن الفن والحب والقصة ، ووصف بأنه مؤسس صحافة الإغراء .

وكان العمل على تركيز هذا الاتجاه من الأمور الخطيرة التى كان النفوذ الغربى يعمل لتحقيقها تنفيذاً لمشروع الماسونية الذى رسمته بروتوكولات صهيون ، والذى كان سارياً منذ وقت بعيد ، ولكنه لم يكن قد اتسع نطاقه .

وإن كان مصطفى أمين قد أدخل على الصحافة المصرية أحدث أساليب العصر فى كتابة الخبر ، وعرض الفكرة والإخراج على النحو الذى كان معروفاً فى عدد من الصحف الأمريكية ، ولكنه لم يخدم الأصالة ، كان الولاء الغربى هو هدفه الحقيقى المتخفى وراء البراويز الصغيرة والكلمات الوطنية التى كانت توزع على الصفحات ، بينما كانت الموضوعات الأساسية تحمل وجهة النظر الغربية ، وجهة نظر التبعية والولاء للغرب .

٢ ـ وكانت عملية إعلاء العامية ونشرها وإدخال الكلمات العامية فى نطاق الفصحى

على النحو الذى يقوم به الآن أنيس منصور وغيره وكذلك إدخال المصطلحات الأجنبية دون تعريبها .

وكان ذلك امتداداً لهدف الغرب القديم فى هدم اللغة العربية (وللكولس وويلمور) وهو ما مضى لإتمامه لطفى السيد وقاسم أمين وسلامة موسى ، وما دعا إليه توفيق الحكيم بالدعوة إلى ما أسماه (اللغة الوسطى) بإحياء العامية والدارجة ، ولقد كان ذلك موضع تقدير الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية الذى قال فى تكريم مصطفى أمين ـ حيث أثنى على لغة الصحافة المستخدمة فى الصحافة اليوم ـ وقال : نحن سعداء باللغة الصحفية فى الصحف اليومية والأسبوعية اليوم .

وقال مصطفى أمين : إذا كانت اللغة الحياة فإنما نمت على أيدى أصحاب الأقلام الدقيقة الصريحة الواضحة .

٣ ـ التركيز على عمل المرأة وخروجها ودخولها كل الميادين دون تقدير لأى قيم أساسية دعت إليها الأديان .

ولعله فى ذلك كان يوالى خطة سعد زغلول حين كشف الحجاب عن المرأة التى قادت المظاهرة وألقاه تحت الحذاء .

ومن أخطاء مصطفى أمين أنه وصف حجاب المرأة بأنه ضد حقوق الإنسان .

٤ ـ الولاء للفكر التبشيرى العلمانى وفهم الإسلام على أنه دين عبادة فحسب ، وذلك على النحو الذى تعامل به كل أبناء المدرسة العلمانية ، وكان يعمل على خدمة مناهج اجتماعية تستمد مفاهيمها وقيمها من البروتوكولات والماسونية والفكرة الصهيونية خاصة فيما يتعلق بالشباب والمرأة والحرية التى تؤدى إلى التحلل والاضطراب ، وكانت له مواقف فى خدمة هذه المناهج خاصة البهائية والدفاع عن زعيمها حسين بيكار .

٥ ـ كانت صحافة مصطفى أمين فى خدمة ولائين مزدوجين : ولاء داخلى هو الحاكم ، وولاء خارجى : هو النفوذ الأجنبى مع أطروحات براقة خادعة ، وبالرغم من المتغيرات السياسية والاجتماعية ظل هدفه واضحاً محدداً ليس هو الوطن على كل حال ولا هو الوحدة الجامعة ولا بناء مجتمع يحمل طابع الأصالة والقيم .

وكان مثله الأعلى (أمريكا الضاحكة) .

وكان هدفه أن ينقل هذه الصورة إلى المجتمع المصرى والعربى وقد استعمل كل أساليب النفوذ الوافد من وراء مختلف فلسفاته خاصة المفاهيم التى قدمتها البروتوكولات ، والماسونية وإخفاء ذلك كله فى ذكاء شديد وراء مظهر براق خادع .

٦ ـ وقد كشف مصطفى أمين فى كثير من أحاديثه الصحفية عن أنه كان فى المرحلة الأولى يحترم الملك ظاهرياً ، ولكنه كان لا يكف عن المطالبة بفرض ضرائب تصاعدية على الدخل ويتحدث عن العدالة الاجتماعية والاشتراكية وتحديد الملكية .

وقد كانت تلك نغمة متصلة وثابتة على كتاب أخبار اليوم قبل الثورة ربما أكثر من أى صحيفة أخرى .

أما بعد حركة الجيش فقد ردد أنه اشترك فى أسطورة الزعيم أنور السادات .

٧ ـ كان عمله بعد حركة الجيش الدفاع عمن أسماهم : أدعياء الثورة الجدد الذى باتت تمتلىء بهم الساحة .

والدفاع عن خصوم الإسلام أمثال بيكار ، عندما قبض عليه متهماً بقيادة جماعة بهائية كما دافع عن محمد محمود طه الذى أعدمته حكومة السودان لهجومه على الإسلام .

٨ ـ أعلن مصطفى أمين أنه بعد السجن حدث له تغير كبير « أصبحت لا أبالى الاقتراب من الحاكم أياً كان ، وأصبحت مستعداً بذلك أن أعمل من أجل مساحة أكبر لصالح الرأى العام ، لقد اقتنعت أن صديق الحاكم كراكب الأسد يخيف الناس وهو أشد منهم ذعراً » .

تسأل سهير إسكندر : لماذا اتخذ مصطفى أمين موقف التأييد للوفد فى البداية أيام كان الوفد يكتسح كل مخالفيه ، ثم يتحول لتأييد القصر الملكى بعد حادث ٤ فبراير ، وكذلك موقف أخبار اليوم من أزمة الديمقراطية ، ويقول مصطفى أمين : لو عاد الزمان دورته ما اتخذت هذا الموقف ، ولكن الحقيقة أن الكاتب يحاول أن يغطى الهدف الخفى وراء المظهر ، والذى هو مصدر تصرفاته .

وبالرغم من التحولات الضخمة التى مر بها مصطفى أمين فى مراحله الثلاث ، فقد

ظل قائماً على مفاهيمه الأساسية التى بنى عليها مشروعه منذ اليوم الأول ، ولم يكن يغيره إلا فى الوسائل والأدوات فى موقفه من المرأة ، ودفاعه عن الممثلات والمغنيات ، وإعجابه بالقوانين التى سنّها نابليون .

(إنى معجب بالقوانين التى سنّها نابليون ، وتسمى قوانين نابليون أصل التشريع الحديث) .

وظل مفهومه للإسلام على أنه دين لاهوتى كالمسيحية ، ولم يؤمن يوماً بأن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع .

كان يدعو الله تبارك وتعالى كثيراً ويقول : أشعر بأن هناك قوة أكبر من أى إنسان وهى التى تنصر المظلوم على الظالم .

وظل تراثه : سعد زغلول وأم كلثوم وجيل بائد من السياسيين ويتحدث عن أول وزيرة مصرية وأن ثورة ١٩١٩ هى التى رفعت حجاب المرأة ، وأن أم كلثوم هى الهرم الرابع .

وظل مصطفى أمين قائماً فى خانة الليبرالية والديمقراطية ومصر ولم يفكر يوماً أن يلتمس لمصر منهجاً اجتماعياً يستمده من أعماقها ومن قيمها ، ومن المنهج الربانى الأصيل ولم يفكر يوماً فى نقد النظم الغربية بل إنه كان إذا أريد عمل من أعمال البر لم يجد أمامه إلا جمع الراقصات والمغنيات ،وشراء سندات ربوية للأطفال اليتامى .

الدفاع عن البهائية :

وإذا تساءلنا ماذا تعنى ظاهرة الدفاع عن (حسين بيكار) ؟ :

إنها تعنى الدفاع عن كل ما تحتضنه مفاهيم الماسونية وأهمها الدفاع عن أهل الفن (الممثلات ، والراقصات ، والمغنيات) وحمايتهن من النقد والتجريح .

وإقامة صرح قداسة للفن والفنانات تتشكل مع الأيام لتعطى تغيراً كاملاً للأعراف وإحلال أعراف جديدة تقوم على القول بأن هؤلاء هم الذين يبعثون السعادة والإضحاك والتفريج عن النفوس ، وإعطاء القدرة على احتمال مشقات الحياة وأعبائها .

ويدخل تحت هذا الباب الدفاع عن البهائية فهى قطاع مهم يخدم الماسونية ويحمل ألويتها ويدافع عن أفكارها ومفاهيمها .

فكرة عيد الأم :

ولقد ظل مصطفى أمين يدافع عن عيد الأم حتى تبين أن فكرة عيد الأم فكرة مستوردة وأن تكريم الأم فى الإسلام لا يرتبط بيوم معين .

وأكد مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر (صحف ١٩٨٧/٣/١٣) أن تكريم الأم فى الإسلام غير مرتبط بيوم أو مكان معين ، وأن فكرة عيد الأم منقولة من أمريكا التى بدأت الاحتفال به فى ١٠ مايو ١٩١٤

إن بعض الصحف المصرية أدخلت هذا العيد إلى مصر واختارت يوم ٢١ مارس توقيتاً له وهو يوم عيد البهائيين أو يوم النيروز ، إن الإسلام قد خص يوم الفطر ويوم النحر باسم العيد ، ومن المستحيل أن نطلق على غير هذا من المناسبات الاجتماعية لفظاً آخر مثل يوم الأم أو يوم الأسرة .

إذا كان صحيحاً أن الاستشراق والتغريب يضع لكل واحد من أتباعه موضوعاً رئيسياً يتخصص فيه ويعالجه ويتابعه ، فإن مصطفى أمين فيما يبدو قد كلف بموضوع المرأة .

والمرأة فى مخطط الاستشراق والغزو الفكرى لها أهميتها القصوى باعتبار أن احتواءها وتغريبها هو أكبر عمل يرجى منه تدمير المجتمعات الإسلامية وتحقيق الغايات التى رسمتها بروتوكولات صهيون ومن قبلها الماسونية .

ومصطفى أمين يعالج هذه المسألة فى أسلوب رقيق ، ومن خلال خدع كلامية أعطت أسلوبه براعة جعلت الدكتور إبراهيم مدكور يضمه إلى مجمع اللغة العربية كما ضم من أعداء اللغة العربية من قبل لطفى السيد وطه حسين .

وكانت أكبر ثمراته قصة عيد الأم والتى تكشف أنها منذ أكثر من بضعة عشرة سنة وهى يحتفى بها فى عيد البهائيين أساساً .

ولكن مصطفى أمين الذى دافع عن عميد البهائية فى مصر (حسين بيكار) واستكتبه فى الأخبار أكثر من عشرين عاماً يحاول بأسلوب السخرية والخداع ، وبعض المرونة حتى لا ينكشف الأمر وهو يرثى ما آل إليه أمر المرأة من حجابها وعودتها إلى البيت أن يقول : إن المرأة من سبعين عاماً كانت أقوى وأجمد وأشجع ، واشتركت فى ثورة ١٩١٩ وتقدمت المظاهرات وخلعت الحجاب التى تعود اليوم للمطالبة بالعودة إليه وفى الثمانينات تنازلت بسلبيتها عن كافة حقوقها » .

ونسى مصطفى أمين أنها كانت مغررة مخدوعة مضحوك عليها من مرقص فهمى وقاسم أمين وسعد زغلول إلى مصطفى أمين حتى تبين لها الحق فعادت إليه مكرمة تحفها عناية الله تبارك وتعالى .

مصطفى أمين واللغة العربية :

ليس شيء أدعى إلى العجب من هذا العمل الخطير الذى قام به الدكتور إبراهيم بيومى مدكور وهو ضم مصطفى أمين إلى مجمع اللغة العربية بينما يعلم الجميع أن من أهداف الصحافة التى أخفتها الماسونية هو الحرب على اللغة العربية لغة القرآن ، والعمل على خلق أسلوب جديد خفيف ، تلغرافى كما كان يطلق عليه سلامة موسى فى محاولة للفصل بين البيان العربى وبين البيان القرآنى الأصيل .

ولقد كان الجميع يعلمون أن مصطفى أمين كان عدواً للغة العربية الفصحى على مدى أكثر من خمسين عاماً ، وكان يعلن فى جرأة شديدة أنه يدعو إلى لغة قريبة من العامية وأنه استطاع بقيادته لأكبر دار صحفية فى مصر خلال نصف قرن أن يحارب الفصحى حرباً شديدة وأن يركز العامية ويعلى شأنها فى كل مجال عن طريق أبواب الصحف سواء أكان ذلك فى المسرحيات أو المسلسلات أو الحوار العام أو الكتابة الصحفية التى كانت فى أخبار اليوم بالذات منذ نشأتها عام ١٩٤٤ حرباً على الأسلوب العربى الأصيل الذى كان قد أرسى قوائمه فى مجلة الرسالة التى يصدرها الأستاذ أحمد حسن الزيات ، فإذا به يحتوى هذه المجموعة التى كانت تكتب بأسلوب رفيع متميز ويدعوها إلى الكتابة الصحفية القريبة إلى العامية خاصة من أمثال المازنى والعقاد وهيكل (باشا) وغيرهم وقد أشار توفيق الحكيم إلى هذا حين كتب فى أخبار اليوم بأنه عمل صحفياً بعد أن كان أديباً ، وأن الصحافة تقتضى بياناً مختلفاً عن بيان الأدب .

كذلك فقد أحس الناس أن العقاد كان يكتب فى أخبار اليوم بأسلوب شعبى مختلف عن أسلوبه الأصيل ، وأنه أشار ذات مرة إلى أن الكتابة الصحفية تحتاج إلى تبسيط وهذا العمل الذى قام به مصطفى أمين خلال خمسين عاماً لم يكن لخدمة العربية الفصحى ، فضلاً عن أنه لم يكن يؤمن بأى قيمة من مقومات الاعتزاز بالفصحى أو ما يتصل بها من أعمال .

وفى صبيحة اليوم الذى أعلن انضمام مصطفى أمين إلى المجمع كانت كتاباته تشير إلى الجو الذى يعيش فيه حول أم كلثوم ونجيب الريحانى وعبد الحليم حافظ وتحية كاريوكا وأنور جدى وكلهم من دهاة العامية ، ولا شك فقد كان له أثره فى تحول أم كلثوم من قصائد الشعر العربى الأصيل إلى الأزجال العامية . مثل هذا الرجل إنما يدخل المجمع اللغوى من الباب الخلفى فهو لا يؤثر عنه أى دفاع عن اللغة العربية أو تقدير لها أو إشارة إلى دورها فى حياة الأمة الإسلامية أو الوطن العربى .

وما أعتقد أن الشيخ محمد الطيب النجار وهو يقدم مصطفى أمين استطاع أن يجد له أى تاريخ يجعله جديراً بالمجمع اللغوى .

بل إن الطريقة التى اتبعها إبراهيم بيومى مدكور فى اختياره وهى عملية تقديمه عن طريق اقتراع عليه من الأعضاء وليس على أساس اتصاله بالمجمع وقيامه لوقت طويل أو قصير كخبير فى مجال العمل اللغوى .

وليس صحيحاً ما ورد على لسان إبراهيم بيومى مدكور من أن اللغة الصحفية المستخدمة فى الصحافة العربية اليوم هى من الأمور التى يقرها المجمع الذى يجب أن يلتزم بالأصالة اللغوية فى مستواها الرفيع ، وليس فى لغة الشوارع والدكاكين والبائعين والحوارى على النحو الذى تذخر به (أخبار اليوم) منذ أنشأها مصطفى أمين وعمل على تدعيم هذا الاتجاه خدمة لنفوذ التغريب الذى حرص منذ وقت طويل على هدم بيان اللغة العربية وتقديم مستوى ضعيف من الأداء من شأنه أن يحجب الفصحى بعد سنوات معدودة .

مسئولية مصطفى أمين فى توجيه الصحافة إلى العلمانية والإباحية :

من المراجعة الدقيقة المتصلة يتكشف أن مصطفى أمين يحاول فى كل مقالاته أن يتحدث عن الأزمات التى تنعقد ثم يفرجها الله تبارك وتعالى فجأة فيوحى إلى القارىء أنه مؤمن بالله .

ولقد واجه فى حياته الخاصة من الأزمات الكثير مما كشفه الله تبارك وتعالى عنه فماذا كان منه ؟ هل غير طريق حياته؟ هل اتجه إلى الله حقاً؟ لو أنه فعل لأحدث فى الصحافة المصرية حدثاً تؤرخ به ، ولو أنه حول هذه الصحافة إلى طريق الله والأصالة وقد أعطاه الله تبارك وتعالى قلماً بارعاً ونفوذاً كبيراً ، ولكنه لم يفعل فما زال غارقاً فى عدد كبير من المفاهيم الخاطئة وهو مصر عليها بعد هذه السنوات الطويلة ، وبعد هذا الحديث الذى يردده

عن فضل الله عليه ، ألا فليعلم أن ما يمر به ، هذا من قبيل الإملاء الذى يقدره الله إعذاراً لمن يرغب فى أن يعود إلى الله .

إن مصطفى أمين يتحدث كثيراً عن الفساد المستشرى فى المجتمع : المخدرات ، الاغتصاب ، الانحلال الخلقى ، فإذا هو يقلب يديه فى حسرة وأسى ، ويحدثنا عن التقاليد المصرية القديمة التى كانت تعرف الخلق والفضيلة ، والواقع أن الصحافة ووجهتها التى توجهت إليها بقيادة المغربين هى المسئولة عن هذا الانحراف الذى حدث فى المجتمع ، وإن دوره هو فى هذا التحول كان كبيراً .

ولقد عملت الصحافة منذ أول يوم لأخبار اليوم على إدخال عنصر خطير ، وخطير جداً هو عنصر الإثارة ، هذا العنصر الذى عمل على تدمير القيم الأخلاقية من فتح الباب أمام التحلل ، ولا شك أن مسئولية كبرى فى تطور القصة والمسرح وراء هذا الانحراف مما كان له أثر كبير فى انهيار القيم وفى معارضة وتجاهل اتجاه اليقظة الإسلامية والعمل على تدميره والتركيز على إشاعة الفاحشة فى المجتمع عن طريق الإثارة بالصورة ، بالخبر ، بالمقال، بالقصة ، بالشعر .

كل هذه الأبواب التى فتحتها الصحافة قدمت فيها كتابات تزدرى هذه القيم وتسخر بكل ما يتعلق بالدين والأخلاق وقد امتد هذا التيار الخطير منذ بدأت مجلة روزاليوسف ومحمد التابعى ثم جاء مصطفى أمين ففتح الباب واسعاً .

ولم يقتصر هذا التوجيه على مصر وحدها بل امتد إلى مختلف صحف البلاد العربية ، ولقد وجد بعض علماء الأزهر فى هذا المجال الصحفى منطلقاً لقضاء بعض الغايات .

وكان الباقورى وخالد محمد خالد يعتبران مصطفى أمين المثل الأعلى لهما فهو الذى دعاهما فى ندواته الخاصة إلى التحرر والتجديد وفتح أمامهما باب الرخص والتأويل ، ووعدهم بالوزارة .

ولعل أخطر ما قام به مصطفى أمين هو حمله لواء الدعوة إلى إخراج المرأة من البيت، وعزلها عن مسئوليتها الخاصة كزوجة وأم والدعوة السافرة إلى دفعها دفعاً إلى ميادين السهر والرقص والاختلاط ورعايته الواسعة للمغنيات والراقصات والممثلات وخلق أجيال من الفتيات المتحررات اللائى يستطعن الجرى وراء رجال الأعمال للحصول على الإعلانات ، فتاة متحررة لا تبالى بأى شىء فى سبيل المادة .

وأنت تدهش حين لا تراه فى محافل الليونز والروتارى ولا تراه فى محافل المرأة المطالبة بحقوق فوق الحقوق ، ولكنك إذا تعمقت المسائل رأيته وراء كل هذا ، فهو موقد النار فى كل حطب النفاق ، وهو بذكائه يحتفظ لنفسه بوجود مستقل عن التحركات حتى يستطيع رصد المسائل وتوجيهها لخدمة الأهداف والغايات ، ولقد وقف وحده مدافعاً عن أكبر زنادقة العصر (محمود محمد طه) الذى ظل أربعين عاماً يملأ قلوب الشباب بالشكوك والشبهات والدعوات الباطلة عن الإسلام ، وادعائه بأنه النبى المنتظر هذا هو الذى أزعج مصطفى أمين فقام للدفاع عنه ، لم يفعلها مع شهداء كرام كانوا أحق بالدفاع عنهم لو كان صادقا فى الدفاع عن الحرية والحق ، ولابد أن هذا الاتجاه يشى بما يستكن فى ضمير هذا الكاتب الذى وصفه تلميذه موسى صبرى بقوله :

(تعلمت من مصطفى أمين اللعب على المسرح السياسى) .

والخطيئة الأخرى جاءت فى الدفاع عن الماسونى البهائى : حسين بيكار الذى ما زال يخفى وجهته منذ أكثر من أربعين عاماً وراء قناع من الفن والعلمانية ليسرب نحلته الخبيثة على صفحات أخبار اليوم كل يوم جمعة ومن مشاركاته كفنان فى كتب وقصص الأطفال لقد دافع مصطفى أمين فى مقاله (فكرة) عن ذلك الذى أعلن فى تبجح ومن غير خجل أنه يبيع دينه للبهائية وهكذا يؤيد مصطفى أمين علانية هذه المخططات لرجل يقول إن البهائية إحدى الأديان السماوية ، ونحن نعلم أن بهائية طه وبهائية بيكار مستمدة من المخططات الماسونية التلمودية .

ولقد حوكمت منذ سنوات جماعات البهائيين الذين أعلنوا أنهم لا يرفعون السلاح فى وجه أى عدو يدخل بلاد المسلمين ، وهم يؤمنون بأن الأديان كلها باطلة .

ولقد كان البهاء ولياً شديد الولاء للصهيونية وما زال أتباعه يصلون ووجهتهم حيفا حيث كان يقيم ، والذى يقرأ كتابات محمود محمد طه يجدها لا تخرج عن هذا المخطط .

والهدف هو تأييد دعوات مضللة ترمى إلى ضرب الإسلام وإثارة روح الشك والاضطراب في محيط الشباب المسلم .

وقد تكشف مصطفى أمين من هذه الناحية بعد أن توزعت جوانبه الأخرى من الدعوة إلى القصة الجنسية والصورة العارية والخبر المثير ،وموقفه من خروج المرأة واندفاعها إلى

المحافل والمراقص والرحلات المثيرة إلى الشواطىء ، وقد كتب هذا كله فى برنامج واضح أعلنه فى مجلة (الاثنين) التى كان يرأس تحريرها عام ١٩٤٢ بوصفه مخططه للعمل ، وعلى هذا المخطط أقام أخبار اليوم وصحفها وجرى أشواطاً وراء تغريب العقول المسلمة عن طريق هدم هذه القيم وإشاعة روح التحلل فى كتابات مستمرة يوماً بعد يوم ، وإعلاء للمسرح والكورة والسينما ، وتوسيع واضح للجريمة وإذاعتها وتحليلها وتفصيلها لتفتح الطريق أمام الشباب إلى تقليدها فى مئات الأحداث التى تنشرها الصحف يومياً .

وقد دعا تلاميذه أمثال أنيس منصور وغيره إلى ترجمة كتب الوجودية والإباحية على النحو الذى ظل يكتبه فى صحيفة الأخبار الأخيرة يوم الجمعة خلال عشر سنوات فى وقت كانت تواجه فيه الأمة الإسلامية والبلاد العربية التحديات الخطيرة ، حيث تفسح أخبار اليوم لكتابات الإباحية التى تثير مشاعر الشباب وتحدث تبعا لها تلك الأحداث المثيرة : تلك هى جناية الصحافة على المجتمع الإسلامى ، وهذا دور مصطفى أمين من وراء هذه المخططات .

إن بيكار يؤمن بنبى بعد محمد ﷺ وكتاب بعد القرآن ، ومصطفى أمين يرعى كل هذه المخططات فى مصر والسودان وربما فى بلاد عربية أخرى وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

الجائزة = صحفى عام ١٩٨٤

والجائزة الكبرى جاءت أخيراً من الجهة التى كان يدور حولها الهمس طوال السنوات الماضية منذ أن وقعت اتفاقية (كامب ديفيد) والدور الذى يقوم به مصطفى أمين فى الوسط الصحفى من حيث عمله على تجنيد الصحفيين المصريين فى سلك العمل مع الجهات التى تريد أن تثبت أواصر الخضوع والولاء المصرى لليهود والصهيونية وأمريكا والعمل المتصل لغزو العقل المصرى واختراقه ، وإن لم يظهر فى مؤتمرات علماء النفس (الدكتور شعلان) وعبد العظيم رمضان ، وأنيس منصور فإنه من وراء كل ذلك تماماً .

وقد جاءت الجائزة الكبرى من الجامعة الأمريكية لتكشف حقيقة الدور الذى يقوم به امتداداً لدوره منذ مطالع الشباب منذ أكثر من أربعين عاماً عندما وضعوه فى القالب المناسب ثم كانت دار أخبار اليوم التى قامت على الدعوة لتقبل النموذج الأمريكى فى

العالم الإسلامى والبلاد العربية بديلا للنموذج الفرنسى والإنجليزى السابقين وامتداداً لهما .

وقد نمت أخبار اليوم هذا النمو السريع المذهل فى سنوات قليلة لتسابق الأهرام التى مضى عليها أكثر من مائة عام وكان واضحاً هذا الاتجاه تماما .

إن مصطفى أمين لا مهمة له إلا تجنيد الكفاءات الصحفية للعمل فى حقل التبعية وهو كما يقول تلميذه (إبراهيم سعده) إنه يعرفهم منذ اللقاء الأول فيحتضنهم ويدربهم ولابد أن تكون جوائز (لست وحدك) و (ليلة القدر) و (نفسى) كلها موجهة إلى اختيار هذه الطلائع التى ستعمل فى الحقلين معاً : حقل الصحافة وحقل الأخبار ، ولابد أن مصطفى أمين فى عام ١٩٨٤ قد قام فى هذا المجال بجهد ضخم حتى احتفلوا به وأعطوه الجائزة وإلا فإنه لم يقدم أى عمل ضخم مما يجعل له ميزة هذه الهدية ، وهنا تأتى جائزة الثلاثمائة ألف جنيه التى سيوزعها على الصحفيين من أين جاءت ، ومصطفى أمين يحرص أن ينقل مقاله اليومى (فكرة) إلى جريدة الشرق الأوسط حتى يحصل على مكافأة ضخمة يضمها إلى رصيده الذى امتد خلال هذه الأعوام من كتابات كثيرة ومؤلفات عديدة .

ولعل هذا التكريم جاء فى مواجهة ما كشفته الوثائق التى قدمها الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه (بين الصحافة والسياسة) التى قدم فيها تاريخ مصطفى أمين الصحفى مع حركة يوليو وعبد الناصر ووجهته فى العمل الصحفى الداخلى والخارجى ، الظاهر والخفى .

وإذا وضعنا أمامنا الهدف الذى يعمل له مصطفى أمين وهو الدعاية للنموذج الأمريكى الذى تتطلع الولايات المتحدة أن تفرضه على العالم كله وعلى البلاد العربية على الأقل لوجدنا أن كل كتاباته تجرى فى هذا المجرى ودعوته إلى الديمقراطية ، الحرية ، طريقة توزيع الصدقات التى يجمعها ، النماذج الناجحة التى يقدمها ، الموضوعات الخطيرة التى يغضى عنها ويتجاوزها ويتجاهلها بإصرار ، كل هذا يعطى الضوء الواضح على فهم مصطفى أمين وكتاباته ودوره الخطير الذى يقوم به فى أمان عند محاسبة الوطن له ، ولكنه أمان قليل سوف تكشفه الأيام ، إن مصطفى أمين يقوم بدور أشد خطورة من الدور الذى قام به طه حسين مع تطور أعمال التغريبيين واختلاف الميادين بين الجامعة والصحافة .

إن هذا تمكين للقاءات الواسعة بالشباب الجرىء الذى لا يقيم وزناً للأخلاقيات والقيم سوف يكون على حساب قيم هذا المجتمع وعملية بنائه وحماية وجوده ، وحماية ذاتيته الخاصة وانتمائه الإسلامى .

من الذى يستطيع أن يقدر جهود (مصطفى أمين) فى مهمته الكبرى التى يقوم بها منذ توقيع اتفاقية (كامب ديفيد) إلا الجامعة الأمريكية التى كشفت التحريات فى السنوات الأخيرة دورها فى الحصول على المعلومات الخاصة بمختلف وجوه النشاط الاقتصادى والاجتماعى فى قلب الريف المصرى ، بالإضافة إلى دور الروتارى والليونز بالإضافة إلى مؤامرة احتواء العقل المصرى عن طريق مؤتمرات علماء النفس اليهودية .

ومع تجاهل مصطفى أمين لكل الخطوات الإسلامية الداعية إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وأحكام المحاكم فى قضايا الجهاد وغيره وكل ما يتصل بالأصالة الإسلامية العربية ومع حربه وقبيله للغة العربية الفصحى ، ودعوتهم إلى لغة هابطة وإشاحة الوجه عن كل ما يمثل الفكر الإسلامى أو الحضارة الإسلامية .

وماذا تكون المدرسة الصحفية الحديثة إلا العلمانية الخطيرة التى تعادى الإسلام والعروبة والتى تريد أن تغرب هذا المجتمع المسلم تغريباً تاماً وتقطع صلته بالإسلام وبالعالم الإسلامى .

* * *



محمد حسنين هيكل
الأهرام

نشأ محمد حسنين هيكل فى أحضان الصحافة المصرية المغربة ، وكان على رأسها أقطاب من أمثال فكرى أباظة ومحمد التابعى ، وقد كانا الأساس من كتَّاب الصحافة الأسبوعية المتخصصة فى النقد السياسى (روز اليوسف ـ آخر ساعة ـ الرغائب) بالإضافة إلى صحافة النقد الاجتماعى : كل شىء ، الدنيا ، الاثنين ، وكان سادة الصحافة اليومية وقادتها من السوريين الموارنة فى المقطم والأهرام ودار الهلال بدءاً من تقلا إلى جرجى زيدان ، وأولاده أميل شكرى إلى صروف ومكاريوس ونمر :

ولم يكن طابع الصحافة المصرية قد برز بصورة واضحة بعد منذ صدرت أخبار اليوم ١٩٤٤ (ثم الأخبار وآخر ساعة) وغيرها وظهر ذلك الجيل الجديد :

زكى عبد القادر ، وأحمد الصاوى محمد ، وإحسان عبد القدوس ، وكان هناك جيل عريض من كتَّاب الصحافة اليومية :

عبد القادر حمزة ، وأحمد حافظ عوض ، العقاد ، هيكل ، المازنى .

ولكن النقطة الأولى الحقيقية لصحافة النقد الاجتماعى والسياسى منذ ظهرت فى أول الأمر فى مجلة الكشكول التى كان يحررها : سليمان فوزى كأول صحيفة ساخرة كاريكاتيرية تهاجم الوفد ، مما أدى إلى ظهور مجلة ساخرة كاريكاتيرية وفدية فكانت هى (روز اليوسف) التى أصدرتها السيدة روز اليوسف بعد أن تركت مهنة التمثيل وعمل معها فيها ـ بتوجيه من مكرم عبيد ـ الأستاذ محمد التابعى الذى يعتبر أب هذا الجيل كله.

وفى هذا المحيط : محيط مجلة روز اليوسف (السيدة روز اليوسف والتابعى) الذى تكون فيه مصطفى أمين ـ ظهر محمد حسنين هيكل بين مجلة روز اليوسف ومجلة آخر ساعة واستقر أخيراً فى أخبار اليوم حتى أتيح له أن يتولى رئاسة تحرير جريدة الأهرام العتيدة عام ١٩٥٧ واستمر بها حتى عام ١٩٧٣.

وكانت أبرز معالم شخصيته الصحفية التحقيقات الصحفية الخارجية التى عرفت عن الهند ـ وإيران ـ وفلسطين .

وكان لاتصاله بالصحافة الأجنبية فى القاهرة (خاصة الإنجليزية) أثر كبير فى الاتجاه الذى عرف به فى أحاديثه مع الملوك والأمراء وكبار السياسيين فى مختلف أنحاء العالم .

وكانت حركة الجيش عام ١٩٥٢ هى بؤرة شهرته ولمعانه ودخوله دائرة الضوء .

وقد استطاع أن يقدم عن طريق الأهرام مفاهيم النظام السياسى والاجتماعى الذى قامت به حركة الجيش بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر وخدمة المواقف والأحداث التى واجهت هذه الحركة خاصة ما يتعلق منها بنكسة ١٩٦٧ ، وحرب اليمن ، وما سبق ذلك من الغزوة الثلاثية (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) ١٩٥٦ وكذلك التحول الذى مرت به مصر من الولاء للنفوذ الغربى إلى موالاة المعسكر الاشتراكى .

ولقد عمل محمد حسنين هيكل على تقديم الفكر الاشتراكى والماركسى على نحو بارع حتى إنه أطلق عليه اسم الثورة العالمية .

وكانت أطروحته الفكرية تتكامل ضمن مجموعة من العناصر التى تفرضها أوضاع الصحافة التى تصدر فى الوطن العربى وتتشكل هذه الأطروحة بمجموعة من العناصر الأساسية :

أولها : مفاهيم الصحافة العربية المغربة السابقة للكاتب والتى تتمثل فى شحنة من المعطيات الغربية الوافدة وولاءات المارون اللبنانى الذى وضع أسس الكتابة الصحفية العربية على النحو الذى رسمه صروف ونمر ومكاريوس فى المقطم الذى كان لسان حال الإنجليز والذى وصفه أحدهم بعبارة (قطعه الله) وكتابات تقلا وجماعته والذى كان موالياً لفرنسا والنفوذ الفرنسى والذى كان يبدو فى الصورة العامة أنه معارض للاستعمار .

ثانياً : الولاء الداخلى والخارجى .

حيث كانت مصر توالى الدولة العثمانية والدول الإسلامية جميعاً بولاء الإسلام والوحدة الجامعة .

ثالثاً : الفكر الذى أنشأته حركة الجيش لحماية وجودها والذى كان جامعاً بين القومية والوطنية المصرية .

وكان طابع مصر والمصريين واضحاً وصارخاً .

رابعاً : الفكر القومى الذى عرفته مصر بعد تراجع النفوذ الغربى وجرى تشكيل تصور سياسى عام .

خامساً : الفكر الماركسى الذى كان موالياً لصداقة الاتحاد السوفيتى والصبغة التى صبغها للمسرح والكتابة والاقتصاد وما يتصل بهذا كله من التحول الاجتماعى والثقافى .

سادساً : غلبة العلمانية المغلفة والتى كانت تحاول أن تجعل الفكر القومى مصدراً من الإسلام كما تحاول أن تجعل كذلك للفكر الاشتراكى .

ولكن الأستاذ محمد حسنين هيكل الذى يمكن القول بأنه قاد معركة الفكر السياسى والاجتماعى كان قد وصل إلى حد كبير من المغالاة فى النظرة الاجتماعية العامة متجاهلاً الإسلام والفكر المرتبط بالعقيدة والقيم الأساسية تجاهلاً خطيراً تبين فى عدد من التصريحات التى صدرت على فترات متباعدة والتى يمكن أن تشكل تصوراً عاماً خطيراً .

أولاً : كان مفهوم هيكل للإسلام مفهوماً غربياً لاهوتياً بوصفه دين عقدى لا صلة له بالسياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد ، وكان فى ذلك معترضاً ومعارضاً للتيار الإسلامى الذى كان قد بلغ الذروة والتى تجاوزته الأحداث خلال فترة حكم عبد الناصر تجاوزاً مقصوداً ، كان ذلك يتمثل فى إنكار شديد وحجب كامل للأثر الاجتماعى والسياسى للدعوة الإسلامية فى مصر .

وقد جاء ذلك على أثر خلاف شديد انتهى بالقضاء على التيار الإسلامى حتى لم يعد هناك من أثر إسلامى إلا مجلة (منبر الإسلام) وهبابات قليلة .

ولقد بدت علمانية هيكل واضحة صريحة فى عديد من المقولات الأساسية :

أولاً : مقولة أن الكتب المقدسة أصبحت عبارة عن أوراق ولم يعد لها أثر أو قيمة (النص . . .) .

ثانياً : مقولة وجود الله تبارك وتعالى التى جرى الحوار فيها بين هيكل وعبد الناصر وهو ما أثبته هيكل فى أحد كتبه وما ردده أنور السادات وكثير من الكُتّاب .

ثالثاً : العمل الخطير الذى كلف هيكل به نجيب محفوظ فى محاولة لترضية الشيوعية ممثلا فى قصة (أولاد حارتنا) التى قلبت على نجيب محفوظ كل القوى وأزعجته إزعاجاً شديداً .

وكان هيكل قد أنشأ صالوناً أدبياً فى الأهرام جمع فيه عدداً كبيراً من الكُتّاب فى مقدمتهم : توفيق الحكيم ولويس عوض وأحمد بهاء الدين ويوسف إدريس ونجيب محفوظ فى محاولة لحشد كتاب العلمانية والماركسية .

لقد كانت أخطر مهمة لهيكل هو تحويل مصر والوطن العربى من الولاء الغربى إلى الولاء الماركسى بكل السبل ، ومن العجيب أن ينشأ هيكل فى وسط إسلامى قرآنى ثم يتحول عنه فى فترات قريبة دون أن يكون قد حاصرته الفلسفة المادية أو فرضتها عليه ظروف واضحة إلا إذا كان انتسابه للمعهد الذى أقيم فى بلاد كوريا الشمالية أو غيرها بتوجيه من بعض الصحفيين الغربيين فى القاهرة قد كان له تأثير كبير فى هذا التحول الخطير الذى جعله يقف من الدين جملة ومن الألوهية ما حمله على هذه الكتابات التى ربما كانت محاولة تقديم تصور ماركسى أو اشتراكى يرضى السوفيت .

ولقد وجدت كتابات هيكل نقداً شديداً من أقرب الناس إلى هيكل وممن يعملون معه فى الأهرام ، ويناقش الكاتب (مصطفى عدنان) عناصر محاضرة ألقاها هيكل فى نقابة الصحفيين وهاجم فيها الدولة الإسلامية :

« إنه يقول عبارة لا يصح أن تصدر من صحفى شاب : لم يقرأ أى كتاب فى التاريخ أو فى الجغرافيا ولم تضع القوى الماسونية الصحفية تحت إمرته جهاز كمبيوتر يبعث له بالمعلومات والوثائق جاهزة ليدبّجها على هواها :

إنه يقول : إن حقائق العصر راحت تقمع حقائق القوة وتروض جموحها ، ذلك أنه فى عصر الطاقة الذرية تستحيل الحروب العالمية بين القوى الأعظم فيه وفى غياب إمكانية الحرب المسلحة ظهرت أنواع أخرى من الحروب : الحرب الباردة ، الحرب النفسية ، الحرب الاقتصادية ، وبالوساطة فى النقط الساخنة ، حيث تقف كل قوى القمة الدولية وراء طرف محلى فى حرب محدودة .

وعبارة أخرى موسعة :

(فقد ظهر أن صراعات العالم وتناقضاته لابد أن تعبر عن نفسها بطرق مستحدثة ومتغيرة » .

ويعلق الكاتب فيقول : المحترفون يرددون أن منظمات ماسونية دولية تمدك بالوثائق التى

تختار منها ما يخدم أهدافها بل هواها وأن أجهزة ترجمة تترجم لك وتراجع ، وأن كُتَّاب الظل كانوا يكتبون لك أيام عبد الناصر من الخارج ومن مصر على رأسهم ماسون يكتبون لك فى لندن الآن وأنت تراجع وتضع اسمك على ما ينشر لك من كتب ومقالات .

ويؤكد الكاتب أن هذا يعنى دور السماح بكل السيطرة السوفيتية بدلاً من الأمريكية مقابل قسط من الغنائم عبر الطرفين .

إنها تعنى محاولة فرض الزعامة قسراً على العرب ومساعدة الذيكتاتورية الناصرية وحكم سراديب التعذيب والاعتقالات والانقلابات اليسارية ، الأمر الذى انتهى بعزلتكما (يقصد عبد الناصر وهيكل) عن جميع دول العرب باستثناء الحكومات التى غطتها عباءة موسكو فى تمرير صراعات التسلل والاختراق السوفيتى لإزاحة دول النفوذ الأمريكى .

ويقول : كان فى وجدان الأمة العربية مشروع أمة بين المحيط والخليج تجمع أهل الثقافة الواحدة واللغة الواحدة والامتداد الجغرافى المتصل وروابط المصالح والأمن (أين الإسلام ؟) .

إن مشروع الأمة لم يكن مشروعاً بل كان حقيقة واقعية على طول تاريخ الإسلام وأن هذه الأمة ارتبطت بالإسلام وقامت لأول مرة ، وبضرب الإسلام لأول مرة انحلت وانهزمت وأنه لم يكن هناك أبداً أمة عربية فى التاريخ من المحيط إلى الخليج بغير الإسلام حتى عندما حاولت (أنت وعبد الناصر) وذلك تحت عباءة موسكو بعد تنكركما للإسلام بأمر الماسونية ، وكانت قصة ولم يكن مشروعاً ، وكانت قائمة كفلق الصبح ، وكان العنصر الذى لم يذكره هو العنصر الرئيسى وما عداه عوامل مساعدة بأرجل التاريخ والجغرافيا الماسونية وكأن العهد قد بعد بالرسالة المحمدية ، ولم يكن هناك إسلام إلا أيام الرسول ﷺ ألم يكن هناك إسلام طوال عصور الإسلام الزاهرة قبل أن ينجح الماسون بفضل عملائهم فى اختراق الأمة الإسلامية وتصفية وحدتها أو القول بأن رسالة محمد ﷺ اندثرت لما بعد العهد عنها .

وقال الكاتب : أراك كبر عليك ـ كعادتك فى جميع كتاباتك ـ أن تذكر اسم محمد ﷺ متبوعاً بعبارة ﷺ .

ولولا أن الأستاذ رائد عطار نائب رئيس تحرير الأهرام أبلغنى يوماً عن كراهيتك

الشديدة لهذه العبارة لظننتها سهواً منك ، مع أن الله قد صلى عليه وسلم وأمرنا فى القرآن أن نصلى عليه ونسلم تسليماً يا محمد يا حسنين .

فكم حاول الأستاذ رائد عطار أن ينشر هذه العبارة ﷺ أيام رئاستك فى الأهرام من وراء ظهرك ، ولم ثرت وأمرت بألا يسمح بها فى أى خبر ؟! .

وكانت مباراة بينكما حول نشره لها وحذفك لها ، ظلت تجرى بينكما بلا ملل ولا كلل أكثر من عشر سنوات طوال ، بل لعلك تذكر يوم تعمدت أن يعقد اجتماعك بمجلس التحرير (الدسك) قبل أذان المغرب بلحظات فى رمضان وتدخل عليهم بالسيجار مفطراً ثم تطارد كل الحاضرين بسؤالك المعروف : أأنت صائم ؟ ولمَ ؟

وكيف كان البعض يخفى عليك صيامه اتقاءً لشرك ، والجرىء كان يبرره بأنه مضطر إليه أمام أولاده .

ويعلق مصطفى عدنان على بعض كتابات هيكل فيقول :

تقول بالنص : لكن الأمراء اضطهدوا العلماء والفقهاء وخافوا منهم ولم يتركوا حولهم غير الشعراء يغنون لهواهم ، فإذا ابتعدوا عنهم قطعت أرزاقهم أو قطعت رقابهم .

وهذا صحيح فى بعض الحالات لا فى جميعها وليس على الإطلاق كما تزعم ، إلا أن من يقرأ التاريخ - يا رجل التاريخ - سوف يكتشف أنه لم يحدث التوسع فى هذا الاضطهاد - للعلماء والفقهاء - والتقريب للشعراء والمطربين بالقدر الذى جرى به على يديك وعلى يد زعيمك الذى تحاول أن تحييه لنا من قبره لتبرر ضرورة عودتكم وتنظيمكم السرى لحكم مصر .

أتلقى على هذه العهود (حيث لم يكن هناك إذاعة ولا تليفزيون ولا صحف) هذه الأحجار وبيتك محطم زجاجه والأنقاض من حوله تحوطك لهذه التهم ؟ .

وقال مصطفى عدنان : وتسخر ممن يلقون المعاناة عند الكتابة الآن وأنت الذى لم يعانِ أبداً وهو يكتب وهو يغتال الحق فى كل سطر وفى كل فقرة أو خبر أو حديث مقرر علينا فى جميع الإذاعات ليل نهار .

ويقول مصطفى عدنان موجهاً كلامه إلى هيكل :

إن الكمبيوتر الماسونى والثقافة العلمانية التى عودتنا أن تنفث أحقادها وتزيف التاريخ ضد دولة الخلافة الإسلامية لحساب الماسونيين وابنهم البار كمال أتاتورك ، قد تسللت إلى كتابك بخطأ فاضح ، استلقيت أنت على الأرض كى تحتضنه فرحاً حيث قلت بالنص :

إن المسلمين الأتراك وأنت تسميهم جنساً جديداً قادماً من أواسط آسيا لم يكن جنساً محارباً مقاتلاً .

يا سلام ، ألم تقرأ حديث رسول الله ﷺ عنهم ، إنك تنكر عليهم أنهم قاموا بحماية دار العروبة والإسلام وتصف العالم العربى بأنه نام على هذا بوهم وصحا على كابوس ، ألم تعلم يا أستاذ التاريخ والجغرافيا أنه يشرف أى نظام حكم أن ينشىء امبراطورية إسلامية طويلة عريضة عام ١٢٥٩ (كما فعل عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية) ، لكى تستمر حتى عام ١٩٢٣ عندما جاء الماسون بكمال أتاتورك .

هذه الفترة ستة قرون و٦٠ سنة .

ثم احسب كم بقيت دولة صانع الوكسة التاريخية الكبرى فى الحكم ، ثم تسخر ، أنت الذى تسخر من الدولة العثمانية التى أنشأها العثمانيون وحمت الإسلام نحو سبعة قرون وتقول وَهْم : أَوَهْمٌ يعيش سبعة قرون ؟.

ألهذا الحد تغالط الشباب والشيوخ لا يزالون أحياء ؟ أ هـ .

جريدة النور (٨ أكتوبر ١٩٨٦) .

* * *

الصحافة فى خدمة الماسونية

ذكر ما يلز كوبلاند فى كتابه : « لعبة الأمم » .

إن أمريكا كانت تخطط مع الملك فاروق لقيام ثورة سلمية تمتص الشعور الشعبى المعبأ ضد الملك وضد الاستعمار .

كانت تخطط لانقلاب عسكرى يتظاهر بالعداء للغرب وبالتالى يكشف قادة الانقلاب شعبية تمكنهم من إحداث تغييرات اجتماعية واقتصادية وسياسية ليس فى مصر وحدها بل فى المنطقة العربية كلها .

وكان مصطفى أمين وهيكل أصحاب دور كبير فى اختيار الشخصية المصرية التى تقبل القيام بهذا الدور والتى تصلح له كما كان لحايم ناحوم كبير اليهود دور آخر حيث كان مدرساً خاصاً لجمال عبد الناصر .

ثم تم ترشيح محمد حسنين هيكل ليكون همزة الوصل بين الأمريكان وبين الحكام الجدد ليكون مع آخرين المستشار الرئيسى للحاكم الجديد « أيدى مصرية وعقول أمريكية» .

وقبل الثورة المصرية بعدة أشهر اختفى محمد حسنين هيكل من مصر وكان صحفياً بمجلة آخر ساعة وأذيع أنه يعمل مراسلاً عسكرياً لمجلة أمريكية ويقيم بكوريا لتغطية الحرب الكورية ولكنه أقام فى طوكيو التى كانت آنذاك ١٩٥١ المركز السرى للاتصالات الأمريكية بهذه المنطقة ، لقد ظل هيكل صاحب الكلمة الأولى فى مصر رغم أن تاريخ عبد الناصر مع زملائه فى الثورة يؤكد أنه كان لا يقبل شريكاً معه فى السلطة ، وأكد محمد نجيب أن عبد الناصر لم يكن يعرف محمد حسنين هيكل وأن نجيب عرفه بعد إعلان الانقلاب العسكرى .

والحقيقة أن عبد الناصر كان على صلة بهيكل قبل قيام الانقلاب العسكرى ، كان له صلة بهم وقد نقل زوجة عبد الناصر إلى مستشفى مظهر عاشور أثناء غياب عبد الناصر .

ولكن محمد نجيب كان مخدوعاً وانطلى عليه ما تظاهر به عبد الناصر وهيكل وأعطى هيكل انطباعاً بأنه فعلاً لم يعرف جمال عبد الناصر إلا بعد قيام الثورة .

ذاع وشاع أن هيكل هو الذى ألف كتاب (فلسفة الثورة) وظل هيكل صاحب السيادة ، حيث كان له جناح خاص فى مؤتمرات القمة العربية وكان يتصل مباشرة بجمال عبد الناصر أثناء هذه الاجتماعات .

إن الدهاء الذى اتصف به عبد الناصر كان يقتضى أن يوافق على تصرف نجيب فى استبعاد هيكل من أى اتصالات مع الثورة نسبة إلى التقرير الموضوع عنه بمعرفة المخابرات المصرية والذى نسب فيه العمالة للأمريكان وتمسك عبد الناصر بهيكل رغم أن أسرار الدولة كانت بيد هيكل ، وقوله : كنت شريكاً فى صنع القرار ولم أكن أتلقاه كصحفى ، لقد احتفظ عبد الناصر بهذه العلاقة مع هيكل حتى الوفاة فما ذلك إلا لأنهما ارتبطا معاً

بأسرار أصبحت بمثابة السر الدفين فلا مناص من بقائه .

لقد ارتبط هيكل بالنظام الناصرى ارتباط مصلحة وتواطؤ وهو المدافع عن أحكام النظام فى مقالاته الأسبوعية وهو الذى كان يدير فى الخفاء أمور الدولة السرية والتى لم يعلمها الوزراء المختصون حتى اليوم رغم أنها كانت تنسب إليهم .

وهو ضابط الاتصال بين عبد الناصر والأمريكان يوم كان اتصال عبد الناصر بالأمريكان لا يتم بطريقة رسمية علنية لأنه كان وزيراً للداخلية .

اتصل الأمريكان بمحمد نجيب (تقرير كتبه حسن التهامى ١٩٥٥) وصف هيكل هذا الاتصال بأنه سرى مريب ، ولكن هيكل رغم اتهام نجيب الصريح له بالعمالة الأمريكية وتأكيده بهذه العمالة وبأنه كان يتقاضى راتباً عن ذلك عن طريق عبود باشا ، وأشار مايلز كوبلاند على ما معناه : أن هيكل يقوم بدور هام فى العلاقة بين أمريكا ومصر فهو قادر على أن يقدم كل شيء صعب وعنيف فى أسلوب رقيق يجعله مقبولاً من ناصر .

وقال مايلز كوبلاند فى كتابه (بدون عباءة أو خنجر)إن الصحافى يستطيع أن يكون عنيفاً فى مهاجمة السياسة الأمريكية كما يشاء شرط أن يكون كريماً فى المعلومات التى يقدمها للحكومة الأمريكية وشرط أن لا يسيء استعمال المعلومات التى تعطى له ، وأن بعض أعنف مقالات هيكل ضد أمريكا كانت مرتكزة على معلومات أعطيت له مجاناً من السفير الأمريكى فى القاهرة مقابل أن يعطى هيكل للسفير الأمريكى المعلومات التى فى حوزته بالتفصيل مع ذكر المصادر التى حصل على هذه المعلومات منها وكيف استطاع الحصول عليها .

وهناك أكثر من (هيكل) فى أكثر من عاصمة أفريقية وأسيوية حيث الشعور المعادى لأمريكا مستمر وهناك أكثر من اتفاق لتبادل المعلومات بين الصحافيين وحكومة أمريكا وفى كل الحالات كان هؤلاء الصحافيون جميعاً يتقيدون بنصوص الاتفاقيات المعقودة معهم ولقد قال السفير الأمريكى السابق لويس بافل لخلفه أثر وصول الأخير إلى القاهرة : فى كل مراحل تعاملى مع هيكل كان منصفاً دائماً ولم يخل باتفاقنا مرة واحدة .

(مجلة اللواء الأردنية ١٩٧٤/١١/٢٠) .

وعلى صفحات كتاب الحكم على ملك التعذيب مرافعة شوكت التونى فى قضية

مصطفى أمين ضد صلاح نصر يقول الأستاذ التونى تحت عنوان : هيكل .

يقول ميلز كوبلاند فى كتابه (بدون عباءة أو خنجر) وهو من رجال المخابرات الأمريكية :

إنه ليس ضروريًا أن يكون الإنسان عميلاً بالمعنى الشائع للعمالة لكى يؤدى الخدمة المطلوبة إنما يكفى أحياناً على بعض الأشخاص أن تعقد المخابرات معهم نوعاً من الاتفاق الودى لتبادل المعلومات لكى يصبح بالنسبة إليهم أكثر أهمية من أكبر عميل ، فضرب مثلاً بكاتب الرئيس عبد الناصر (محمد حسنين هيكل) رئيس تحرير الأهرام وقال :

إن العلاقة الخاصة بين الحكومة الأمريكية وكبار الصحفيين العالميين تتجاوز الصحفيين الأمريكيين إلى غيرهم من البلاد الأخرى ممن اشتهر عنهم هو عدم الميل للولايات المتحدة فعلاً .

وقال الأستاذ التونى : إن مجلة الحوادث نشرت أنه فى زيارة عبد الناصر للاتحاد السوفيتى اصطحب معه هيكل مفوضاً فى الاجتماع بخروشوف حيث حاوره خروشوف :

الآن وقد زرت الاتحاد السوفيتى واطلعت على ما فيه أعتقد أنك كصحفى لابد لك من زيارة للولايات المتحدة ؟

هذا صحيح .

ألم تزرها من قبل ؟

لا ـ لم تسمح لى الظروف بذلك .

أنا لم أزر أمريكا نفسها وإنما كانت رحلة منظمة للأمم المتحدة .

هل هذا كلام يقال أين هى الأمم المتحدة ؟

إنها تقع فى جزيرة مانهاتن فى نيويورك .

قال خروشوف : آه تذكرت الآن يومها أنت اغتنمتها فرصة للقيام بجولة سريعة حول الأمم المتحدة .

ومرة أخرى إن لم تخنى ذاكرتى كان ثمة مبلغ محترم من المال فى انتظارك .

قال هيكل : هذا لم يحصل .

قال خروشوف ربما أعتمد على ذاكرتى أكثر ولكن قلما تخوننى الذاكرة وسأثبت لك ذلك عملياً .

وأخرج من درج مكتبه ورقة ، وقال المبلغ المحترم صرف لك بموجب شيك رقم ..... بتاريخ ... إلى بنك ... وكان هذا المبلغ على وجه التحديد هو كذا .

قال هيكل : أنت تقصد المبلغ الذى تقاضيته ثمن بحث لموضوعات كنت بعثت بها إلى جريدتى (واشنطون بوست ونيويورك تايم) وكنت مراسلاً لأخبار اليوم فى كوريا .

قال خروشوف : ألا ترى أن الوقت كان غير هذا وكان بينهما عام .

هيكل : لا أذكر .

قال خروشوف : ألا ترى أن المبلغ كان مبالغاً فيه بالنسبة لمقالات صحفية فهو مائة ألف دولار .

رد هيكل : لا أعتقد .

قال خروشوف : ولكن معلوماتى تؤكد ـ إذا لم تخنى ذاكرتى ـ صرف هذا المبلغ بموجب شيك صدر من المخابرات الأمريكية وليس من الصحيفتين .

ماذا تعنى ؟

إنى لا أعنى أكثر مما سمعته أذناك .

وخرج هيكل واستقل الطائرة ورجع إلى مصر . فى اليوم الثانى الذى وصل فيه إلى روسيا ،ولم يكذب هيكل كوبلاند ولا مجلة الحوادث فى هذا الخبر والكتاب موجود فى السوق ولم يرفع قضية .

ويقول شوكت التونى :

كان هيكل هو المحلل والمبرر لكل خطايا حكم الفرد وشروره ، فكان هو الصحفى الأوحد ، وكانت كل مذكرة فى الدولة تقدم لرئيس الجمهورية تقدم صورة منها إلى هيكل وليس سراً فى أخبار اليوم أن هيكل هو صاحب كل إعلانات الدعاية عن المليونير أحمد عبود ، وكان هيكل يقبض عشر جنيهات عن كل مقال إعلانى يمجد فيه أحمد عبود بإيصالات موجودة حتى الآن أ هـ .

* * *

سجل هيكل عديداً من التصريحات التى كشفت عن جوانبه المختلفة التى لم تكن واضحة تماماً من قبل .

يقول مصطفى عدنان : إن هيكل كشف موقفه من الإسلام فى إحدى اجتماعاته بجريدة الأهرام ، حيث هاجم القرآن ولما سئل عن الإيمان بوجود الله فقال : أنا لا أتعامل مع هذه الغيبيات ، ولما سئل عن الحج قال : إن رحلته لم تكن دينية بل سياسية وكشف عن سخريته برمى الجمار ، ويقول عن الحج والسعى إنها وثنية والطواف حول الكعبة إنها خطوات وثنية .

أما الجنة والنار فإنها على الأرض نصنعها نحن . والإنسان سيد مصيره وهو الذى يصنع جنته وناره .

ولا ريب أن هذه المفاهيم كلها هى مفاهيم الماسونية أساساً والماركسية بعد ذلك وهى تكمل الصورة التى رسمتها الحلقات المتتالية فقد كشف هيكل عن عداء واضح لكل تجمع إسلامى .

ولكن هناك ما هو أخطر من ذلك فإن كل ما حاول أن يركزه للانتماء المصرى قد انهار تماماً .

انهارت القومية التى رسمها والماركسية التى اعتنقها ، والفكر الإقليمى الفرعونى انطوى أيضا ، وانهارت كل هذه القواعد فلم يعد بعدها سبيل إلى مشروع حضارى أصيل ولما كانت الماسونية هى القاعدة الأساسية التى شكلت هيكل منذ التحق بمعهد الاستشراق والسياسة الأمريكية فى كوريا الجنوبية وأمضى منه عامين على أثر عمله فى جريدة «اجبشان جازيت » الإنجليزية التى تصدر فى القاهرة ، وكان المشرف عليها هم يهود مصر الذين أنشأوا من بعد مجلة الكاتب المصرى التى تولاها الدكتور طه حسين .

فإن قادة هذه الصحيفة وهذا المعهد قد استطاعوا استقطابه فاصطنعوه فى هذا الطريق حتى بلغ الغاية التى تتمثل فى أنه كان سفير أمريكا إلى عبد الناصر قائد حركة يوليو الذى كان قادراً على إقناع عبد الناصر بوجهات نظر أمريكا بعد أن يضع لها أفانين البيان والتعبير على نحو ما ذكر مايكلز كوبلز فى كتابه الخطير (لعبة الأمم) .

ولقد كان هذا النبوغ هو الذى أعطاه هذه الرئاسة الضخمة لجريدة الأهرام كعلامة على الطريق الذى كانت القوى الأجنبية والسياسية جميعاً تعمل على تركيزه وتثبيته على مصر والوطن العربى .

* * *

وعندما انهارت الركائز التى مضى هيكل يصنعها خلال خمسة عشر عاما كان لابد أن يأخذ طريقاً جديداً يتأقلم به مع الأوضاع المتغيرة ، أما نظرية الثورة فسرعان ما تبددت عندما تراجع العرب الذين اختلفوا مع الاستعلاء الناصرى بل واختلف معها الذين كانوا قد وضعوا مخطط (حرية ـ اشتراكية ـ وحدة) .

كانت العروبة التى دعا إليها العلمانيون فى مصر وفى بعض بلاد العرب قائمة على نظرية مفرغة من الإسلام جملة ومن الدين خاصة ، قوامها مفهوم القومية الوافد الغربى العلمانى مرتبطاً بالاشتراكية وكانت نكسة ١٩٦٧ علامة على السقوط والهزيمة والتراجع ثم كان تراجع آخر بثورة اليمن فقد كانت هزائم متصلة ليس فيها انتصار واحد .

واضطر القوميون العلمانيون إلى العودة إلى من كانوا يسمونهم السلفيين ليرتبوا لهم معونة بدلاً من الخسائر التى حققتها هزائمهم وإغلاق قناة السويس .

ولقد كان واضحاً أن هيكل إنما يعمل فى سبيل هدف واحد : قد جند له كفاياته وكفايات مصر هو تأكيد وتدعيم نظام حكم الفرد حتى وصف فى صلته مع عبد الناصر باسم (الفرعون والكاهن) الهلال ـ مايو ١٩٧٩

وتلك كانت ولاية الأهرام حيث رقى الكاهن من مهنته من نشر الأخبار إلى المشاركة فى صنيعها .

وفى فترة من الفترات كان يدعو إلى تيئيس الشعب من إمكانات النصر (بعد النكسة) بمقالات تبث اليأس فى النفوس وقد كانت مقالاته قبل حرب رمضان ١٣٩٢ ـ أكتوبر ١٩٧٣ محاولة لجعل عبورنا لقناة السويس واقتحام خط بارليف ضرباً من المستحيل ولوناً من ألوان الانهيار .

لقد كان العمل منذ اليوم الأول غير خالص لوجه الله ولم يكن صادقاً فى العمل

لدعم المجتمع الإسلامى أو حمايته ، ولكنه بالعكس كان وسيلة من وسائل القضاء على القوة الصاعدة العاملة لبناء مجد الإسلام والتى جاء هذا العمل للقضاء عليه .

وعندما عرض هيكل لواقع البلاد العربية والعالم الإسلامى لم تكن لديه القدرة على توسيع دائرة النظرة أو توسيع دائرة الإنصاف من النفس خاصة عندما عرض للصحوة الإسلامية التى لم يذكرها بالاسم ولكنه هاجمها من خلال الحديث عن إيران .

وكان قادراً دائماً على ترضية النفوذ الغربى حين يقول (لا مكان للتيار الإسلامى فى مصر) .

قال هيكل إنه لا مستقبل للصحوة الإسلامية أو للأصولية الإسلامية ولا مستقبل سياسى لهذه القوة فى العالم العربى .

وهيكل فى هذا الرأى يستند ـ كما يقول محفوظ عزام ـ إلى تصوره الخاص للدين وهو تصور مختلف عن تصور المسلمين أو الإسلاميين ، ذلك أنه إذا جاز أن ينطبق هذا التصور على أى دين فإنه بالقطع لا ينطبق على الإسلام الذى هو منهاج شامل للحياة بكل أبعادها والذى هو شريعة لم تترك جانباً من جوانب المعاملات وعلاقات التفاعل بين الناس فى الحياة إلا وضبطتها وأحكمتها بمبادىء كلية بل وبتفاصيل جزئية للأحكام وهذا لم يمنع أن هناك قدراً ترك للاجتهاد وهو ما يرتبط بمتغيرات من شأنها أن تتجدد وتدور معها مصالح البشر ، فلم يغفل الإسلام أن يوفر لها ما يلزمها من حرية التناول اجتهاداً مع الالتزام بالإطار الكلى للإسلام .

وفى قضايا مختلفة بينها الدين أشار إلى أن مجال البشر فيها مجال قاصر محدود ويرد الأمر فيها إلى الله تبارك وتعالى والقرآن فى هذا يقول : ﴿ **آباؤُكُمْ وأبناؤُكُم لا تَدْرُونَ أَيُّهُم أَقْرَبُ لَكُم نَفْعاً فريضةً من الله** ﴾ [سورة النساء : الآية ١١] .

وورد من ذلك فى سياق توزيع أنصبة المواريث التى تبدو فى نظر العقل موضع اعتراض وقد يرى فيها بعض التناقض أو التجاوز لمنطق العدالة .

ومنطق العلمانيين من أمثال هيكل وصل بالمجتمع العربى إلى حد إباحة الشذوذ يراه بعضهم أنه من شئون الناس الخاصة المتصلة بحريتهم ، فكانت النتيجة ما أصاب تلك المجتمعات من ذعر لم يسلم منه حتى الأبرياء .

والربا فى منطق هؤلاء من شئون الناس ﴿ وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا ﴾ [سورة البقرة : الآية ٢٧٥] .

هل ترى لهذا التصور الخاص أن الناس أعلم بشئون دنياهم وأن ما تفعله بعض الحكومات من تحويل العجز بميزان المدفوعات يتم عن طريق الإتجار بالمخدرات أو الممنوعات أو السلاح مما يهدد الإنسان هو من الأمور الجائزة التى لا يجوز للدين أن يحوم حولها أو يتعرض لها .

قد يرى العلمانيون ومنهم هيكل أن نطاق الدين ومجاله محصور فى علاقة الإنسان بربه (عقيدة وعبادة) ومعنى هذا أن يحذف من الإسلام باب المعاملات والأخلاقيات التى تحكمها متجاهلين فى ذلك أن النبى ﷺ قد لخص الدين كله فى كلمة واحدة « الدين المعاملة» .

ومعنى ذلك أن أبواب المعاملات والأخلاق التى تحكمها كانت زائدة وأن العلمانيين أرادوا أن يصححوا هذا الخطأ الذى استمر أكثر من خمسة عشر قرناً .

إن هيكل يخلط بين المجتمع المسلم الملتزم بالإسلام نظراً وتطبيقاً وبين (الثيوقراطية الدينية) التى تمثل حكومة تضفى على نفسها صفة الدين وتحكم باسمه .

وليس فى علماء الإسلام ولا فقهائه من يسوى بين هذين أو يقول بهذه الحكومة الدينية غير هيكل .

وحين نقول دولة إسلامية نعنى دولة تنطلق من الالتزام بالإسلام وتطبيقه على نفسها وعلى رعاياها دون أدنى اختلاف أو تمايز بين الحاكم والمحكوم أو بين الأغلبية والأقلية وكلمة أبى بكر رضى الله عنه : أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم .

ما كان هيكل يعقل أن الثورة الإيرانية لا علاقة لها بالاقتصاد والسياسة أو التخطيط أو مجالات النشاط الإسلامى .

قال هيكل : إن عهد الدولة الدينية قد انتهى وإن الدين قضية متعلقة بأشياء أخرى .

هذا المفهوم لا يعرفه الإسلام ولا تاريخه إنما هو مستمد من تاريخ المجتمع الغربى فى العصور الوسطى يوم كانت الكنيسة تحكم من خلال الملوك والنبلاء وأمراء الإقطاع .

وهو مفهوم دخيل وغريب على الإسلام .

فالثورة الإسلامية لها فقهاؤها ولها منظّروها الذين يحاولون إعادة صياغة المجتمع الإيرانى على المثال الإسلامى فى حدود ما يسمح به الواقع والظروف .

الثورة الإسلامية محاولة اجتهادية لتطبيق الإسلام تخطىء وتصيب وتنجح وتفشل ولكن يبقى الإسلام فيها حاكماً للحياة ليس مجرد مثال نظرى وإنما مدعم بنموذج تطبيقى قابل للتكرار ، كما كان فى عهد النبوة والخلافة الراشدة ولن يكون إنقاذ العالم إلا من خلال منهاج الله تبارك تعالى ممثلاً فى الإسلام بعد ما فشلت مناهج البشر ممثلة فى الأيدلوجيات التى تتساقط واحدة إثر أخرى كأوراق الخريف .

ولعل هيكل استشعر أن الإسلام هو المرشح لملأ الفراغ الأيدلوجى والسياسى فى عالمنا بعد ما فشلت الأيدلوجية الشيوعية الماركسية فى معقلها وهو المصير نفسه الذى ينتظر الآن الأيدلوجية الرأسمالية العلمانية .

٣ ـ والسؤال : هل تحول هيكل بعد سقوط الشيوعية والاشتراكية والنظام الذى قام منذ سبعين عاماً على الظلم والإظلام ؟ .

يقول فى ١١ سبتمبر ١٩٩١ :

الشعب السوفيتى وجد نفسه حرم من جنة الدنيا بالتجربة الشيوعية وحرم من جنة الآخرة بالمادية طالما كتب عن الثورة العالمية أى عن الشيوعية .

ومنذ ذلك الوقت أجد هيكل يتحدث عن الدين بمعنى الأخلاق والعبادات بمفهوم الغرب فى محاولة لتغيير موقفه القديم وهو يصور زيارة قريبة لروسيا فيقول :

ما رأيته هناك مذهل ، إن الشيوعية كما تعرف ترى أن الدين أفيون الشعوب ومنها ما يسمى بالنظرة المادية البحتة إما جنة على الأرض أو جنة فى الآخرة ، والأديان تبشر بالحياة الأخرى والشيوعية جاءت وبشرت بجنة فى هذه الدنيا لكن الذى حدث أن الشعب السوفيتى وجد نفسه أنه حرم من جنة الآخرة بالمادية ثم وجد نفسه محروماً من جنة الدنيا بما حدث فى التجربة الشيوعية وفى النهاية وجدنا أنفسنا أمام شعب بلا أمل فضلاً عن إحساس الشعب السوفيتى بالضياع .

٤ ـ وأخيراً ١٩٩٠ يقول هيكل :

لا يمكن طرح مشروع حضارى للمستقبل فى مصر فى غياب الإسلام ويقول لمستمعيه فى ندوة الكتاب :

إن هؤلاء الأشخاص هم أفراد مثلكم يريدون أن يخرجوا هذا البلد من المأزق الاقتصادى بالحل الإسلامى .

وأن مقولة الإسلام هو الحل هذه صحيحة ولكن كيف ؟ .

ولقد حاورت بعض قيادات الجماعة الإسلامية (الجهاد) فى سجن ليمان طره فوجدتهم أناساً طيبين ويريدون تطبيق شرع الله فى الأرض فقط .

إنى أؤكد أنه لا يمكن طرح مشروع حضارى لمستقبل مصر فى غياب الإسلام أبداً .

إن هذه التصريحات الأخيرة قد تعطى شعوراً بالأمل فى تحول نفسى وفكرى نتيجة لعدة ظروف أساسية أهمها سقوط النظام الشيوعى وهزيمة القومية والماركسية فضلاً عن ثبات وتعمق الصحوة الإسلامية بما يوحى بأنها تدخل فى طريق الهدف الأصيل .

ولكن تصريحات هيكل كلها تعطى إصراراً على أن الإسلام دين عبادى ، يقف عند العبادة والعقيدة ـ كالمسيحية تماماً ـ فإذا قال إن أى مشروع حضارى لابد أن يكون الإسلام قاعدة فى بناء الأمة ونخص مثلاً ما قاله (مصطفى عدنان) من أن هيكل هو أول صحفى فى التاريخ يحتقر أمة بأكملها ويسكت كافة كتابها ويحولهم إما إلى خُرْس أو مطبلين للطغاة وللحزب الواحد وللسجن الكبير وبكل عدو للإسلام .

وربما كانت هذه التصريحات تحول فى الوسيلة وليس فى الخطة مع تغيير الظروف ولكن يبقى بعد ذلك تاريخ طويل لا يستطيع هيكل أن ينساه أو يخرج منه .

يقول المؤرخ الكبير الدكتور عبد العزيز نوار عن منزلة هيكل فى كتابة التاريخ أن هذه وراء كثير من التغييرات على وجه مصر بسبب اندفاعه وراء الأيدلوجيات والدعوات الطنانة مثل الاشتراكية والميثاقية فإنه اختلف كثيراً خاصة من حيث الخروج عن الشكل اللائق بمفكر فى علاقته بالمؤرخين المعاصرين .

ثم إن هيكل بعد ذلك انتقد حركة التاريخ فى مصر والعالم فهو لم يدرك أن العصر لم

يعد عصر المؤرخ العملاق نظراً لاتساع قاعدة المصادر الوثائقية (ملايين الوثائق) واتساع مسطح الأحداث والتطورات والتنوع المشروع لها والتداخل والترابط والعلاقات التى أصبحت أوثق من ذى قبل بكثير جداً بين مختلف العلوم والفنون والآداب ، ولم يعد العصر عصر المؤرخ العملاق ويمكن اعتبار توينبى من هذا الصدد آخر المؤرخين العمالقة ، نستطرد أكثر فنضرب أمثلة من أهمها العدوان الثلاثى على مصر إذ كتبت فيه الكثير ولكن منذ سنوات قليلة فتحت أرشيفات كثيرة بوثائقها المتنوعة ويقبل عليها الباحثون ويخرجون علينا بوجهات نظر قد تكون جديدة كذلك بالنسبة إلى حرب ١٩٦٧ فإن كلمات الأستاذ هيكل عنها تظل مقيدة حتى تفتح الأرشيفات لتصبح مجرد وجهة نظر متحيزة لنظام كان هو عضو فيه .

لقد كان الأستاذ هيكل غير موفق عندما تناول المؤرخين بهذا الأسلوب العنيف الذى قرأناه فى أحد كتبه الأخيرة أ هـ .

* * *

أدونيس

إحياء الباطنية ومؤامرة الحداثة

مدخل

مفاهيم أدونيس :

وينسجم الحب القرآنى مع الحب اليونانى الوثنى ويمكن أن نصف الحب القرآنى بأنه امتلاك جسدى من أجل القضاء على الشهوة التى هى رمز الشيطان فالمهم هو إشباع الشهوة وتسهيل هذا الإشباع .

ويقول : الحب فى الإسلام بقى كما كان فى الجاهلية حسياً ولذلك من الأفضل الاقتصار على استخدام لفظة الجنس دون الحب ، فالحب فى الإسلام جنس من الدرجة الأولى .

من كتاب الثابت والمتحول :

أورد هذا النص سامح كريم فى مقالة له (٢٤ أكتوبر ١٩٩٥ ـ الأهرام) ثم علق عليه بقوله : هكذا ينتقى أدونيس من هذه الثقافة والحضارة الإسلامية ما يعينه على تحقيق أغراضه كالحركة الإلحادية وتفكير غلاة الباطنية والخروج على القيم الأخلاقية مقيماً حضارة الجسد على أنقاض حضارة الروح وهو ما يؤكده الدكتور عثمان حسن قاسم : « أن منهج أدونيس قد انحرف بالصوفية عن انتمائها الدينى مستغلاً بعض الأفكار التى توحى بتجاوز الصوفية للشرع الإسلامى من خلال الاتصال المباشر بالذات العلية دون المرور بمرحلة الرسول ﷺ والوحى فى الإسلام ، كما تعادل مع فكرة وحدة الوجود واعتبرها رفعاً لقيمة الإنسان في مواجهة الفعل الإلهي أ هـ .

* * *

عوامل كثيرة كونت أرضية الفكرة المسمومة التى يحمل لواءها أدونيس والتى تمثلت فى عديد من العناصر التى أمكن أن تشكل هذا الفكر وتدفعه فى قوة إلى الإمام بما يحمله من مغريات توسد له الطريق إلى الزعامة حيث توجد كثير من القوى التى تعمل من أجل دفع أمثال هذه النماذج إلى السيطرة والتخريب ، تتمثل هذه العناصر أساساً فى ترابط الباطنية مع الحزب القومى مع السريانية مع الصوفية وجماعة المنحرفين أمثال ابن عربى ومهيار الديلمى وبشار بن برد .

فإذا تكونت الفكرة الأساسية للهدم أمكن معاونتها بأساليب ووسائل وخطط تتمثل فى المصادر الفكرية الغربية بما تحمله من دعوات باطلة وزائفة وإباحية ، كذلك أمكن التنقيب عن التراث المسموم القديم الذى هدمه الإسلام والذى صنعته ترجمة الفكر اليونانى والذى حمل لواء الإباحية والإلحاد .

كما حمل بعد ذلك لواء الماركسية والوجودية وتناسخ الأرواح فإذا استوعب ذلك كله واستطاع أن يشكل منه مذهباً هدّاماً مضى به على طول البلاد وعرضها ليقدمه للشباب الغض الذى لم يحصل على ثقافة إسلامية تحصنه من الدعوات الهدامة وتحميه من أخطار البريق والزخرف والزيف الذى تقدمه القوى الغاصبة الآن تحت أسماء براقة وبكلمات خادعة واستعلاء شديد الخطر .

ومن هنا كانت مؤامرة الحداثة التى قامت بإحياء الفكر الباطنى القديم من جديد .

ولا ريب أن هناك جوانب خطيرة فى الغزوة العلمانية المعاصرة ولكن أخطرها إحياء الباطنية ومؤامرة الحداثة .

لقد كان تكوينه الوراثى وثقافته والظروف السياسية والاجتماعية التى مر بها من العوامل التى وضعته فى هذا القالب وجعلته مدافعاً عن هذا الخلط ، كانت هناك وراثياته المتصلة بالفكر الباطنى وتكوينه العقدى والاجتماعى كما دفعته ومن ورائه المستشرقون وفى مقدمتهم القس يوسف الخال إلى تكوين هذه التركيبة المختلطة من التراث ومن سموم التراث الزائف وفلسفاته المستمدة من وحدة الوجود والحلول والغنوص كل ذلك جعله

متشكلاً على فكر العداء للإسلام والعروبة جميعاً وكل ذلك دفعه إلى العمل على هدم كل القيم الأساسية والأصيلة من ثوابت الفكر الإسلامى وإفساح الطريق للدعوة إلى التحرر والكشف والدعوة إلى الحرية التى ليس لها ضوابط أو حدود تحت اسم الحرية والإبداع .

كانت مهمته الكبرى البحث فى الكتب القديمة عن كل إباحى وملحد وزنديق لجمع آثاره وتقديمها من جديد بعد أن ردمها الزمان وكشفت الحقائق الأصيلة فساد هذا الاتجاه .

هذا هو العمل الكبير الذى قام به (أدونيس) .

ولقد بلغ فى ذلك غاية الغايات حتى إنه جمع شعر امرأة مجهولة قالت كلمات جنسية دون أن يكشف عن اسمها تحت اسم الحرية والإبداع ، لقد ذهب أدونيس إلى كل مكان فى سبيل جمع خيوط هذا الفكر الإباحى الضال المضل .

ولم يكتف بما جمع من شعر أعلام الإباحة الغربية ومذاهبهم بل واصل ذلك فى شعر عصور كان كُتَّاب الإلحاد والإباحية منكورين يحتقرهم الناس ، لقد جرى أدونيس وراء كل ناعق ممن أنكرهم الأصلاء ولم يجد طلبته إلا فى الزنادقة والفاسقين ممن عرفوا فى العصر العباسى وكان طه حسين قد جددهم ونشر لهم شعرهم وقصصهم أمثال أبى نواس .

غير أن أدونيس لم يقف عند هذا الحد بل ذهب موغلاً فى سموم الفكر الباطنى والإلحادى وكتابات الملاحدة فجددهم مرة أخرى وأعادهم إلى الحياة ليس لأنهم كانوا من الذين ترددت أقاصيصهم ، ولكن على أساس أنهم أعمدة النهضة والذين جددوا الفكر الإسلامى وخلقوا ما يسمى الحداثة القديمة .

فأقام من جديد هذه السوق المليئة بالتحلل والفاحشة ، وآية ذلك كله أنه أطلق على ديوانه الذى عرف به فى هذا المجال مهيار الدمشقى تشبهاً باسم (مهيار الديلمى)الجديد وقد طالع أدونيس كتابات ذلك العصر وأراد أن يتسمى باسم واحد منهم يتعرف به على القراء فى الوطن العربى فلم يجد غير مهيار الديلمى ولم يكفه أن سموه (أدونيس) وقفاً للأسطورة القديمة أيضا .

أما مهيار الديلمى الذى كان المثل الأعلى لأدونيس فإنه كما تقول التراجم كان مجوسياً وأسلم حتى يكون مقبولاً ثم تشيع وغلا فى الشيعة حتى سب الصحابة رضى الله عنهم فى شعره .

يقول رجاء النقاش : إن أدونيس نشأ فى أحضان الحزب القومى السورى الذى أسسه أنطون سعادة فى لبنان فى الثلاثينيات وهذا الحزب بشهادة جميع الباحثين الجادين والمحايدين فى تاريخه وفكره هو حزب فاشى عنصرى معاد أشد العداء للعرب والعروبة وقد كان اتصال أدونيس بأنطون سعادة والحزب السورى قوياً وأنطون سعادة هو الذى اختار لأدونيس اسمه المستعار بدلاً من اسمه الأصلى (على أحمد سعيد) وليس صحيحاً ما قاله أدونيس من أنه هو الذى اختار لنفسه اسم (أدونيس) وأدونيس هو اسم إله قديم من آلهة البابليين الذين كانوا كما تقول الأساطير يسكنون العراق وهو رمز من رموز الخير والجمال ، وأدونيس فى الأسطورة هو ثمرة علاقة آثمة نشأت بين الملك القديم (تباس) وابنته (ميرها) وقد تحولت ميرها عقاباً لها على خطيئتها إلى شجرة ومن جوف هذه الشجرة خرج أدونيس رمزاً للحياة الجديدة الخالية من الإثم والرذيلة وغير هذا قاله أدونيس الذى قال إن اسم أدونيس اسم كنعانى ومعناه (سيدى) .

وكان أنطون سعادة زعيم القوميين السوريين يريد إحياء هذه الأساطير القديمة ليعيد الحياة إلى ماضى البلاد التى كان يعتقد أنها جزء من مشروع الدولة التى ينادى بها وهى سوريا الكبرى .

وإن أول ديوان أصدره أدونيس هو ديوان (قالت الأرض) سنة ١٩٥٤ وقد أهدى هذا الديوان إلى أنطون سعادة زعيم القوميين السوريين الذى كان قد أعدم فى لبنان ١٩٤٩ كما يضم الديوان مرثية طويلة لأنطون سعادة وفى هذا الديوان يقول أدونيس فى تمجيد زعيمه أنطون سعادة والتوحيد بينه وبين الوطن :

قيل كــون يتبنى فقلت : بلاد جمــعت أهلها فكانت : سعادة

وينكر رجاء النقاش أن أول كتاب لأدونيس (قصائد أولى) وأن هذا كذب وإخفاء للحقائق أ هـ .

هذه هى البداية الأولى وهذا هو الكاتب الذى نشأ نشأة شبيهة بمهيار الديلمى .

وقد وجه إليه الأستاذ أحمد أبو كف سؤالاً عن تهمة الشعوبية وتهمة الباطنية وقد أجاب عنهما بالتالى :

قال : إنهم يقولون إن بعض كتبك لا تفهم إلا بمفاتيح معينة خاصة كتاب المسرح والمرايا .

قال أدونيس : إن هناك احتمالين : إما أن يقصد بها أننى لا أعلن أفكارى وآرائى وإنما أبطنها وأكتمها .

وإما أن يقصد بها التعريض بالجماعة التى اصطلح على تسميتها بالباطنية (دينياً) والتى أنتمى إليها وهى الجماعة الشيعية التى اصطلح أيضا على تسميتها بـ (العلويين) .

وقال إن لكل مقام مقالاً ، أليس من حق كل إنسان أن يحتفظ لنفسه بما يؤمن به هذا علماً بأن الواقع هو العكس فجهرى بأفكارى وآرائى هو نفسه الذى يجعل ما أكتبه ممنوعاً فى بعض البلدان العربية ، ويجعلنى معرضاً لكثير من الهجمات التى تتردد ولو كنت باطنياً لفعلت كما يفعل غيرى .

أما من الناحية الثانية فكيف يمكن أن ترد على شخص يعد ولادتك ذاتها تهمة وإذا كانت الباطنية تهمة فلماذا لا تكون الظاهرية هى أيضا تهمة .

وفى رأيى أن هذه ليست إجابة ولكنها محاورة هروب ، ذلك أن كلمة الباطنية لها فى التاريخ القديم والحديث : تاريخ طويل مرتبط بالعقيدة وبالثقافة وبالمجتمع نفسه وأن الموقف هنا يختلف تماماً عما يسمى بالظاهرية التى ليست سوى مذهباً فكرياً يدخل فى إطار الفقه والثقافة .

لقد اقتحم أدونيس أمراً شديداً فى إحيائه هذه القضايا القديمة من جديد والادعاء بأنها تمثل صحوة فى عصرها بينما تؤكد كل المصادر التاريخية الأصيلة أن هذه الأسماء التى يعلى أدونيس من شأنها هى أسماء موصومة عملت كلها ضد الإسلام وضد الدولة الإسلامية وحجبت عن أن توضع فى خانة الأصالة أو أهل الإيمان بعقيدة التوحيد أو دعاة الوحدة الإسلامية .

لقد كانت الأسماء اللامعة فى ثقافة أدونيس هى (مهيار الديلمى ، النفرى ، محيى الدين بن عربى ، أبو حيان التوحيدى ، الرازى ، ابن الراوندى ، ابن رشد ، البسطامى) وهى مجموعة أقل ما يقال أنها تتنكر لمفهوم الإسلام الأصيل القائم على التوحيد الخالص وأنها كلها ربيبة الفكر اليونانى الذى ترجم إلى اللغة العربية فى عصر العباسيين والذى طرح فى أفق الفكر الإسلامى سموم الإلحاد والإباحية ووحدة الوجود والحلول والاتحاد .

وأشاع هذا الجو من الإباحية والوثنية ، هذا الجو الذى جدده أدونيس وأعانته قوى

كثيرة على طرحه فى أفق الفكر الإسلامى من خلال مدخل آمن هو الشعر والأدب تحت اسم الحداثة .

إن هذه الأسماء التى شكلت فكر أدونيس فى العربية تتمثل فى تيارين أساسيين :

أولاً : الفكر الباطنى .

ثانياً : الفكر الذى تحمله الشيعة الغالية وهو وحدة الوجود والحلول والاتحاد وما يتصل به من فكر يونان وفارس الوثنى المندفع إلى اقتحام اللغة العربية على نحو ما يسمى « تفجير اللغة » وهو ما يريد أدونيس أن يصل إليه فى الأخير ما يسميه تفجرات ، أحلام ، غياب عن الواقع ، على حد قوله (أنه إذا جنح إلى الواقع يكون قد أسهم فى تشويش الذات الفنية والكتابة الشعرية) .

حيث يتساءل هل الشعر مغامرة الذات مع ذاتها ، أم مغامرة من داخل المجتمع وإليه ؟.

وفى خلال انحراف أدونيس تراه يغض من قدر ابن خلدون ويرى أنه لا يحقق للمجتمع الإسلامى المعاصر شيئاً بالنسبة لابن رشد والرازى وابن الراوندى ، ويدعى أن فكر ابن خلدون يمثل (الغيبية الدينية) بينما يمثل فكر هؤلاء (العقلانية العلمية) .

يقرر الدكتور عدنان قاسم في كتابه (الإبداع ومصادره الثقافية عند أدونيس) أن أدونيس نشأ فى بيئة اجتماعية معقدة كان لها الأثر الكبير فى تكوينه النفسى كما أنه منذ أخذ يعى محيطه الاجتماعى وإرثه العقدى والثقافى أحس بثقل الذاكرة التاريخية في ظل هذا الزمن المأساة وفي خمسينات هذا القرن العشرين شرع أدونيس يرسم أولى تخطيطاته الشعرية في هذا الزمن الذى شهد سقوط فلسطين فى أيدى الحركة الصهيونية العالمية .

وسرعان ما بدأ الخروج على أوزان الشعر العربى والمزج بين البحور وكانت باكورتها (مرحلة أغانى مهيار الدمشقى سنة ١٩٦١) .

ويمكن اختصار حياة أدونيس الثقافية فى مرحلتين : مرحلة مجلة (شعر) وتمتد حتى نهاية ١٩٦٢ .

والمرحلة الأُخرى ما بعد مجلة شعر وكان قد انتمى إلى الحزب القومى السورى الذى أسس فى الثلاثينيات وقد تأثر الشاعر بدعاوى هذا الحزب .

ثم أسس مجلة مواقف ١٩٦٨ واستعار هذا الاسم من كتاب المواقف والمخاطبات للمتصوف الإسلامى النفرى .

وفى هذا السياق يرى الدكتور قاسم أن موت والد أدونيس حرقاً كان له أكبر الأثر فى اختيار أدونيس لأسطورة طائر الفينيق للتعبير عن تلك الحادثة المؤلمة وتجاوزها ، وبذلك يكون أحد الشعراء الذين كونتهم ظروفهم وأصبح من غير الإنصاف أن ننظر إلى النص بعيداً عن صاحبه لأن هذه الأحداث التاريخية هى التى جعلت أدونيس يتبنى قيماً متمردة على كل ما هو قائم وسائد .

ويربط الدكتور عدنان هذا المسألة بعملية الإبداع الشعرى عند أدونيس ليقول : إن العملية الإبداعية ثمرة لخدمة متفاعلة من العوامل المعقدة التى تتصل بالجوانب الفردية للفنان كما ترتبط بالحياة الجمعية من حيث إرثها التاريخى وواقعها المعاصر ، ولهذا حسب رأى المؤلف أن عملية الإبداع الشعرى الممزوج بالوعى وإدراك الحالة هما عنصران يتصارعان كثيراً :

الواقع الخارجي والعامل الباطنى داخل أدونيس ، ومن هنا فقد قرأ أدونيس أساطير الحضارة البابلية والسورية والمصرية واطلع على الثقافات اليونانية فوجد فيها طموحاته ولاءم بينها وبين ما يعتمل فى قلبه ووظفها لتجسيد آماله وتصوير رؤاه الفنية .

ويعتقد المؤلف أن انتقال أدونيس بين الثقافات والأساطير مرجعه يعود إلى أن أدونيس يعانى مشكلة الانتماء إلى واقعه المعيشى على اعتبار أنه (واقع مزرٍ) ينبغى له أن يتجاوزه بصنع عالم وهمى ينغلق فيه على نفسه وقد اضطره ذلك إلى أن يتخذ من (الحلم) آلية من آليات صنع الصور[1] .

ولقد تحدث أدونيس عن نفسه طويلاً سواء فى إجابته عن تساؤلات تحاول أن تكشف عن جوانب غامضة من حياته وهو فى كل هذه الإجابات لا يقدم شيئاً ذا بال وتكشف هذه التساؤلات عن عقيدته وموقفه من الإسلام ومن العروبة من أشياء كثيرة مازالت فى حاجة إلى إيضاح .

يقول دكتور عدنان قاسم : لقد تميزت شخصية أدونيس بكثير من الصفات المعقدة التى تنم عن نفسية محطمة ترمى إلى التخلص من واقعها المحيط بها .

فهو في بعض تصريحاته يقول : أنا شعوبي لأن أساس الشعوبية هى القول بأن العرب ليسوا متفوقين على الشعوب ذوى القوميات الأخرى ويصل إلى الغاية حين يقول :

---

(١) عن عرض لأنور الخطيب فى جريدة الاتحاد ١٩٩١/٥/٢٠

(**أنا شيعي وشعوبي وشاعر هدام**) .

وهو يصدر أساساً من فكر تكون منذ مطلع حياته على كراهية الإسلام ، ولما اتصل بالمستشرقين تحولت هذه الكراهية إلى إعصار خطير يتخفى وراء كلمات عقلانية ويقوم على قدرة فائقة فى الحوار والجدل وأغلب صور فكره « التمويه » الخطير .

لقد وجد فيه المستشرقون ما وجدوا فى طه حسين إزاء الأزهر فاختاروا له منطلقاً مأموناً هو منطلق الشعر والفن والأدب وكان الطريق مفتوحاً منذ جماعة المهجر (جبران، ونعيمة) إنه ورث مجموعة من الصفحات عن الخصومة بين الإسلام وجماعات الباطنية على طول العصور من خلال مذاهبهم ودعاواهم فصاغ ذلك كله فكراً على أسلوب التحليل الغربى فى محاولة لخداع البسطاء ووجد الطريق أمامه مفتوحاً حين ترك ديناً إلى دين وحين احتضن الشعوبيين والإباحيين والملاحدة الذين عرفوا خلال العصر العباسى فى مذاهب الغنوص وعلم الأصنام وسموم الحلول والاتحاد ووحدة الوجود وغيرها حتى يمكن القول إنه يعمل منذ اليوم الأول إلى هدم كل القيم الأساسية والأصيلة والثوابت وإفساح الطريق للدعوة إلى استباحة الحرية المطلقة .

فإذا ذهبت تبحث عن الشيوعية وجدتها وإذا ذهبت تبحث عن الفرويدية وجدتها أو الماسونية أو الوجودية .

ويمكن القول أنه يؤمن إيماناً مطلقاً :

١ ـ بالفكر الاستشراقى وترديد له من باب القبول الوجدانى والروحى لرجل هو أشد حقداً وكراهية للإسلام والعرب والقرآن والفكر الإسلامى كله فهو من أشد المدافعين عن تلك النظريات المسمومة .

٢ ـ إحياء الفكر الباطني والوثنى والإباحى القديم والموزع على عصور التحلل وشعر الغلمة وإباحيات الشعراء والكُتّاب الذين تأثروا بالفكر اليونانى المترجم إلى العربية .

٣ ـ الحرب على اللغة العربية بوصفها لغة القرآن والدعوة إلى تفكيكها والإعجاب بمحاولات الباطنية فيما يسمونه تفجير اللغة .

٤ ـ الحرب على التراث وهذا باب واسع خطير يحتاج وحده إلى كتاب .

٥ ـ القضاء على الثوابت فى الشعر ، فى البيان ، فى التذوق .

٦ ـ التفكيك لكل ثوابت البيان والنظم .

٧ ـ الانطلاق من المذاهب الكاثوليكية والماركسية والفكر الباطنى والعلمانية والحداثة .

٨ ـ إحياء قصيدة النثر والإيقاع الخليلى وتفكيك البنية للقصيدة العربية التقليدية وكسر الحد الفاصل التقليدى بين ما يسمونه وزناً وما نسميه نثراً .

ويجىء هذا كله فى أواخر القرن الرابع عشر الهجرى وأوائل القرن الخامس عشر من خلال عشرات من الغربيين الأعلام الذين آمنوا بالقرآن واهتدوا إلى نور الإسلام ، جارودى ومراد هوفمان .

* * *

فكرة الحداثة هى فى مجموع أمرها تقوم على فكر الهدم كما أنها لا تعترف بأى شىء مقدس سوى الإنسان تمجده كعنصر أول فى هذا الكون كما أنها تؤكد العودة إلى الذات .

ويرد أدونيس فكرة الحداثة إلى العهدين الأموى والعباسى وتتمثل فى ثورة الخوارج ، الزنج ، القرامطة ، الحركات الإلحادية ، والباطنية من ناحية .

ويقول الدكتور عدنان قاسم : إن معظم تلك الحركات التى آمن بها واعتنق تعاليمها تتصف بالهدم من أجل التخريب لا من أجل البناء والتعمير ، وقال كيف يمكننا أن ننحاز إلى الحركات الإلحادية والباطنية وهى حركات تدميرية تهدف إلى تخريب البيان العقدى وإن أصحاب الحداثة وفى مقدمتهم أدونيس لم يستخدموا مصطلح الحداثة من منطلقات ذات خصوصية عربية بل قد استورد الحداثيون هذا المصطلح عن الغرب وحاولوا تطبيقه على الحياة العربية فى قيمها وحاضرها على نحو قسرى .

ويقول دكتور عدنان قاسم : إن أدونيس قد تأثر بالشعراء الفرنسيين مثل سان جون بيرس وبودلير وأسماء أخرى كما تأثر بفلسفة باسكال الحداثية وكذلك تأثر بالكاتب والشاعر لويس ووليم كارلوس ولميز وبحركة المستقبلين وبالسريالية والمتصوفة وشخصيات تراثية مثل ابن عربى ومهيار الديلمى وبشار بن برد وغيرهم .

ويشدد الدكتور قاسم على فكرة الإلحاد لدى أدونيس والحداثيين بشكل عام فيقول على لسان أدونيس : « الإنسان هو ـ لا الله ـ مقياس الأشياء وما الطبيعة إلا جمال لعقله ومرآة لتجاربه » .

ويقرر كثير من الباحثين فى مقدمتهم الدكتور مصطفى هداره : أن (الحداثة) هى أدب سريالى شديد الغموض منقطع عن العقل والمنطق يعبر عن (لا وعى) الإنسان وينفصل عن القارىء والمجتمع انفصالاً تاماً ومثل هذا الأُدب يستحيل أن يقدم مناهج النقد المألوفة لأنه سوف يحكم عليها بالإعدام .

وقد ظهر مذهب الحداثة فى الغرب منذ الحرب الأولى معبراً عن الرفض للمجتمع الأوربى والسخط عليه ويتمرد على الماضى والحاضر ويتطلع إلى مستقبل مبهم لا حدود له ولا شكل .

وقد تلقفه بعض المستغربين فى أدبنا العربى المعاصر وعلى رأسهم أدونيس الذى يمارس دوراً خاصاً فى تحطيم الفكر العربى وإخضاعه للمذاهب الغربية الشاذة .

وفى كتابه (الثابت والمتحول) يقول : إن الثابت الذى يهدف إلى تدميره هو كل فكر مرتبط بالعقيدة الثابتة بالماضى أو السلطة الشرعية ، والمتحول الذى يدعو إليه هو كل ابتداع يتمثل فى التمرد على العقيدة والخروج على كل سلطة شرعية .

ويقرر مذهب الحداثة الرفض المطلق لمن يخوض من المبدعين فى الدين أو الجنس .

ويقرر الدكتور هدّاره : أن الحداثة بمفهومها الاصطلاحى كاتجاه جديد يشكل ثورة كاملة على كل ما كان وما هو كائن فى المجتمع ، ويصفها أحد الباحثين الأوربيين بأنها (زلزلة حضارية عميقة) وانقلاب معاكس شامل ومنها جعلت الإنسان الغربى يشكك فى حضارته بأكملها ويرفض حتى أرسخ معتقداته المتوارثة .

ويقول مقدم النظرية : شارل بودلير : إن الحداثة تقوم على أساس أن كل ما هو مظلم بائس منحط فى النظرة السائدة التقليدية ليصبح فى منظور الحداثة فاتناً مثيراً ، وإن الحداثة فى الأدب قد تجددت على أساس النظرية البودليرية بحيث تتضمن استحداث علم جمال القبح والبشاعة والإفلات من الواقع والوجود فى حالة توتر مستمر والعمل على إيجاد لغة جديدة لا تعترف بالآلات والمواصفات على أساس ما يسمى بكيمياء اللغة .

ويقرر الدكتور هدّاره : أن هذا المفهوم للحداثة يتعارض مع المذاهب الواقعية والرومانسية والكلاسيكية ويتآلف مع التجريدية والتأثيرية والتعبيرية والرمزية والتفكيكية والسريالية إلى حد ما .

وهو يبدو فى مظهره غريبًا عن الفكر الماركسى ولكنه فى الحقيقة وثيق الصلة بهذا الفكر ، وقد قيل إن ماركس يبحث عن المطلق والخفى فى التاريخ وفى العلاقات الاجتماعية .

كما أن فكرة الإنسان الكامل التى يتبناها أصحاب الحداثة بوصف الإنسان مركز الكون تقع فى مقابل فكرة الإنسان الكلى فى الماركسية وتتفق الحداثة مع الماركسية اتفاقاً كاملاً فى الثورة على القيم السائدة فى مجتمع ما وعلى تقاليده وتراثه وفى محاولة هدم كل ما هو أصيل وثابت فيه ، وتأتى العقيدة فى مقدمة ذلك ولذلك لا يستغرب أن الداعين إلى الحداثة فى العالم الغربى من الشيوعيين المعروفين مثل لوى أرجون وهنرى لوفيق واحين جريد حتى رولان بارت .

وستجد الداعين للحداثة فى البلاد العربية دون تعيين أسمائهم من أصحاب اليسار والباطنية والحزب القومى السورى .

وقد تخللت الحداثة من الفكر الغربى إلى عالمنا العربى منبتة عن أرضها من الحضارة التى أوجدتها وعن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى شكلت كيانها .

وقد كانت رغبة الجهات المستغربة العمل على ترسيخ النموذج الغربى فى حياتنا وفكرنا ، ولكن عالمنا الإسلامى لا يزال متشبثاً بثوابته أميناً على تراثه وأصالته حافظاً لعقيدته برغم كل محاولات الغزو الفكرى والقهر الاقتصادى والعسكرى طوال قرنين من الزمان ، بل لقد أحيا الغزو المستمر روح المقاومة وأوجد رد فعل قوى للدفاع عن الشخصية الذاتية لعالمنا العربى المسلم بكل مقوماتها وأصولها .

* * *

حول كتاب (الثابت والمتحول)

أثار كتاب (الثابت والمتحول) ضجة كبرى من حيث إنه يمثل فلسفة الهدم التى رسمها أدونيس وصدقت عليها الجامعة اليسوعية اللبنانية التى قدمت إلى الناس هذه الفلسفة الخطيرة : فلسفة الحداثة فأنتجت أطروحة الدكتوراه وكان كتاب الثابت والمتحول ولا يزال منهج العمل الأدبى الذى قام ويقوم به أدونيس .

ويتساءل رجاء النقاش : من أين جاءت هذه الدكتوراه ؟ إنه نال الدكتوراه فى نقد الإسلام والفكر الإسلامى من جامعة مسيحية ، ومثله فى ذلك مثل من يذهب إلى الأزهر لينال الدكتوراه فى نقد المسيحية والحمد لله أن الأزهر أرفع من أن يقبل مثل هذا الأمر أما الجامعة اليسوعية التى نال منها أدونيس الدكتوراه فهى جامعة لا يطمئن إليها المسيحيون الشرفاء وهم كثيرون جداً فى لبنان نفسها فهم يعرفون علاقات الجامعة اليسوعية التاريخية ببعض أجهزة المخابرات الأوربية والتى تتخذ من هذه الجامعة وسيلة لنشر الأفكار التى تريدها وتخرج العناصر البشرية التى تساعد على تطبيق هذه الأفكار ، وهذه الأفكار تتلخص فى العداء للعروبة والفكر الإسلامى الصحيح مع العمل على إبعاد لبنان عن محيطها العربى وإلحاقها بالمحيط الأوربى والمصالح الأوربية .

ولو كان أدونيس قد التزم فى رسالته بالأصول العلمية الموضوعية الصحيحة لقلنا إنه عقل حر يجتهد وإن أخطأ فله أجره ، أما الواقع فإن أدونيس فى كتابه (الثابت والمتحول) قد لجأ إلى أساليب غير أمينة وغير علمية لتشويه الفكر الإسلامى .

ويقول رجاء النقاش :

لقد امتلأ كتاب (الثابت والمتحول) بالطعن على الثقافة العربية ، حيث بذل جهده فى أن يبرهن على أن الثقافة العربية لم تعرف التجديد والتطور والنهضة إلا على أيدى أصحاب المذاهب الباطنية ، أما أصحاب المذهب السنى بفروعه المختلفة فهم الذين كانوا وما زالوا يمثلون الجمود فى الفكر والثقافة والفن ، ومن ذلك قوله بالنص فى الجزء الأول فى كتابه المشار إليه : إن التحول أو التجديد أو الثورة فى الثقافة العربية قد ارتبطت فى (الدور الحاسم) منها بظهور نظرية الإمامة عند بعض الفرق الإسلامية الباطنية .

وحيث يقول : لعب القول بالإمامة وما استتبعه وتولد عنه من آراء فى الوصية وعلم الإمام والعصـمة والغيبية والرجعة والولاية والتفويض دوراً حاسماً فى التحول الثقافى العربى.

ويقول : ولست أحب أن أدخل مع أدونيس فى جدال حول ما يدعيه من أن المذاهب الباطنية فى الإسلام هى مصدر التجديد الثقافى والفنى والاجتماعى ويحتاج الأمر إلى دراسات علمية دقيقة تدحض أفكار أدونيس التى هى فى جوهرها دعوة إلى التمزق والطائفية بين العرب والمسلمين ودعوة إلى مزيد من الحروب المشتعلة على الأرض العربية الآن ، ولكن يكفى أن نقول هنا : إن ما يردده ليس من العلم الصحيح فى شيء ، فكبار المجددين فى الفكر العربى والأدب العربى هم الذين ينتسبون إلى الخط العام فى الثقافة العربية ، فأبو تمام إمام المجددين من الشعراء فى العصر العباسى لم يكن من أصحاب المذاهب الباطنية ، وابن الرومى وهو من كبار المجددين من الشعراء لم يكن باطنياً ، وأبو العلاء المعرى صاحب رسالة الغفران لم يكن باطنياً ، وإن حاول البعض أن ينسبه إلى المذاهب الباطنية بغير دليل سليم ولا برهان علمى دقيق وابن خلدون أول مؤسس لعلم الاجتماع فى نظر الفكر الإنسانى كله لم يكن من أصحاب المذاهب الباطنية والدليل ساطع إذا أردنا أن نفكر فى الأمور بعقل غير متعصب وضمير علمى ليس فيه التواء .

وتمتد الفوضى الفكرية التى يريد أدونيس أن ينشرها فى ثقافتنا المعاصرة إلى أمور لا يجوز الاقتراب منها بغير معرفة واسعة دقيقة وميزان فكرى شديد الحساسية والأمانة .

ومن نماذج أدونيس فى كتابه (الثابت والمتحول) فى الجزء الأول يقول :

١ ـ لم يغير الإسلام طبيعة النظرة إلى المرأة كما كانت فى الجاهلية أو طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة واكتفى بأن نظم هذه العلاقة وجعل لها قانوناً وجعلها تتم وفقاً لطقوس معينة ، فالحب فى الإسلام بقى كما كان فى الجاهلية حسياً ، ولذلك من الأفضل الاقتصار على لفظة (الجنس) دون الحب فالحب فى الإسلام جنس فى الدرجة الأولى .

٢ ـ الإنسان مجزأ فى الإسلام إلى جسد وروح وعقل ومن هنا يصعب فهم وحدته وفهم الوحدة بعامة .

٣ ـ العربى المسلم لا تهمه المرأة بل تهمه النساء وهو لا يهمه أن يحبهن بل يهمه أن يمتلكهن .

٤ ـ القرآن يعتبر النفس كتلة من الغرائز والأهواء وهو يضع لها قانوناً يسمو بها

ويصعدها ، ولهذا أبقى عليها كما كانت فى الجاهلية لم يحاربها ولم يقتلها وإنما هذبها وصفاها فليست هناك حبيبة فى القرآن بل زوجة وليس فيه حب بل جنس ، وصورة المرأة فيه هى صورة الزوجة والزواج متعة جسدية من جهة وإنجاب من جهة ، ومن هنا فقد قرن صورة الزوجة بصورة الأم .

٥ ـ ينسجم الحب القرآنى مع الحب اليونانى الوثنى ويمكن أن نصف الحب القرآنى بأنه امتلاك جسدى من أجل القضاء على الشهوة التى هى رمز الشيطان ، فالمهم هو إشباع الشهوة وتسهيل هذا الإشباع .

٦ ـ الحب فى القرآن قرار أو علاقة يقررها الرجل وعلى المرأة أن تخضع فليست الغاية الحب بل التيه الجنسى .

ومن هنا فإن وجهة نظره أن الإسلام لا يعرف الحب ولا يعترف به ، ولكنه يعرف الجنس وسيادة الرجل على المرأة كأنها شىء من الأشياء .

« وهذا الكلام الخاطىء قائم على اجتزاء بعض النصوص القرآنية من مواضعها والتجاهل التام للنصوص الإنسانية والسلوك الإسلامى الذى يدعو فى مئات المواقف الواضحة المحددة إلى الرحمة والمودة والتعامل بالحسنى والاحترام الكامل للمرأة أماً كانت أو زوجة » .

وماذا تكون معانى الرحمة والمودة والإحسان وغير ذلك مما ورد فى القرآن عشرات المرات إلا تعبيراً رفيعاً عن معنى الحب الصحيح الأصيل وهل يحق لمن يدعى أنه باحث حر أن يجتزىء النصوص على هواه ثم يتجاهل تاريخ المسلمين أنفسهم وعلاقاتهم الإنسانية ولا يستنتج منها ما يفرضه ذلك من استنتاجات علمية واعية صحيحة .

ولماذا تجاهل الباحث كتاباً مثل كتاب (طوق الحمامة) للإمام الإسلامى العظيم ابن حزم ، أليس هذا الكتاب فى الحب ثمرة من ثمار العقل الإسلامى وكاتبه هو فقيه من فقهاء الإسلام المعدودين ؟.

ولماذا يتجاهل الباحث علاقة رسول الله محمد ﷺ بالسيدة خديجة رضى الله عنها وقد استمرت هذه العلاقة الزوجية الكريمة خمسة وعشرين عاماً متصلة كانت مثالاً رفيعاً فى الحب والوفاء والتضامن فى السراء والضراء .

ما أكثر ما يمكن أن يقال عن الحب فى الإسلام .

ونصل من هذا إلى هذه الحقائق :

١ ـ أن ما كتبه أدونيس فى كتابه (الثابت والمتحول) عن الإسلام أو عن العرب يفيض بمثل هذه الأخطاء العلمية الفاحشة ، وينطوى فى داخله على دعوة صريحة إلى التمزق والطائفية ومحاربة وحدة العرب كشعب ووحدة الإسلام كدين ثم الإعلاء من شأن المذاهب الباطنية باعتبارها مصدراً للقوة الفكرية والتجديد والأسس الصحيحة للعلاقات الإنسانية المفقودة تماماً عند الأغلبية العربية والمسلمة فى نظر أدونيس .

وأنا أعتبر هذا الكلام كله خطأً وتدجيلاً من الناحية العلمية وتفسير النصوص بنية سيئة وضمير شديد الالتواء .

٢ ـ إن كل ما كتبه أدونيس هو كذب وافتراء على التاريخ الإسلامى بأفكاره وأشخاصه إرضاءً للجامعة اليسوعية التى منحته الدكتوراه على هذا الكذب والافتراء مع مرتبة الشرف الأولى .

ومن حق أدونيس أن يقول ما شاء عن تاريخ الإسلام وليس من حق مواطن مسلم عادى مثلى أن يعترض على هذا الكلام ويرفض ما فيه من تشويه وتزوير .

لعل حرية الفكر أن يقول أدونيس ما شاء له بسوء نية وظلام عقله وليس من حرية الفكر مناقشته فيما يقول أ هـ .

والواقع أننا نرى فيما كتبه رجاء النقاش يصدق على كشف زيف هذه الدعوة المسمومة المدعاة .

وأكبر هذه الأخطاء ما ادعاه من مقولة أن التجديد الفكرى والثورة الثقافية والسياسية لا تتحقق إلا من خلال نظرية الإمام المعصوم ، ومن خلال دعاة الباطنية فى الفكر الإسلامى .

* * *

أما موقفه من التراث فهو سيىء ومظلم إلى أبعد حد يقوم أساسا على التحيز والمبالغة على نحو يسقطه تماماً عن أن يكون رائداً لتيار أو مفكراً مقبولاً فى المحيط الإسلامى والعربى .

والتراث عنده هو ما انتقاه من سموم الفكر الباطنى القديم وجعله وسيلة لتغذية نزعته

الهدامة مقلداً نظرية الحداثة الغربية التى اعتمدت على استخدام الأساطير ورفع الحلم إلى مرتبة رفيعة وتيار اللاوعى واستخدام الكلمات أو اللغة الشعرية لإيجاد عالم من الكلمات يتوافق مع الحالة الجوانية للشاعر أو المبدع بشكل عام ، ويرى الدكتور عدنان قاسم أنه كان يطمع فى أن يشكل منعطفاً مثيراً فى تاريخ الأدب العربى كما فعل أبو تمام والمتنبى اللذان كانا عدولاً وانحرفا عن المثال السائد والمألوف فى نظرية الشعر العربى فى العصر العباسى وقد انصب تمردهما على الجانب الشكلى .

ويرى الدكتور عدنان قاسم : أن أدونيس نقض أعظم قاعدة سخر نفسه من أجلها وهى التحول والتجدد وهو أن إبداعه وقف عند نقطة معينة لم يتجاوزها لا فى صياغته الفنية ولا فى رؤيته الفكرية وهى صورة مهيار الدمشقى ١٩٦١ .

وجملة القول فى موقف أدونيس من التراث أنه أداة تنكر للماضى تقوم على فكر الهدم ، فقد قصر التراث على سموم الباطنية والملاحدة وجعل ثورة الخوارج والزنج والقرامطة أساساً لدعوته .

ونقول مع الدكتور عدنان قاسم هل يمكن أن تكون الحركات الإلحادية والباطنية مصدر بناء ؟ بينما هى حركات تدميرية ترمى أساساً إلى تخريب البنيان العقدى .

يقول الدكتور عدنان قاسم :

لقد استورد الحداثيون هذا المصطلح من الغرب وحاولوا تطبيقه على الحياة العربية قديمها وحاضرها على نحو قسرى فلم يستخدم مصطلح الحداثة من منطلقات ذات خصوصية عربية ، وقد تأثر أدونيس بالشعراء الفرنسيين أمثال بيرس وبودلير كما تأثر بفلسفة باسكال الحداثية وتأثر بالكاتب دهيلورنس ووليم كارلوس ولير وبحركته وبالسرياليين والمتصوفة وشخصيات تراثية مثل ابن عربى ومهيار الديلمى وبشار بن برد .

وما أثير عليه من عناصر تراثية يعود إلى أنها تتفق مع ما يرمى إليه لهتك قداسة التراث » .

وتأخذ ظاهرة الإلحاد عند الحداثيين مكاناً بارزاً ويبدو التشديد عليها لدى أدونيس والحداثيين بشكل عام .

يقول أدونيس : إن الإنسان هو ــ لا الله ــ مقياس الأشياء وما الطبيعة إلا جمال لفعله ، فعل الإنسان ومرآة لتجاربه .

(ولا شك أن هذا التعبير يمثل أعلى درجات الإلحاد جلّ ربنا وتبارك عما يقولون وتعالى علواً عظيماً) .

وصدق الله العظيم : ﴿ **إنَّ الَّذين يُجَادِلُونَ فِي آيـَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُم إن فى صُدُورِهِم إلا كِبرٌ ما هُم بِبَالغِيه** ﴾ [سورة غافر : الآية ٥٦] .

* * *

الشعر بعامة

تحدث أدونيس عن الشعر بعامة ، وحمل على الشعر العربى الأصيل حملة مسمومة ومن أقواله فى هذا الصدد :

شعرى ملىءٌ بالمتناقضات ، ملىء بالصور المتناقضة وملىء بالغموض الأمر الذى يجعل شعرى مناقضاً تماماً للفلسفة المنطقية ، شعرى ملىء بالاستبطان أو الاستبصار المعمق لكنه ليس فلسفياً .

س : هل معنى هذا أنك رجل متناقض غامض ؟

جـ : لا لأن عالم الأحلام والرؤى قام على التناقض .

هذا النوع من التناقض الذى أقصده لأترك لجسدى حرية التفجر وأكبت عقلى كثيراً لأعطى جسدى وخلاياى حرية التفجر .

إنه يقدم مفاهيم مضطربة تختلف عما مضى عليه الشعر خلال القرون الطويلة :

فيقول : إن الأوزان لا تخلق الشعراء ، وأما الشعراء فهم الذين يخلقون الأوزان وإنما الشعر كان موجوداً قبلها .

وليس هناك نص دينى أو أدبى يقول لنا :

لقد وقفت عبقرية اللغة العربية عند هذا الحد أو ذاك وإنما عبقرية اللغة متحركة لا نهائية تحرك الإنسان العربى وتتحلى فى أشكال جديدة أخرى تختلف مما قدمه القدماء .

ويقول : إن الذين يتكلمون اليوم شعراً له شكل الأوزان القديمة لا يقدمون شعراً على الإطلاق ، وإنما يقدمون تشكيلات تقليدية ليس فيها أى لهب شعرى .

ويدعو أدونيس إلى القضاء على بحور الخليل تحت اسم الإبداع والدعوة أساساً موجهة ضد القيم وليس ضد أساليب النظم وحده ، ويتحدث أدونيس عن غيبة عن الواقع الذى يسهم فى تشويش الذات الفنية ويدعو إلى تفكيك البنية للقصيدة التقليدية وكسر الحد الفاصل التقليدى بين ما يسميه وزناً وما نسميه نثراً .

وعندما يقال له : شعرك مغلق على الفهم ولا يصل إلى القارىء العريض يجيب بمكر شديد : أنا لا أفكر فى قارئى حينما أكتب ، إنما أفكر فى الإجادة وأفكر فى استيفاء التجربة التى أعيشها ، ويرى أن مفهوم الشعر مفهوم مهوم وجدانى وخيالى وغائب عن الواقع يقوم على تفجرات وأحلام .

وأنه إذا جنح إلى الواقع يكون قد أسهم فى تشويش الذات الفنية والكتابة الشعرية ويبحث أدونيس عن الشعر المكشوف فى دواوين الأدب العربى وينشره فى محاولة لدفع شباب الشعراء إلى أدب الجنس .

أما ذلك التراث العربى الإسلامى الضخم الأصيل فإن أدونيس يقف منه موقف الإعراض والانتقاض لأنه لا يعينه على نظريات الهدم وسموم التدمير التى يعمل لها .

* * *

يقول الدكتور عبد الغنى رجب الطبيب النفسى فى تصور شعر أدونيس وموقفه من الشعر العربى عامة : إن أدونيس يعبر عن نفسه خير تعبير كشاعر إذا نظر إلى شعره نظرة سيكلوجية من وجهة نظر علم النفس الإكلينكى وليس علم نفس الإبداع .

فآراء أدونيس الشعرية تنطلق من فكر ماركسى فاضح تسربت إليه السوريالية مع التجريب الأمريكى والفرنسى وفكر الباطنية ثم فكرة نيتشة (التدمير من أجل خلق السوبرمان) ثم تناسخ الأرواح بالإضافة إلى أسطورة الفينيق وعشتار وهذه الأفكار يستحيل أن تظهر فى بوتقة واحدة ، وتصنع إشكالية متسقة تحمل سمة واحدة عربية وتعدد الانتماءات تفقد حس الانتماء كما يقرر هو فى مرحلة مبكرة من حياته فى قصيدة (الفراغ) التى يصف فيها جيله بأنه قد فقد حس الانتماء ، كما يقرر هو أيضاً أن الثقافة العربية ثقافة معوقة اجترارية ، وحجة الإسلام الغزالى مثال ساطع فى رأيه على الجمود والثبات ، والسيدة عائشة رضى الله عنها فى فكره المريض نموذج أعلى للقحط والموت .

إن شعر أدونيس مجرد إيهام مضطرب دونما مدلول على الإطلاق تلمح فى سماته الرئيسية الغرور والتعالى والنرجسية وجنون العظمة وجنون الاضطهاد وحب التدمير والخنوثة التى تلمحها فى قوله :

(عرفت أقل من امرأة لأنى تزوجت بأكثر من امرأة ، عرفت أقل من رجل لأنى تزوجت بأكثر من رجل) !

ثم ينتهى بضياع الهوية ، من أنت أيها السيدة ، من يقول لأدونيس من هو مفرد بصيغة الجمع .

والهستريا فى قوله (غير أنى شاعر أعبد نارى وأحب الجلجلة لأغانى مهيار) .

وجنون العظمة (أنا ساعة الهتك العظيم أنت وخلخلة العقول) ، بم (هذا إذا عبرت سحابة حولى بزوبعة الجنون وقت بين الرماد والثورة) .

فأدونيس كما وصف نفسه ليس أكبر من سحابة حبلى بزوبعة الجنون وهذه السحابة عما قليل تنقشع مما يؤكد عنده العدمية ، وفكرة الجنون عند أدونيس تمثل أعلى مستويات الثورة كما يقول محمد الخزعلى (عالم الفكر ـ مجلد ١٩ ـ ٣) ما يأتى :

وهى فكرة تتكرر كثيراً فى شعره ، فالجنون هو محور حياته وشعره وهو ما لا يمكن بحال من الأحوال أن يصنع حضارة لكنه يدفع بصاحبه أن يضع يده فى يد أعدائه بحثاً عن لذة عاجلة ومكسب سريع ودون أن ينظر أبعد من أنفه .

يقول أدونيس : أمحو وجهى ـ وجهه العربى ـ أكتشف وجهى ـ وجهه الصهيونى وأنت أيتها الأشلاء الباقية من أحلامنا تحومى حول صبو أبناء جيله فى جائزة نوبل ، يتضح من الدراسة السابقة وجه مهيار الدمشقى الحقيقى وتستطيع أن تتبين مدلولات الرموز الغامضة التى حار النقاد فى تفسيرها فالنقد ليس مجالها الحقيقى وإنما الطب النفسى أ هـ .

ولا شك أن هذا التحليل النفسى يقدم الحقيقة الغائبة لدى المحللين والباحثين على وجه يؤكد جنون العظمة الذى هو مركب النقص فى شخصية أدونيس .

تدل على هذا علامات كثيرة :

أهمها التناقض فى الجمع بين فكر ماركسى عبر الفلسفة المادية وبين فكر الفرنسيين

الآخذين من الفكر الباطنى والدعوة المستمرة للخروج من الترابط الذى يربط بين العقل والقلب ، وهذا التشاؤم العميق والإسراف فى التركيز على العقلانية دون تقدير لملكات الإنسان الأخرى وأهمها الروح والمعنويات .

* * *

الأسطورة مفتاح فكره وحياته

كوّن أدونيس ثقافتــه من جمـــلة مصادر متعـارضة مختلفة أساسها الأول والأخير هو « الأسطورة » .

كان مصدر ذلك أساساً الفكر اليونانى والفارسى القديم وأساطير الثقافات المختلفة فى مقدمتها أساطير الفراعنة القديمة والجاهلية والوثنيين فى كل مكان ومن كل هذا الخليط كون مذهبه وأطروحاته .

يصل فى هذا المجال كُتَّاب كثيرون إلى استنتاجات لخصها الدكتور عدنان قاسم على الوجه الآتى :

١ ـ استثمر هذه الثقافة استثماراً مضاداً للقيم العقيدية محاولاً فى تنظيراته وتعليقاته وفى نتاجه الفكرى نكث البنية الموروثة فى الشعر العربى وإقامة بنيان غريب على أنقاضها .

٢ ـ كانت ثورته على الواقع العربى الراهن سلبية ، انحصرت فى التمرد على التقاليد الفنية للشعر العربى وتهديم التشكيلات اللغوية فيها وحملت اللغة عنده أعباء هذه الثورة العارمة ولم تجاوزها لتغيير الواقع المعيشى .

٣ ـ انتقى من التراث العربى ما يعينه على تحقيق أغراضه كالحركة الإلحادية وتفكير غلاة الباطنية والخروج على القيم الأخلاقية مقيماً (حضارة الجسد) على أنقاض حضارة الروح .

٤ ـ انصرف بالصوفية عن انتمائها الدينى مستظلاً بها ببعض الأفكار التى توحى بمجاوزة الصوفية للشرع الإسلامى ومن خلال الاتصال المباشر بالذات العلية دون المرور بمرحلة الرسول أو الوحى فى الإسلام كما تعامل مع فكرة وحدة الوجود باعتبارها رفعاً لقيمة الإنسان فى مواجهة الفعل الإلهى .

٥ ـ مجد السريانية والدادئية من حيث كونهما ترتفعان فوق الحقائق العقلية التى

ترفض الهلوسة والهذيان وأخذ من السريالية معظم أفكاره .

٦ ـ أعاد للشاعر مكانته التى حظى بها قبل الإسلام من حيث كونه عرافاً كبيراً يستقى معارفه من الغيب تمهيداً لرفعه لمستوى الأنبياء .

٧ ـ أبطل فاعلية الوظيفة الاجتماعية للشعر ناقلاً مجالسه إلى البحث عن المجاهيل من خلال التجريب الدائم فى اللغة بأشكالها المختلفة الناتجة عن ذلك التجريب .

٨ ـ أهمل المتلقى إهمالاً كاملاً فلم يعد يعنيه أن يتفهم الإنتاج الشعرى الأمر الذى أكسب ذلك الشعر غموضاً مغلقاً يتعذر على المتلقى فهمه .

٩ ـ تميزت شخصية أدونيس بكثير من الصفات المعقدة التى تنم عن نفسية محطمة ترمى إلى التخلص من واقعها المحيط بها .

١٠ ـ لم تكن عملية الإنتاج الشعرى عند أدونيس إفرازاً تلقائياً من خلال الأحلام فى جميع الأحيان بل إن نسبة يعتد بها من شعره كانت تخضع للصفة الواعية التى يعمل فيها عقله على نحو واضح .

١١ ـ ستظل هذه الحركة التى أرادها أدونيس تعيش على هامش التجربة الشعرية العربية وأن تحتل الصدارة لأن تياراً قوياً من الشعر المضاد بدأ يندهش بقوة تسانده وحركة نقدية تمتلك الباعث القوى على التصدى .

١٢ ـ كرر أدونيس أفكاره على نحو جعلها فى حاجة إلى تحويل فأصبح تقليدياً يستحق عليه الثورة من أتباعه .

١٣ ـ إن أدونيس الذى أعلن الحرب على الأفكار الجاهزة هو أول من استوردها وكانت السريالية من أعظم مصادره .

وقد صور أفكارها على نحو ظنها أنها صارت من أفكاره ولم تكن مصادره محصورة فى النبع السريالى بل إنه لم يترك مصدراً مكنته ظروفه من الوصول إليه دون أن يفيد منه وفى أغلب الأحيان لم يكن يشير إلى المصدر الذى استقى منه استخفافًا بعقليات وثقافات المفكرين والنقاد والأدباء العرب أو ظناً منه بأنهم يعرفون تلك المصادر التى أخذ منها أ هـ .

ونذكر فى هذا المجال ما كتب عنه بشأن هذا الانتحال مثل كتاب (أدونيس منتحلاً)

لكاظم جواد جمع فيه أبيات من شعر أدونيس مأخوذة من ديوان النفرى والبسطامى ومن الغربيين بيرس وغيره .

وقد أشار أدونيس إلى تأثره الشديد بالمذاهب والأشخاص وهو يرى أن أعمق ما فى الشعر الفرنسى بالنسبة له هو جوانب التمرد على العقلانية والتقنية .

ويقول الكاتب اللبنانى بول ساوول :

إن أدونيس قلد بشكل ببغائى :

رينيه شار وسان جون بيرس وسطا على عشرات المقاطع للنفرى والمجالسى وهو الآن يسرق تجارب الشباب ، والمبهورون به هم الذين لا يعرفون الشعر الأجنبى ولا الشعر العربى وعندما بدأ السياب والبياتى وعبد الصبور كتابة الشعر الحر كان أدونيس لا يزال فى العصر الكلاسيكى فمن أين هى ريادته للشعر ، إن أدونيس كان يلهث دائماً وراء تجارب وريادات الآخرين ويصادرها بعلاقاته العالمية ، ليس هناك قصة أدونيسية ، طلعت السريالية فالتحق بها ثم الصوفية فتصوف ثم يأتى الاختزال فيقلد من يختزلون ثم تعود الكلاسيكية لتصبح تراثاً فيصبح تراثياً أميناً .

فإذا سئل عن الانتحال قال ببساطة إنه السرقة المشروعة وادعى اشتمال النصوص بعضها على بعض واستعارتها بعضها البعض وتحدث عن تلفيق المعانى أو ما يسميه « التناص » ولا يرى فى هذا الاتهام عيباً .

هامش : لقد نشأ الفكر الإسلامى منذ اليوم الأول لوجوده بعد نزول القرآن الكريم برسالة محمد ﷺ فى ضوء النهار كريماً سمحاً يملأ القلوب بالأمن والطمأنينة والرحمة ويفتح الأبواب أمام الخير ويقر الحق ويبطل الباطل وينشر من حوله الضوء مستمداً ذلك من الإيمان الصادق العميق بالله تبارك وتعالى ولذلك فقد كان فكره وأدبه وشعر شعرائه وكتابات كتّابه تسبح فى هذا الضياء لا يعرف الحقد ولا الظلم ولا القبح ولا يتوجه إلى الهوى ولا يجرى وراء الضلال .

« البرُّ هو ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك فى الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

فإذا جاءت أية دعوة تحمل لنا سموم الأحقاد أو الهوى أو القبح فإنها مرفوضة تماماً ولا تلقى لها وجوداً حقيقياً .

وأنت حين تقرأ لأدونيس أو عنه تخوض في وحل شديد وفي سموم وضلالات لا آخر لها .

ذلك لأن أفكار أدونيس هى مجموعة من سموم أفكار البشرية وضلالات الكارهين للإسلام وللدين ودعاة الأحقاد وإشاعة الفاحشة وإذاعة الفساد .

هى مجموعة أفكار قديمة وحديثة وباطنة قديمة جمعها من أساطير الشعوب وخرافاتهم وأفكار اليونان =

= فيما أسموه (علم الأصنام) ، وما تبناه بعد ذلك هيجل ودارون وفرويد وماركس وسارتر والماديون والرمزيون الفرنسيون والباطنية المستمدة من تراث ثورة الزنج والخوارج والقرامطة والحركات الإلحادية .

وهى أفكار لا تقر قيم الثبات بجوار المتغيرات وإنما هى تدعو إلى التغير المستمر وهو عندنا مقياس الكشف ومن هنا يظل العالم فى نظر الرأى الكاشف فى حركة مستمرة وتغير مستمر ، فالتصوف الدينى هو فكر منحرف يقوم على الفلسفات المادية ، وهو جماع الشعر المكشوف فى الأدب العربى والدعوة ضد القيم .

٢ ـ ودعوته إلى تجاوز الماضى واعتبار ذلك جوهر الحداثة والإبداع هو ضلال مبين ، فالتراث والماضى جزء من وجود الإنسان فى عقيدته الصحيحة .

٣ ـ وتجاوز جدار اللغة على نحو ما دعا يوسف الخال مستمداً من نعيمه إلى أدونيس بإلغاء حركات الإعراب واختصار بعض الأسماء الموصولة ، كل هذا هدم اللغة التى هى منطلق القرآن الكريم ، فإذا ذهبنا نحلل محاولة أدونيس :

تقوم مفاهيم أدونيس التى تشكل دعواه على جماع متناقض من العلمانية والماركسية والشعوبية وإحياء الوثنيات والأساطير وإحياء كل شخصية متآمرة ، وهدم عمود الشعر ، وهدم اللغة العربية ، وهدم الثوابت .

ومفهوم الشعر عنده مفهوم غامض ، أحلام ، تفجرات ، رؤى غيبية خادعة ، إنما يعود فى مجموعه إلى فلسفات بروتوكولات صهيون وهو تطبيق لها يخدم هدفه من خلال عدة قوى أهمها الجامعة اليسوعية واليونسكو ومحافل الماسونية وتوابعها وهناك تركيز خطير على اللغة العربية لأنها حاملة القرآن وهو يسميها لغة القرشيين وهذا تضليل ، فالعربية لغة كل العرب والمسلمين الذين يقرءون القرآن .

وهناك هدفه إلى هدم النوابغ والأعلام الأصلاء .

وإحياء تراث القرامطة والمتصوفة الفلسفية وليس التصوف السنى ويولى اهتمامه تراث الرازى وابن الراوندى وابن رشد ، وعلى رأس ذلك إحياء تراث القرامطة والزنج .

ومن أخطر دعاويه ما يسميه تجاوز الماضى وتجاوز جدار اللغة ودعوته العريضة إلى فصل الدين عن الحياة الاجتماعية وإقامة مدنية على غير قاعدة الدين .

والحملة أساساً موجهة إلى ثلاث قمم : الدين واللغة والتراث .

وأبرز معالم أسلوب أدونيس المراوغة والتناقض فيجيب عن السؤال الواحد بأجوبة متعددة ، وآراؤه قائمة على الهدم والتمرد والهجوم على الأمة الإسلامية والحضارة الإسلامية وإعلاء شأن الحضارة اليونانية .

وأخطر مفاهيمه ما يسميه تفجير اللغة ، وتفجير الشعر وقد كانت رحلته من الحزب القومى السورى إلى تأييد إسرائيل واضحة .

فإذا ذهبنا نحلل محاولة أدونيس نجد أنها عملية ملفقة تخلط بين العلمانية والتصوف ، وبين الماركسية والليبرالية وهو يشجب تاريخ أهل السنة كاملاً ويدعو إلى إحياء الوثنيات والأساطير .



أَرْكُون
وَجَمَاعَةُ الفرنكفونيَّة

لم تتوقف الحملة على الإسلام يوماً واحداً منذ بزغ نجمه ونزل قرآنه ونادى محمد ﷺ إلى التوحيد الخالص دعوة عالمية للناس كافة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فقد وقف أعداء الحق أمام هذا النور الساطع فى محاولة لإطفائه ظانين أنهم قادرون على ذلك وخدعتهم نفوسهم .

﴿ يُريدونَ أن يُطفئُوا نورَ الله بِأفْواهِهِم ويَأبى الله إلا أن يتمَّ نُورَه ولَو كَرِه الكَافِرُونَ ﴾ [سورة التوبة : الآية ٣٢] .

وقد انهزمت كتابتهم وماجندوا وحشدوا وما يزالون فى كل عصر على موقفهم بالرغم من الضربات الحاسمة التى واجهتهم فحطمت بنيانهم ودمرت وجودهم وتوالت الموجات متصلة لا تتوقف ، لقد تعاقدت قوى الشر جميعاً وتناصرت وما زالت تتآمر وتتخذ فى كل أمر موقفًا سنين طويلة وتاريخًا ممتداً حتى جاءت الصحوة الإسلامية فى العقود الأخيرة وانفتح الباب من كل جوانبه : انفتح فى الأمة الإسلامية نفسها وانفتح فى الغرب نفسه حيث دخل فيها الأعلام والنوابغ وكان ذلك أخطر ما واجه التغريب والغزو الثقافى .

لقد أثارت الصحوة مزيداً من الأحقاد والشنئان على نحو تجمعت فيه كل قوى الاستشراق والشعوبية والباطنية والغرب كله بمذاهبه ومؤسساته للعمل ضدها .

وكانت خطط العلمانية والشيوعية والليبرالية تجدد خططها من خلال بروتوكولات صهيون ومخططات الماسونية المتجددة أمراً خطيراً حتى إنها أحيت ما انتهى وأغرت من هزموا ليعودوا مرة أخرى إلى حلبة القتال فكان لهم فى كل مكان « موسم » أعادوا (أدونيس) بعد أن اختفى وصدروا (أركون) بعد أن هزم وأقاموا فى المغرب محفلاً وفى المشرق محفلاً آخر واحتشدت كل صحف الماركسيين والعلمانيين لتوقد نارها مرة أخرى حول الإسلام كلما تتحدث عن الحداثة والعلمانية .

ولم تتوقف الحملة على الإسلام أو القيم الإسلامية ولكن أوغلت المحاولة إلى خطوط أشد بأساً وظلمة فقد حملوا على المسلمين الجدد فى الغرب ، وعلى جارودى وبوكاى

بالذات وامتدت الحملة من الفكر الإسلامى إلى القرآن نفسه وتركزت عليه على النحو الذى أوغل فيه أركون .

ولقد تبين بوضوح أن دعوة المسلمين إلى الدراسة فى جامعات الغرب لم تكن إلا محاولة لكشف شباب مسلم نقى السريرة لا يعرف الأحقاد ولا المؤامرات ولا الخداع لتحويله إلى خدمة الطاغوت والجرى وراء البريق ، ولو درى لعرف أنه إنما يحطم أمته ويحطم مجتمعه ولن يكسب إلا الفتات القليل .

هذه هى الحملة الجديدة الخطيرة التى تتحرك بقوة وفى ميادين مختلفة وبوسائل متعددة وبإغراء لأسماء لامعة كلها ترمى إلى الوقوف فى وجه الصحوة الإسلامية من ناحيتين : من ناحية الأمة الإسلامية نفسها ومن ناحية الأعلام الأوربيين الذين يدخلون فى الإسلام .

حيث يجرى إغراء وخداع أبناء الإسلام البسطاء الذين كانت مناهج الاستعمار قد عملت على حجبهم عن مفاهيم دينهم ولقد جرت المحاولة شوطاً جديداً فى محاولة التأثير على الصحوة الإسلامية ومقاومة تناميها وامتدادها .

وتبدو هذه المحاولة فى النظر من بعد إلى هذا المخطط المسموم الذى تواصله القوى المضللة عن طريق خداع المسلمين عن حقائق الدين الحق فى دعوة مضللة إلى مساواة الأديان على نحو ما هى اليوم موجودة ، وذلك لإغلاق الباب دون الكشف عن التحولات التى حدثت فى الدين الحق المنزل بالوحى وكيف فعل به رؤساء الأديان وكيف جاء الإسلام والدين بعد ستة قرون ليكشف هذه الحقائق عما فعل الأحبار والرهبان فى أمر التوراة والإنجيل وكيف دخلت إلى الدينين الفلسفات اليونانية المادية الإباحية لتخريبها ولقطع الطريق بينها وبين الإسلام الذى هو الخطوة التالية بعد الدين الذى جاء به موسى عليه السلام والذى جاء به عيسى عليه السلام .

وما قررته الأديان كلها من أن الإسلام هو الدعوة الخاتمة وما حملته صحائف التوراة والإنجيل من التبشير بالنبى الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ .

لقد كانت الصحوة الإسلامية هى مصدر هذه الحملة الجديدة التى جند لها النفوذ الأجنبى كل القوى وطرح آخر ما يملك من خطط المؤامرة ممثلاً فى العلمانية والحداثة ودفع إليها أسماء وخطط مثيرة من خلال تيار علمانى ماركسى باطنى يعتمد على الفلسفة

الأوربية والفرنسية بالذات وكانت القاعدة الأساسية لها هى الماركسية الشيوعية التى انتقلت من النظرية إلى الواقع بعد الثورة البلشفية فى روسيا ، ثم انتقلت العدوى إلى شتى بلدان العالم تقليداً للثورة ورغبة فى التحرر من الواقع المكبل ، ثم لما خفت بريق الثورة وزالت صدمة الحدث ظهرت الماركسية الجديدة فى أوربا ثم لما أفل نجمها ظهرت (البنيوية) ثم تلتها الوجودية مع جان بول سارتر لتحل محلها الفلسفات المعاصرة التى برق نجمها بعد انتفاضة ١٩٦٨ بفرنسا حيث ظهر (ميشيل فوكو) إلى آخر المذاهب الصهيونية والصليبية.

وكان للكُتّاب المغاربة واتصالهم بالوسط الثقافى العلمانى فى فرنسا وجامعاتها وتلقف الشرقيين والمسلمين لكى يكونوا عصابة تخدم الفكر العلمانى .

وكان هناك العمل الخطير الذى تقوم به الثقافة الفرنسية فى البلاد التى تتكلم الفرنسية وهو ما أطلق عليه (الفرنكفونية) .

كل هذا استدعى ضرورة احتواء الشباب المسلم فى عقيدة جديدة يتولاها عرب ومسلمون وكان أغلب الذين تصدروا لذلك ماركسيون وباطنيون وشعوبيون وهم علمانيون من أساتذة فلسفة واجتماع وعلوم إنسانية ومن هؤلاء :

١ ـ الدكتور طيب تنزينى : سورى يعتمد على الماركسية كمذهب وعلى المادية التاريخية كمنهج .

٢ ـ الدكتور حسين مروة : باحث لبنانى صدرت أطروحته من جامعة موسكو عن (النزعات المادية فى الفلسفة الإسلامية) .

٣ ـ الدكتور حسن حنفى (التراث والتجديد) وهو من أبرز منظرى اليسار الإسلامى .

٤ ـ الدكتور محمد عابد الجابرى (نقد العقل العربى) ينطلق من منهجية مادية لكن مختلفة عن منهجية طيب تنزينى وحسين مروة ومعتمده على أفكار المدارس الفكرية الفرنسية الحديثة فى ميدان العلوم الإنسانية .

٦ ـ الدكتور محمد أركون الذى تقدم صفوف هذه العصابة وقد صدره طعنه فى القرآن والإسلام حيث وصف الخطاب الإسلامى بالردىء والمبتذل .

ولقد تصاعدت عملية التآمر على الإسلام والقرآن على نحو أكبر بعد سقوط الماركسية وتقويض الدولة الشيوعية .

مخطط أركون
إعادة القراءة للقرآن

يتمثل مشروع أركون فى مجموعة من الخطط المضطربة المختلطة التى لا تقوم على أساس صحيح والتى تقدم للقارىء دون أن تكشف عن الدليل الذى يؤيدها أو يقنع بها قارئها .

وأركون عربى مسلم فى الأصل ولكنه لا يعرف الكتابة بالعربية وإنما يكتب بالفرنسية وقد نصبوه قائداً للفكر الإسلامى لمقدرته على إعادة تقديم سموم الاستشراق إلى القارىء من جديد وهو من أقدر المفكرين العرب على إعادة التراث الاستشراقى ويكرر مقولاته والادعاء بأنه مصلح يدعو إلى تجديد الدين .

وهو يصدر فى الأساس من تأييد الصهيونية والماسونية والاستشراق والتبشير والعلمانية ويحاول أن يضع القرآن فى صف التوراة والإنجيل الموجودين الآن .

وقد أكد الذين عرفوه عن أن آراءه وتعبيراته قاصرة ومصطلحاته الفرنسية والأجنبية متداخلة بحيث لا يمكن أن تكون بسبيل إقناع أى عقل مسلم أو عربى .

وقد وضح تماماً أن أبرز أعمال أركون هى :

أولاً : مواجهة انتشار الإسلام فى الديار الغربية .

ثانياً : تشكيك جمهور المسلمين فى دعاته وعلمائه .

ثالثاً : إثارة الشكوك حول جمع القرآن .

رابعاً : إثارة الشكوك حول حجية السنة النبوية .

خامساً : إثارة الشكوك حول الفقه الإسلامي وقواعده .

سادساً : تمجيد الخوارج والمعتزلة والقرامطة .

وهو يعتمد فى عرض وتفسير الأحداث على الشخصيات القلقة فى التاريخ الإسلامى .

وتؤكد آراء أركون عن القرآن خصومته العميقة للإسلام وبراعته فى نقل آراء المستشرقين الغربيين المتعصبين وسردها فى نهج واحد فى محاولة لإثارة الشبهات فى نفوس من يقرأها .

ولا شك أن أول من تصدى لوضع الإسلام والقرآن فى دائرة الشك الفلسفى هو عميد الأدب العربى طه حسين .

وتتركز سموم أركون عن القرآن فى عدة مواضع :

١ ـ منها مقولة أن القرآن كما فى الأناجيل ليس إلا مجازات عالمية تتكلم عن الوضع البشرى وأن هـذه المجازات لا يمكن أن تكون قانوناً واضحاً أما الوهم الكبير فهو اعتقاد الناس ، اعتقاد الملايين بإمكان تحويل هذه التعابير المجازية إلى قانون شغّال وفعّال ومبادىء محددة تطبق على كل الحالات وعلى كل الظروف .

وهذه مقولة باطلة لا يمكن أن يقولها مسلم ، ولا شك أن أركون من خلال هذه العبارات يمثل أحد العلمانيين والملاحدة الذين لا يؤمنون برسالة محمد ﷺ ولا بالقرآن المنزل من عند الله تبارك وتعالى .

فالقرآن الكريم شريعة قائمة بذاتها تختلف عن ما سبقها من الشرائع وهى محددة المواقف الحاكمة بعيداً عن المجازات ولا يمكن لعاقل مسلم أن يقول عن القرآن كلمة الله الغالية الحاكمة إلى يوم القيامة بأنها مجازات ، ومن فساد الرأى أن ينكر مسلم قوانين الله وشريعته الخالدة .

٢ ـ مقولة : أن القرآن الكريم ليس إلا جزءاً من التراث العربى الإسلامى بصفة خاصة والتراث الإنسانى بصفة عامة ومن ثم فينبغى دراسته لا بكونه وحياً سماوياً منزلاً وقانوناً ربانياً مرسلاً ولكن بكونه تراثاً ثقافياً ساهمت فى بلورته حضارة شعوب خلت وفكر مجتمعات مضت ، تراثاً ناتجاً عن صراعات ثقافية وفكرية وسياسية لتلك الشعوب والمجتمعات كتعبير عن خلاصة ونتيجة ذلك الصراع وأذان بانتقال الأمة من عصر الطمطومية والآلهة المتعددة إلى عصر التوحيد وبهذا الشكل نكون قد ورثنا القرآن الكريم عن السلف كما ورثنا المعلقات والمقامات يؤخذ منه ويرد ويعارض وينقد أ هـ .

ومن العجب أن ينقل مسلم مقولة مستشرق ضال فيقدمه للمسلمين خادعاً إياهم أنه

منهم ، ومن أعجب العجب أن يقال إن القرآن تراث أو أنه ليس وحياً سماوياً أو قانوناً ربانياً وقد أنزله الحق تبارك وتعالى على رسوله ﷺ ولم يكن من إسهامات البشر أو الحضارات والشعوب ، وأن الإسلام لم يكن أول دعوة التوحيد التى بدأت مع أول الأنبياء وامتدت مع جميع أنبياء الله ورسله صلوات الله وتسليماته عليهم جميعاً حتى جاء خاتماً لرسالات الأنبياء وهى غير التراث البشرى والمعلقات والمقامات .

كذلك فيجب أن يفرق المسلم بين القرآن والكتب السابقة التى تغيرت عن نصوصها الأولى .

٣ ـ من دعاوى أركون : دعوته إلى تعديل الآية القرآنية ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ﴾ [سورة النساء : الآية ١١] ، وذلك من خلال مفهومه المغلوط بأن الشريعة هى استنباط قام به المسلمون والحق أن الشريعة من عند الله ولكن الذى جاء به العلماء هو الفقه .

وليس صحيحاً أن الشريعة هى نتيجة مجهود أو أن كلام الله تبارك وتعالى خاضع للتغيير أو للمراجعة .

٤ ـ من دعاوى أركون الادعاء على القرآن والادعاء على النبى ﷺ فيما يضلل به الناس حين يقول :

إن النبى ﷺ تكلم خلال عشرين عاماً بصفته مبعوثاً من قبل الله (القرآن) وفى الحالة الثانية تكلم بصفته الشخصية كقائد لهم (الحديث) .

والواقع أن هذه مقولة فاسدة ذلك أنه لم يحصل هذا الانفصال فى الزمن بين نزول القرآن وحديث النبى ﷺ فقد امتد نزول القرآن فى كلا المرحلتين ولم يتوقف ، ولم يكن الرسول ﷺ يتكلم بصمته الشخصية بل كان مرسلاً بالوحى وقد نزل عليه بالمدينة تشريع المجتمع والنظام العام للدولة الإسلامية .

* * *

ولعل أخطر أعمال (أركون) بعد محاولته التى ركز بها على إثارة الشبهات حول القرآن الكريم كتاب الله والوحى المنزل هو محاولة إحياء الفكر الذى تشكل فى أفق الفكر الإسلامى بعد ترجمة الفكر اليونانى ويبدو ذلك واضحاً فى كل كتاباته حيث يشير ويطلب

العودة إلى القرنين الثالث والرابع الهجرى وإحيائها بوصفها المنطلق الحقيقى لتجديد الفكر الإسلامى .

والواقع أن هذه المرحلة التى يركز عليها (أركون) هى مرحلة الاضطراب الشديد الذى أصاب الفكر الإسلامى بعد ترجمة الفكر اليونانى وظهور دعوات الباطنية والزنج والقرامطة والتصور الفلسفى وهو نفس التراث المسموم المضطرب الذى تناوله أدونيس من خلال دعوته إلى الحداثة والشعر ، يدعو إلى تناوله (أركون) من خلال النثر حيث لا يفرق بين التراث الأصيل والتراث الزائف وهو يدعو إلى ذلك فى إطار دعوته الخطيرة إلى :

تخليص المجتمع من سيطرة الدين أو بالأحرى من المحتوى المرتبط بعصر مضى وتجديد علمانية جديدة فى أسلوبها ، ويقول إنها تلك هى المهمة العاجلة الضرورية ، هذه العملية فى التركيز على الفكر الإسلامى فى فترة ترجمة اليونان يهدف إلى إحياء مؤامرة خلق القرآن وانحراف المعتزلة وإحياء وحدة الوجود والحلول والإشراق ورسائل إخوان الصفا وفكر القرامطة والزنج .

ويقول فى هذا الصدد من باب المراوغة :

إن مسألة الفكر الإسلامى ينبغى أن يعاد فيها التفكير ضمن منظور تاريخى إنه ضرورى قبلاً التوفيق بين الإسلام والفكر العلمانى الذى ظهر فى القرن ١٦ الميلادى على يد لوثر .

إن هذا الخلط الشديد الذى يدعو إليه (أركون) يرمى إلى خلط كل الأوراق فى محاولة لتزييف أصالة الفكر الإسلامى ، لقد تبين أن مهمة أركون هى نقل سموم الاستشراق التى يكتبها الغربيون ملاحدة ويهود إلى أفق الإسلام .

وهو فى هذا العمل يسعى إلى هدف لن يتحقق لا عند العرب والمسلمين الذين يقودون الصحوة إلى طريقها الصحيح ، ولا عند الأوربيين الذين دخلوا الإسلام وآمنوا به .

وكل ما يقدمه أركون واضح الضلالة والسقوط .

ذلك أنه لم يستطع أن يكسب ثقة القارىء على كلا الجانبين أولاً لأنه لم يشترك بأى وسيلة فى الحرب الجزائرية التى شنها الجزائريون على النفوذ الفرنسى فى سبيل تحرير الوطن.

وأنه يعمل على حرب الكتاب الغربيين المعتدلين الذين يقولون كلمة حق وهو ينادى بكل ما يرفضه المسلم .

١ ـ دعوته إلى إلغاء الجهاد وإنكار الشريعة .

٢ ـ تعظيم شأن اليهود والولاء للصهيونية .

٣ ـ وصفه تاريخ الأديان السماوية بأنها تاريخ أسطورى (بما فيها الإسلام) .

٤ ـ مهاجمته العلماء الأوربيين الذين دخلوا الإسلام وفى مقدمتهم بوكاى وجارودى .

كما أكد ناقدوه (وفى مقدمتهم الأستاذ محمد بريش فى دراسته المستفيضة) بأنه يعمل على المغالطة فى تقديم النصوص الأساسية .

* * *

سقوط مشروع أركون سقوطاً شديداً

الواقع أن مشروع أركون ساقط لأنه لا يقدم للمسلمين إلا مراوغات مضللة تتمثل فى عدد من المغالطات :

أولا : المغالطة فى تقديم النصوص الأساسية ، ومغالطة أركون وادعاءاته كما ادعى على الإمام الشافعى عن كتاب الرسالة بأنه حصر العقل الإسلامى ضمن منهجية استراتيجية لإبطال التاريخية .

ثانياً : الترجمة الركيكة لآراء محمد أركون واستعمال مصطلحات أجنبية متعددة والصادرة عن عجزه فى الفهم وقصوره فى اللغة العربية .

وهذا ما يدفعه إلى رد الفعل حين يحشد مجموعة من الكتاب الفرنسيين ومعهم العربى المسلم : بلاتشى ، كلير بيرر ، جون دانيل ، جاك جوليار .

ولقد أدى هذا الولاء للمستشرقين المتعصبين من قبل أركون إلى الهجوم على إطلاق عدد من الألسن المعادية للإسلام من فرنسيين وغيرهم وإن تهمة أركون أنه يردد ما يقوله المتعصبون من الخوف من انتشار الإسلام بديارهم .

ثالثاً : التركيز على العلمانية وإقحامها فى التغريب والغزو الفكرى مدعياً أن التجربة العلمانية التركية تستحق اهتماماً فكرياً فى نطاق الفكر الغربى .

وهو يدعى أن العلـمـانيـة تعـتبـر ثورة عظمى فى تاريخ الفكر الإنسـانى للوصـول إلى المعرفة .

وينطلق إلى التركيز على العلمانية فى المحيط الإسلامى من إحياء الفلسـفـة القـديمة والفكر اليونانى وما تركه على ساحة الفكر الإسلامى من آثار خطيرة فى مجال التصـوف الفلسفى وعلم الكلام وخلق القرآن وإحياء تراث وحدة الوجود والحلول وغيرها ، إنه يرى أن ذلك كله هو منطلقه لفرض العلمانية على الفكر الإسلامى .

وهى محاولة باطلة وزائفة ، ذلك أن الإسلام هو النظام الأصيل والمنهج الجامع بين المادة والروح والعقل والقلب والدين والسياسة ، ولا يمكن قبول المفـهـوم الغربى لهـا لأنه مفـهوم وثنى إلحادى مرتبط بالثورة التى قام بها العلمانيون ضد سيطرة الكنيسة من حيث عجزها عن تقبل أصالة الإسلام .

والواقع أن كل هذه القضايا التى يثيرها (أركون) اليوم فى العقد الأخير من القرن العشرين قد أثارها طه حسين ، وعلي عبد الرازق وخلف الله وغيرهم فى محاولة التشكيك فى ربانية القرآن الكريم ، وتقديم مذهب الشك الفلسفى لإقامة بشرية القرآن ، وهى محاولة باطلة ومضللة .

وقد جرت المحاولات بإحياء تراث الزنادقة وعمل أطروحات عنهم فى جامعات الدول العربية التى سادت فيها مفاهيم الماركسية وقد كان (أركون) فى مقدمة العاملين فى هذا الميدان حيث كانت أطروحته حول (مسكويه) المعروف بولائه للمذاهب الإلحادية التى جاءت بها ترجمات الفكر اليونانى .

ويعد أركون من أكبر دعاة التغريب والغزو الثقافى بجوار صعاليك الشيوعية والزنادقة وعملهم .

وإذا كانت الصحوة الإسلامية يمكن أن توصف بوصف جامع فإنها قامت لتأكيد الترابط بين الدين والدولة وبين السياسة والمجتمع وإنها تحطم كل ما يقال فى سبيل فتح طريق إلى العلمانية فى الأمة الإسلامية .

رابعاً : وإننا لنتساءل لماذا يركز (أركون) على التراث الإسلامى فى القرن الثالث والرابع الهجرى وهو يعلم أنه تراث مضطرب مخضب بدماء (علم الأصنام) وفكر اليونان

فى إباحيته وإلحاده ، وهو مرتبط بحركة المعتزلة وطرحها مؤامرة خلق القرآن وصدور رسائل إخوان الصفا وحدوث ثورات القرامطة .

كل هذا التراث المسموم الذى يركز عليه جماعة أدونيس وجماعة أركون إنما يهدف إلى طرح هذه المفاهيم مرة أخرى فى أفق الفكر الإسلامى اليوم بل إنه يربط نفسه بابن سينا والرازى .

يقول أركون انبعثت فى الإسلام نزعة إنسية (إنسانية) ذات تكوين علمى وذلك فى العصور الوسطى ولكن هذه الإنسية أجهضت بدءاً من القرن الحادى عشر الميلادى لأسباب تاريخية يمكن تحليلها ومعرفتها ، وهذا ما يتطلع إليه أركون وأدونيس مستخدمين بعض المصطلحات التى احتشدت بها كتب الزنادقة الذين ألغوا فى مجالات الكلام أو اللاهوت أو الباطنية متخذين من قضية (التأويل) منطلقاً منهم لهدم الأسس الثوابت .

خامساً : غموض أركون فى آرائه وغيبة الدليل .

فأركون لا يكتب بالعربية وهو العربى ، ولكنه يكتب بالفرنسية ويترجم له وتأتى ترجماته مضطربة شديدة الاضطراب تختلط فيها الكلمات العربية بالمصطلحات الفرنسية والإنجليزية على نحو يفقدها قيمتها إذ إنه ليس مطلوباً من كل قارىء أن يكون ملماً بأسماء المذاهب والمصطلحات والقيم الغربية ، وحتى يمكن أن يصل إلى القارىء فإن هناك بوناً واسعًا يحتاج إلى كثير من الشرح والتفصيل حتى يجد القارىء ثقة فى النص المضطرب .

إن استخدام مناهج الغرب الحديثة وعلومه المستمدة فى ميادين الانتربولوجيا واللسانيات والتاريخ فإنهم يعجزون عن أن يصلوا بالإقناع إلى عقول المسلمين متوسطى الثقافة إذ خلطت هذه الكلمات مع الأسلوب العربى البسيط .

ويرى الباحثون أن (أركون) يتعمد هذا الأسلوب ويصدر عنه من خلال كراهية شديدة للغة العربية والقرآن والإسلام .

(إن أركون يكتب لجمهور غير عربى فى إطار استشراقى يسعى الغرب من خلاله إلى تعزيز وتكريس مفاهيمه ومدلولاته الاستشراقية الحديثة التى تساهم فى توجيه الفكر الإسلامى المعاصر إلى وجهة تحول دون خدمة إعادة بناء الذات الإسلامية) ، ومن منطلق

هذا الغموض تأتى ترجماته للقرآن مضطربة مشوهة لنصوص القرآن والحديث بصفة خاصة والتراث الإسلامى، وذلك أثر الاستشراق بل بأثر الجانب الأكبر الأكثر سواداً من هذا الاستشراق .

(من ذلك تبريره لإدخال أفكار المستشرقين المتعصبين فى الفكر الإسلامى بمكيال فاق كل المقاييس) .

سادساً : إدخال مفاهيم المستشرقين المتعصبين فى الفكر الإسلامى .

إن ضرب القرآن مقصود وإبطال الشريعة ونسف الإسلام هدف منشود .

ومن ذلك قوله : إن القرآن يحمل العلمانية فى طياته وإن الدولة الأموية والدولة العباسية هما دولتان علمانيتان .

يقول الأستاذ محمد بريش فى دراسته الضافية عن أركون وفكره :

(يتجلى منذ اللحظات الأولى لقراءة الإنتاج الأركونى أن ضرب القرآن مقصود وأن إبطال الشريعة ونسف الإسلام هدف منشود .

الهدف هو تلبيسه على الأذهان والعقول المتعطشة للنقد بعد الجفاف الروحى والعقدى الذى اكتسح طائفة من شبابنا المستلب .

سابعاً : أكبر أخطاء أركون هى نقده للقرآن الكريم ، وتلك قضية قديمة كان قد حاولها طه حسين وخلف الله وغيرهم وترجع الجرأة على كتاب الله من شخصيات غلبت عليهم الزندقة ، ويجرى أركون هذا المجرى إلى آخر الشوط حيث يطالب أن يدرس القرآن كأنه كتاب بشرى .

ومن أكبر أخطائه أن يقول إن القرآن لا يفرض حلولاً نهائية للمشاكل العملية للوجود الإنسانى .

ومن أخطائه مقارنة الحدث القرآنى بالحدث التوراتى والحدث الإنجيلى دون النظر إلى تاريخ الكتب المقدسة وما أصاب التوراة والإنجيل من تحريف .

ولا شك أن دعوة أركون إلى عزل الدين عن الفكر الإسلامى والثقافى عامة دعوة مضللة ساقطة إذ إنه لا يمكن عزل الجزء عن الكل ، فقد قام الفكر الإسلامى على أساس

الإسلام ومن خلاله وعلى قيمه فكيف يمكن فصل الدين عن الفكر الإسلامى .

إن الهوى الذى يملأ قلوب العلمانيين هو الذى يصدر على ألسنتهم وأقلامهم وكأنه أمانة أو حقائق وإلا فكيف يمكن الحد من سلطة الدين وإفساح الطريق إلى العلمانية لمنهج ربانى وضعت أسسه منذ أربعة عشر قرناً وسارت عليه الحضارة كل هذه العصور وكيف يمكن أن يعتبر هؤلاء الزنادقة والمنحرفين قادة للفكر الإسلامى من أمثال ابن مسكويه أو أبو حيان التوحيدى أو غيره ، إن دعوى العقلانية هى أخطر المفاهيم إذ كيف يمكن إقامة منهج المعرفة الإنسانية على جناح واحد هو العقل .

وإنكار الجناح الآخر الأكثر أهمية وأصالة : الروح والوحى والغيب ، إن الكائن الإنسانى نفسه مركب من العقل والعاطفة ولا يستطيع أن يقوم بأحدهما منفرداً .

ثامناً : لم يدع أركون محاولة فى سبيل هدم أصالة الفكر الإسلامى إلا عمل لها وأذاعها ، وكان أخطر ما دعا إليه إحياء الأسطورة واعتبرها إحدى محركات التاريخ الأساسية .

أما دعوته في الحملة على الوحي (أو الدين) على نحو ما دعا نيتشة وفرويد وكارل ماركس فقد سقطت وكتب كثير من المنصفين يدحض هذه الشبهات بما يتفق مع ما جاء به الإسلام ، فلماذا يميل مسلم مثل (أركون) إلى جانب الشك والخطأ والزندقة .

تاسعاً : اعتمد (أركون) على المصطلحات الغربية فى شرح قضايا إسلامية لا صلة لها بها : الابستمولوجية (الانتربولوجيا) الكلاسيكية ، الأرثوذكسية .

وهو بالتأكيد كما ورد فى أبحاث كثيرة أنه يسعى إلى :

١ ـ تقديس المهمش من الثقافات السابقة .

٢ ـ تضخيم الخلافات التاريخية ونشرها وإذاعتها .

٣ ـ التشكيك المستمر فى إخلاص مجاهدى الأمة الإسلامية وأبطالها وهو يرى أن مسألة المصطلح لا تنتهى بقول ويسبقنا واضعو المصطلح بالغرب إلى مصطلح بنفى الآخر ويعتبره من عداد التاريخ ونحن فى صراع حول المفهوم المتولى عنه ليسقط .

عاشراً : يؤكد مؤرخو الفكر الغربى العلمانى الذى تشترك فيه عصابة الإلحاد أن أكبر

أخطاء أركون فى كتبه كلها : التركيز على شرح الشكوك شرحاً واسعاً دون الإدلاء ببرهان واحد أو دليل ـ ولو بسيط ـ لمقولاته .

كما يتحدثون عن سرعة الاستنتاج عنده حيث يفصل مع التطويل شرح احتمالات يفترضها أو شكوك يثيرها أو قضايا عامة يسردها ثم يختصر فى البحث استنتاجات خطيرة يمر عليها سريعاً بحجة عدم الإطالة ومن ذلك اعتماده فى دراسة كتاب الإتقان فى علوم القرآن وهو يزيد على (١٥٠٠) ألف وخمسمائة صفحة بدراسة فهرسته فقط ، وهو فى كل دراساته يبحث عن التهم التى يمكن أن تلصق بالقرآن والسنة والشريعة والتى تفتقر إلى الحجج والبراهين .

* * *

ولعل من أخطر تصرفات أركون موقفه الخطير فى الهجوم على عالمين نابغين هما جارودى وبوكاى اللذين أسلما وقدما للإسلام أعمالاً خصبة فى مجالى الحضارة والعلم جميعاً.

فهو يحمل عليهما فى حقد شديد ويتهم جارودى بأنه لا يعرف الإسلام ولعل هذا العمل من أركون يؤكد صلته بالقوى التغريبية التى دفعته إلى العمل لتدمير وجود المسلمين فى أوربا بإثارة الشبهات القديمة وبعمله بالنسبة للمسلمين فى مواجهة الصحوة التى هزت كل مقدرات العلمانية والتغريب جميعاً .

فأركون يثبت بحملته على جارودى وبوكاى أنه إنما يريد أن يؤدى دوراً لخدمة الاستشراق والتغريب ، ولكن نجاح جارودى وبوكاى يهزم هذا الرجل الذى دمر عمله فى نفس الوقت الذى كسب الإسلام عطاء عالمين حقيقين قدما إلى الإسلام عطاءً جزيلاً .

الغموض والمراوغة

لقد نشر المستشرقون فى الأغلب ستين ألف كتاب تناولوا فيها الإسلام والقرآن والسيرة والفقه الإسلامى على درجات مختلفة من التعصب والاعتدال ، وكانت مواقعهم مختلفة بين من كان منهم يهودياً أساساً ومن كان نصرانياً ومن كان علمانياً أو ملحداً لا يقر بهذه الأديان .

ولقد حاول الرواد الأول الذين ذهبوا إلى أوربا فى الثلاثينيات أن يتناولوا بعض هذه القضايا فى خوف وتراجع ، ونجد خيوطاً من هذه الكتابات التى كتبها (أركون) ونقلها من المستشرقين الأصول التى نقل عنها طه حسين وبعض كتابات زكى مبارك وخلف الله ، ولكن هذه السموم تجىء اليوم جريئة مندفعة قد تكونت لها أرصدة من الذين اعتنقوها ويدرسونها فى الإرساليات والمعاهد والجامعات ، وكانت قضية الأساطير واضحة منذ اليوم الأول وإعادة الأساطير إلى السيرة وكان البحث عن زنادقة القرن الثالث والرابع الذين شكلتهم ترجمة كتب اليونان موجوداً ، ولقد مضى أركون على هذا الخط وبعد أن كانوا يتناولون الأمور مجملة حين يتحدث طه حسين عن الكتب القديمة ونقدها ، يجىء اليوم أركون ليتحدث عن نقد القرآن ، ويحاول أن يجمع بين الكتب المقدسة وبين القرآن دون أن يذكر مدى صلة هذه الكتب بالمنزّل منها ، بينما عرض هذا كثير من الباحثين الغربيين الذين أكدوا أن التوراة والإنجيل من كتابات البشر وأنها ليست الكتابين المنزلين أساساً .

ويركز أركون فى حملته على نوع معين من المستشرقين وهم الذين يؤيدون الإسلام لأنهم حسب ظنه منافقون ، فهو أكثر إيماناً بالاستشراق أكثر من الغربيين أنفسهم .

وهو يعنى بالقضايا المختلطة مثل قضية جمع القرآن الكريم ، وحجية السنة ، وأصول الشريعة الإسلامية ، وهى القضايا نفسها التى خاض فيها دون جدوى المتعصبون ضد الإسلام من جمهور المستشرقين والمعروف أن طه حسين هو الذى فتح لهم أبواب السيرة والأساطير من السيرة إلى الحوار .

أما أركون فإنه يعمل على إعادة جمع المسرحيات التى سبق لأهل الاستشراق المتعصبين منهم ضد الإسلام أن مثلوها على مسارحهم الفكرية شرقاً وغرباً حيث يطمع فى إعادة إخراجها اليوم مع تعديلات فى الديكور والحوار (محمد بريش) .

ولقد أعلن فى أكثر من مناسبة أن مهمته هى إخصاب نماذج المستشرقين وهما عملان أو قولان جاءوا به ليعمل ما لا يستطيعون عمله ، أولهما مواجهة انتشار الإسلام فى الديار الغربية ثم سلطوه على المدافعين عن الإسلام من الغربيين .

وأغلب كتاباته تساؤلات وتشككات وتكرار سبق أن أثاره مستشرقون من قبل بأسلوب أكثر لباقة وأقل جرأة .

فيقول : (لا يمكننى التعبير عن ولائى لهم إلا بالمضى فى العمل على إخصاب نماذجهم) .

وهو واضح فى تحامله على من أسلم من مثقفى الغرب وعمل على نشر الإسلام به وتحرك من أجل ذلك أمثال روجيه جارودى وموريس بوكاى وكذلك على المقسطين من أهل الاستشراق ، ومؤسسة الاستشراق تعد (أركون) من أكبر الرواد لما يمكن تسميته بالاستشراق العربى .

وهذه نماذج جديدة يخرجها الاستشراق والتغريب هو إيجاد مستشرقين مسلمين ، إن كتبه ومقالاته ونصوص محاضراته تطرح القضايا نفسها التى يطرحها الاستشراق من جانبه المتعصب بمزيد من التساؤلات وإثراء فى التشكيكات بل أبعد من ذلك .

حتى يمكننا القول إن أركون يمثل منهجاً جديداً من الشك الفلسفى أخطر مما وصل إليه طه حسين ومن بعده .

ولقد تعهد (أركون) فى مقدمة أطروحته للدكتوراه أنه سيلتزم السير على نهج أهل الاستشراق وخطاهم وسيعمل على السعى لتوليد نماذجهم لولا الصداقة الفعالة لم يكن لهذا العمل أى مبلغ حسن عند كلود كالين ، لوى ساند ، روبير برونشفيك ، شارل بيلا .

(ثلاثة قدموا لى مساندة حاسمة فى ظروف شاقة بالخصوص غيرت مجرى حياتى ، إنهم بإسنادهم مهام كبرى للتدريس بالسربون فإنهم أمدونى بذلك التشجيع لكل مبتدأ فى

البحث العلمى مما يدفعنى إلى التعبير عن اعترافى لهم بالفضل بانضمامى مستقبلا بشكل أكثر قرباً لأعمالهم . أ هـ .

وهو العمل على إخصاب نماذجهم .

هؤلاء المستشرقون هم صانعو أسطورة أركون وهم الذين أفسحوا له المجال لينوب عن أغلبهم فى حمل راية الاستشراق فى طبعته المعلنة بل لما ترعرع تجاوزهم فى دراسة أعلام الإسلام وكتبهم وحضارة مجتمعهم إلى التنظيرات لمستقبل الأمة الإسلامية جميعاً .

* * *

زكى نجيب محمود
مدخل

تتردد في دوائر التغريب مقولة ظالمة وخطيرة : هى محاولة أسلمة كل كاتب من العلمانيين وكُتَّاب التغريب حيث يقوم أحدهم بالكتابة عن الجانب الإسلامى عند هذا الكاتب أو ذاك ، فعلوا ذلك بالنسبة لتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وأخيراً زكى نجيب محمود .

وهل يمكن أن يكون للكاتب جانب إسلامى وجوانب أخرى علمانية أو خاضعة للمذاهب الوافدة كالعلمانية والليبرالية والشيوعية . المفروض أن الكاتب كل متكامل وأن مفاهيمه لابد أن تصدر عن عقيدته ، إنها محاولة مضللة تحاول أن تتقصى بعض خيوط من كتابات أى كاتب لترسم له صورة إسلامية زائفة .

لقد رسم الدكتور زكى نجيب محمود عميداً للعلمانية بعد وفاة طه حسين ، فإذا به يعلن فجأة ومن غير سابق تمهيد أنه يدرس التراث الإسلامى الذى لم يكن قد تنبه خلال حياته كلها لما يحويه من ذخائر وكنوز ، وخدعت هذه العبارات السذج والطيبين وظنوا أنها عودة إلى الإسلام أشبه بعودة طه حسين لكتابه هامش السيرة بعد أن مضى الزمن ونسى الناس كتاب الشعر الجاهلى .

كذلك فعل الدكتور زكى نجيب محمود فإذا به يولع بالتراث الزائف المتصل بالتصوف الفلسفى والاعتزال ووحدة الوجود والحلول وكتابات رسائل إخوان الصفا وفكر القرامطة والمزدكية والبابكية بوصفه فكر العدل الاجتماعى كما أرشدهم عميدهم طه حسين .

ولكن الواقع هو أن هذا التراث الزائف هو مايرضى الاستشراق والتغريب لأنه يحيى الفكر اليونانى الوثنى الذى نشأ عليه الفكر الغربى المعاصر .

زكي نجيب محمود

رائد الفلسفة المادية (الوضعية المنطقية)

عندما قضى طه حسين وخلا مقعد عميد الأدب اختير زكى نجيب محمود من قبل الجهات والقوى التى ترسم خطط التغريب بديلاً للعميد فى وقت كان فيه زكى نجيب محمود مخططاً للفلسفة المادية ومشاركاً فى إعداد مناهج الدراسة لها فى المدارس والجامعات وقد قدم بين يدى موهبته أبحاثاً خطيرة .

[المنطق الوضعى ـ الجبر الذاتى ـ خرافة الميتافيزيقا ـ شروق من الغرب]

كانت هذه الكتب كلها قنابل مدوية تتبعها ريادة فى مجال الجامعة وولاء الطلاب للأساتذة الرواد .

ولقد مضى زكى نجيب محمود على طريق طه حسين ؛ يقول صلاح قنصوة : إذا كان طه حسين قد بدأ المسيرة بالشك فيما هو متداول فى ساحة الفكر حتى يستقيم له طريق الاقتناع واليقين فإن زكى نجيب محمود قد رسم لنا خريطة هذا الطريق وصاغ خطة السلوك فيه وكانت هذه الخطة (استراتيجية) منطقية تتجاوز التخصص وتطبق على جميع المبررات والمشكلات ، وهى بعينها غاية الفلسفة لأنها ـ أى الفلسفة ـ لا تشترط لها موضوعاً معيناً تختص به لأنها فى نظره منهج يعالج فيه صاحبه ما شاء من موضوعات العلوم والثقافة جميعاً ، والواقع أن زكى نجيب محمود حين حمل وشاح التغريب كان قد بعد كثيراً عن الحقل الإسلامى ، لقد انتظر طه حسين أكثر من خمسة عشر عاماً بعد حملته المسمومة تحت لواء (الشعر الجاهلى والأدب الجاهلى) حتى بدأ حملته الجديدة تحت اسم (هامش السيرة) والكتابة عن الصحابة بأسلوب خادع ظن كثير من البسطاء أنه عاد إلى الإسلام ، ولكنه كان كما أشار الدكتور هيكل يعاود هدفه القديم بأسلوب جدى حين بدأ يدعو إلى (ميثولوجيا إسلامية) أى إحياء الأساطير التى أحيطت بالسيرة النبوية .

أما زكى نجيب محمود فى السبعينيات حين حمل لواء الدعوة إلى التغريب كان قد تأخر كثيراً بعد أن (غرز) كثيراً فى ساحات التغريب ، وكان أخطر ذلك كتابه الفلسفة والمنطق للشهادة الثانوية والذى وجد نقداً شديداً من الباحثين فى مقدمتهم الأستاذ على لبن ، وكانت الدعوة الإسلامية قد انطلقت فى طريقين أصيلين لعلهما أكبر ما أزعج زكى نجيب محمود : هما حركة التأصيل الإسلامى والإعجاز العلمى الحديث الذى كشف عما قدمه القرآن منذ أربعة عشر قرناً ، ولقد عمل زكى نجيب محمود فى هذه المرحلة إلى التراجع الظاهر والتغرب من المفهوم الإسلامى ليكسب الناس خدعة إلى دعوته ولعل هذا ما أزعجه حين أخذ يحاسب نفسه فى أواخر حياته حين ثبت له أن قد فاته القطار ولذلك فقد كانت حملته على هذين الأمرين شديداً وهو الفيلسوف الرزين الهادى الطبع .

ذلك أن زكى نجيب محمود حين أعلن أنه عاد إلى التراث الإسلامى وأنه لم يدرسه فى القديم ، وكان قد غفل عنه فإذا به يعود إليه ليجعل منه حرزاً وسناداً يكسب به من ينخدعون . ولكنه مع الأسف فقد قضى الخمسة عشر عاماً الأخيرة من حياته يتراجع عن أخطاء سابقة مع استعلاء ، وعدم اعتراف بالخطأ .

ولكنه لم يستطع أن يحقق شيئاً ذا بال . لقد عاد إلى التراث الإسلامى ولكنه مع الأسف لم يعجبه إلا تراث الباطنية والقرامطة والمزدكية والمعتزلة لأنه قريب إلى نفسه ومتصل بالفكر اليونانى الوثنى الذى كان أساس فكره تقريباً ، وعندما اتصل برجلين من خيرة رجال التراث الإسلامى عجز عن أن يكسب الثقة بإيمانه بالإسلام كما جاء منهج حياة ونظام مجتمع ، فقد ظل فى نهاية الأمر متعصباً ومصراً على مفهوم الإسلام كدين لاهوتى على النحو الذى عرفه فى فكر الغرب .

ولم يستطع بالرغم من عشرات الأحاديث التى أجريت معه أن يسلم وجهه لله . ففى حديث له فى جريدة الأهرام ١٩٩٣/٩/٩ يثير الشكوك كعادته فيقول : أرجو ممن يقول إن الإسلام دولة أن يقول لى : كيف توصف الدولة بالإسلام ، إن المحدد فى العقيدة هو الفرد لا الدولة ، ثم إن كلمة دولة من دال الدول ويدول ولو فهمت ديننا جيداً لما همنا ، الدولة تتغير والعقيدة باقية .

وعندما أخذ من الغزالى لم يأخذ منه مفهومه الصحيح لنظرية الشك ، فقد أرسى

الغزالى أسس المنهج النقدى العقلى مع إعطاء الوجدان دوره فى معرفة الحق سبحانه وتعالى بذلك النور الذى يقذفه الله فى القلب ، فالغزالى يجمع فى مفهومه للمعرفة بالعلم والعقل مع الوحى ، أما زكى نجيب محمود فقد ظل مصراً على كلمته التى ظل يرددها (العقل والعلم) فاصلاً بين العقل والوجدان .

كذلك فإنه عندما حاول أن يتحدث عن إقبال : لما يأخذ من إقبال مفهومه فى تجديد الإسلام ، واكتفى بالقول أن أبرز حقيقة أوردها هو دور العقل فى حياة المسلم كما أرادها له القرآن ، ولكنه إقبال كالغزالى تماماً جعل العقل مشكاة ضوؤها الوحى ونور الإيمان وهو مالم يستطع زكى نجيب محمود أن يصل إليه بالرغم من كل محاولاته للتقرب من الفكر الإسلامى ليكسب أنصاراً وكان جفافه واضحاً .

لقد تحدث زكى نجيب محمود عن أنه عرف الإسلام فى أول شبابه ، ولكنه بعد أن سافر إلى الغرب اعتنق مذهب الوضعية المنطقية فابتعد عن المفهوم الإسلامى العام تحت تأثير الفكر الغربى الذى اعتنقه فبعد أن كان يجمع بين العقل والوجدان (مفهوماً جامعاً كاملاً) فصل بينهما واتجه بشده نحو العلم والعقل ، وحاول حجب الوجدان تحت اسم (التصوف) وفرق كبير بين الوجدان الإسلامى المرتبط بالعقيدة وبين مفهوم التصوف المستمد من المفهوم الفلسفى .

وقد أحدث هذا التحول عنده اضطراباً شديداً كان من أثره الاندفاع نحو حالة تشبه الجمود فلما أراد فى الستينيات الصدارة بعد طه حسين وإرضاء الناس جميعاً أخذ يتراجع شيئاً فشيئاً ولكن الأمر اضطرب معه اضطراباً شديداً لأنه فى أشد صوره تراجعاً إلى الإسلام ظل مفهومه للإسلام أو للدين هو مفهوم الدين فى الغرب وكان قد ارتبط بالفلسفة المادية ، فلما عاد إلى التراث الإسلامى لم يستطع أن يفرق بين التراث الأصيل والتراث الزائف .

كذلك فإنه لم يستطع أن يقبل مفهوم الإسلام بوصفه ديناً ومنهج حياة ولم يستطع أن يستوعب مفهوم الإسلام الجامع بين العقل والوحى ، حيث لم يجعل للعقل قداسة ولا استعلاء على الوحى .

* * *

ولقد ذهب زكى نجيب محمود فى ولائه للوضعية المنطقية حداً بالغــاً من الغلو .. يقول عبد الرحمن أبو عوف : إن زكى نجيب محمود فى عرضه للوضعية المنطقية تشدد فى تطبيق الفكر الفلسفى على تحليل لغة العلماء وإهمال البعد التاريخى للفكر البشرى ، ثم الأخطر تطبيق مبدأ الامتناع عن تجاوز ما هو معطى بحيث يترتب على هذا الامتناع أن يترك الواقع دون أن يمس ، أى أن الفلسفة تترك كل شىء على ما هو عليه وهذا هو الوجه الطبقى والمصلحى للوضعية المنطقية وكل فلسفة تجريبية .

ولقد رأى زكى نجيب محمود كيف سقطت الوضعية المنطقية فى الغرب ورأى الناس من حوله ينقدون وجهته ومع ذلك أصر فى عناد شديد على التمسك بمذهب مضطرب غير مقبول فى أفق الفكر الإسلامى وكانت له سوابقه التى يتراجع أمامها الذين يؤمنون بالعقيدة الإسلامية إيماناً صحيحاً وكاملاً .

فقد كان زكى نجيب محمود مختلفاً مع كل الأصول الأساسية للفكر الإسلامى :

١ ـ مفهومه للتقدم (مفهوماً مادياً خالصاً)

٢ ـ إذاعة مذهب الشك بما يختلف عن مفهوم الشك فى سبيل الوصول إلى اليقين .

٣ ـ مفهومه للحياة .

يرجع هذا الاختلاف إلى تجاوز مفهوم التكامل الذى يجمع بين الروح والمادة والقلب والعقل والدنيا والآخرة فى مفهوم الإسلام .

ولقد كان زكى نجيب محمود يعلى من شأن العقل والعقلانية حتى وصفه العلمانيون بأن العقل والعقلانية هما جوهر فلسفته .

ولكن الأخطر من ذلك هو الدعوة إلى أن لا نسلم بشىء على أنه حقيقة ما لم يكن لنا التحقق بتجربتها من صحته . ولما كان ذلك لا يصلح فى كل الأمور فقد أثارت هذه الدعوة كثيراً من التشكيك والتشويش ، ذلك أن الإسلام يقرر أن هناك جانباً من الحقائق يتصل بالغيب والروح وما وراء المادة فكيف يمكن أن يتحقق المرء من صحة ذلك إلا

بالإيمان بالغيب ، وأن آيات الله تبارك وتعالى تؤكد هذه الحقائق التى هى وراء المحسوس ، وهذه نقطة أساسية فى الإيمان بالله تبارك وتعالى وبكل عالم الغيب والعالم غير المرئى ، فقد قدم الإسلام للمسلم تصوراً كاملاً لحقائق (الميتافيزيقا) بما يحمى المسلم من أمرين :

١ ـ من الشك .　　　　٢ ـ من الجرى وراء الأسطورة

ولا ريب أن محاولة العلمانيين منذ طه حسين إلى اليوم لإثارة روح التشكيك وإيجاد أجواء من إعلاء شأن المحسوس والعقلانية بما يتنكر لمفهوم « الغيب » هذه محاولة خطيرة يجب علينا أن نحترس منها .

ولقد اختلف العلمانيون بين الوضعية المنطقية وبين الماركسية ، وأن رأى الماركسيين أن الوضعية المنطقية تحمل دعوة عقلانية (كما أشار محمود أمين العالم) وأن عمل الكثيرين من الماركسيين عليها وأعلنوا أنها انهارت منذ زمن طويل ، ولكن ما يزال هؤلاء وهؤلاء يقاتلون فى سبيل هدم مفهوم الإسلام الأصيل الجامع ويصبغونه بالخرافات والأساطير البدائية .

ولقد ركز زكى نجيب محمود على عالم الغيب والمسمى (الميتافيزيقا) ووصفه بأنه أسطورة ثم أعاد طبع كتابه باسم مخفف فى سبيل أن يلقى لدى المجموعة القارئة العامة بعض القبول فى مرحلة التحول حتى إنه لا يذكر الوضعية المنطقية كلية فى آخر كتبه (حصاد السنين) .

ولقد حاول زكى نجيب محمود أن يقرن مفاهيمه المادية بالفكر الإسلامى حين قدم معادلته المغلوطة : (تراث قديم وفكر غربى) ولكن ظلت دعوته قاصرة على الجانب المادى وعلى العلوم الطبيعية وحين اتصل بالفكر الإسلامى استأثر به فكر إخوان الصفا وابن رشد ، وكانت دعوته إلى العقل والعلم وحدهما قاصرة فهما لا يصلحان أساساً إلا مع عنصر آخر ظل ينقص زكى نجيب محمود وهو الوحى .

وحين يتحدث عن الإسلام كدين ، يتحدث عنه على أنه دين عبادة ولاهوت بمفهوم الدين فى المسيحية والفكر الغربى ولا يقترب أبداً من مفهومه الصحيح بوصفه ديناً ومنهج حياة ، وجامعاً للفكر السياسى والاجتماعى والاقتصادى بل هو يهاجم هذا المفهوم هجوماً شديداً .

فمفهوم الدين عنده عقيدة ، وليس منهج حياة غافلاً عن أن الإسلام قدم مفهوماً للدين يختلف عن الفكر الغربى وعن المسيحية (ولم تكن المسيحية ديناً له شريعة) بل كان تصحيحاً لمواقف اليهود .

وحين يتحدث عن تقسيم الفكر إلى وجدانى وعقلى فرق بينهما وجعل مجالاً للوجدان ومجالاً للعقل ، لا خلط بينهما ، وقال إن الخلط بينهما يعوق مسيرة التقدم ، وهذه هى « الانشطارية » التى كشف عنها كل من درس تاريخ الأديان فى الغرب فالإنسان مكون من عنصرين :

روح وعقل متكاملان جامعان يمثلان تصوراً واحداً ، والعقل فى الإسلام قادر على هداية المسلم إلى الله تبارك وتعالى وإلى الوحى والغيب والنبوة ، ويظل زكى نجيب محمود مصراً على هذا الفصل فيقول (عربى بين ثقافتين) وينسى أن المسلم له ثقافة واحدة وأن الثقافات الأخرى هى عناصر مساعدة لبناء الثقافة الأساسية ، وأن منهج المعرفة قائم على العقل والوحى وأن تأكيد الهوية والمحافظة على الذاتية هو فريضة من فرائض الإسلام الأساسية وأن مفهومه للعقل قاصر تماماً ، حيث يعلى من شأنه ويصفه بالقداسة وأن أصدق مفهوم للعقل أنه سراج يضىء بنور الوحى (الذى يسمى النقل) فالعلاقة بين العقل والوحى هى العلاقة بين العقل والنقل هذا هو مفهوم الإسلام ، أما ما يردده الفلاسفة الذين تأثروا بمترجمات الفكر اليونانى وفى مقدمتهم ابن رشد وبعض كتابات (محمد عبده) بإعلاء العقل على النص ولعل هذه الحملة التى يثيرها دعاة الفلسفة المادية فى العصر الحديث (زكى نجيب محمود ، وفؤاد زكريا ، ومراد وهبة) وفى مقدمتهم الأب قنواتى فهى مخالفة لمفهوم أهل السنة والجماعة .

* * *

ولا شك أن أخطر ما فى حياة زكى نجيب محمود هو تراجعه فى السنوات الأخيرة فى سبيل أن يقنع أهل الإيمان بأنه على طريق صحيح خدعة منه وتضليلاً :

يقول (أعترف أننى حين دعوت إلى الأخذ بثقافة الغرب ، والغرب هو العصر ، كنت فى تلك الدعوة على كثير من التطرف وأهملت الجانب الآخر الذى لا بد منه كذلك

حفاظاً من أى إنسان على هويته الخاصة فجاءت نظرتى إلى الثقافة المستوردة نظرة مبتورة).

ومن مثل هذا استعان زكى نجيب محمود فى المرحلة الأخيرة بأكثر من خيط فى سبيل كسب الثقة .

وقد ردد كلمات إقبال : (إن خلق الله هو القرآن والكون) وأن علينا أن نستخدم عقولنا فى قراءة القرآن وتفسيره والعمل به ثم بقراءة كتاب الكون أو الطبيعة وفهم أسراره ورموزه ، ولكن هل ربط زكى نجيب محمود فكره بمفهوم إقبال فى أصالته الإسلامية ؟ لم يحدث، وبقى الحديث ممتداً عن الفكر الوافد من الغرب والإعجاب بالحضارة الغربية ، وواقفا عن العقل والعلم ، وكلما حاول أن يكسب معركة وجد أن الفارق بينه وبين المفهوم الإسلامى لازال بعيداً وعميقاً فهو لم يغير موقفه من مفهوم الدين فى الغرب وما زال يضيق بالتحول الذى حدث فى الفكر الإسلامى ـ وما وصفه فؤاد زكريا بأنه فى العقد الذى مات فيه زكى نجيب محمود فقد انتشرت العقلية الأسطورية انتشاراً مخيفاً ، هذه العقلية الأسطورية التى يتحدث عنها أحد تلاميذ زكى نجيب محمود ، هى العودة إلى الأصالة والتماس منهج القرآن ، لقد ظن هؤلاء أنهم كسبوا المعركة الأولى وأنهم واصلون إلى غايتهم ، ولكن عندما دخلت « الصحوة » مرحلة الثبات والتنامى أحس العلمانيون بالهزيمة وانكشفت لهم الأوضاع وضاع أملهم الذى كانوا يعلقونه على العلمانية ، وهزم التنوير هزيمة مؤكدة ورسمت صورة قاتمة تشيع الألم فى نفس كل مؤمن بالعقل وحده . وقد أسموها (ضيق أفق وقسوة و غياب للعقل) .

وهذا هو ما أشارت إليه (دكتوره سهير إسكندر) لقد استهوت الحضارة الغربية زكى نجيب محمود وأرجع إليها النهضة التى قامت فى أوربا فى القرن السادس عشر فعمل على أن يتخلص الإنسان العربى من أسلوبه العتيق فى حل المشكلات عن طريق النقل من الكتب القديمة ورأى أن يضيف إليها قراءة الطبيعة ».

أما الكتب القديمة التى يشيرون إليها فهى القرآن والسنة ، وأما إضافة الطبيعة فذلك أمر سابق ، فقد كان المسلمون منذ اليوم الأول يربطون بين كتاب الله الناطق (القرآن) وكتاب الله الصامت (الطبيعة) ، فلم تكن دعوته هذه إليهم جديدة .

ويتحدث عن (سلطان الماضى على الحاضر) ويرى أنه مما يؤدى إلى الاجترار فضلاً عن الميل إلى تعطيل القوانين الطبيعية بحثاً عن الخوارق والحقيقة أن هذا المصطلح تحدث به علماء الغرب عندما كشفوا عجز كتبهم عن العطاء ، وهى كتب كتبوها بأيديهم ، وكشف العلم الحديث مناقضتها على النحو الذى أعلنه دكتور موريس بوكاى بالنسبة للعهد القديم ، أما الإسلام والقرآن فلا يقال له سلطان الماضى على الحاضر أبداً والعودة إليه ليست اجتراراً بل هى المنطلق الحقيقى لمنع تعطيل القوانين الشرعية .

* * *

أما حديثه عن التراث فهو منقول عما كتب عن التراث الغربى .

ما هو التراث الغربى ؟ : إنه تراث الوثنية اليونانية والعبودية الرومانية ونظرية إيزيس وأوزوريس وحورس التى دخلت إلى الدين السماوى وهذه هى التى قال عنها هيوم (فلنقذف بها فى النار) أما التراث الإسلامى فليس كذلك أبداً فهو يختلف عن ثقافة الغرب وهو يجمع بين العلم والإيمان والمادة والروح ، أما الغرب فقد صنع العلم ولكنه فقد الإنسان أما نحن المسلمين فنجمع بينهما .

وقد تحددت العلاقة بين التراث والمعاصرة ، وتعرفت حدود الميراث (وهو القرآن والسنة) والتراث وهو ما كتبه علماء المسلمين وهم لا يقدسون التراث ولا ينقلونه ولا يقيمون حاضرهم عليه وإنما يهتدون به على طريق التقدم والصحوة .

أما التنوير الذى يتحدثون عنه فهو الخروج من الوثنية والأساطير البدائية التى عاشوا عليها قبل أن يصلهم المنهج العلمى التجريبى الإسلامى الذى أخرجهم بعد ألف عام من الرهبانية .

إن التراث الإسلامى مرتبط بالميراث الذى هو وحى السماء المنزل (القرآن الكريم) الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو الذى أزعج العلمانيين وأصحاب الوضعية المنطقية عندما كشف العلم عن حقائق الإعجاز القرآنى الذى سجلها قبل أربعة عشر قرناً ومن هنا كانت حملة زكى نجيب محمود على قاعدة التأصيل الإسلامى إذ يدهش كيف يؤصل الفكر الإسلامى لتحريره من سموم الفكر الغربى ، فليدهش ما شاء فإن الأرض الإسلامية لا تقبل الغريب وإذا قبلت منهماينفعها صهرته فى أصولها .

ومن هنا فإن مفهوم فيلسوف الوضعية للتراث يختلف تماماً فالتراث عنده قضية ميتافيزيقية ، ومن ثم خالية من المعنى ، وقد سعى الدكتور زكى منذ بداية مشواره العلمى إلى تأسيس مفهوم فلسفة علمية ترفض خرافة الميتافيزيقا ويتجه فقط إلى الأخذ بأسباب العلم .

أما نحن فلا نرفض الغيب ولا نراه خرافة بل نجعله صنو العلم وحيث يقرر الإسلام أن المعرفة تجمع بين العلم والوحى أما الحديث عن الحق والخير والجمال ، فهو مفهوم وثنى مسيحى ، أما مفهومه للدين فهو مفهوم غربى حين يقوم على العبادة والأخلاق ويتوقف عند علاقة الفرد بالله تبارك وتعالى ولكنه لا يتصل بالمجتمع والمعاملات .

* * *

كان الدكتور زكى نجيب محمود قد حدد موقفه حين كتب ما سماه (خرافة الميتافيزيقا) أى بصراحة كاملة « خرافة الغيب » التى نص القرآن عليها كعنصر أساسى من عناصر الإيمان الإسلامى حين قال ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ [سورة البقرة : ٣] .. وكان إيمانه بمذهب الوضعية المنطقية منذ اليوم الأول إلى اليوم الأخير مع كل تحولاته وتعديلاته هو القاسم المشترك الأعظم على كل تحولات فكره ، تقول الدكتورة منى أحمد أبو زيد : كان مفهومه الجديد من النهضة ليس إعادة تراث الآباء والأجداد وإنما اتخاذ نفس عناصر الغرب والتوجه الكامل نحو الغرب للأخذ بالحضارة والتقدم والقوة .

ولقد غاب عن الدكتور زكى أن ما يصلح للغرب لا يصلح للأمة الإسلامية ، وكان ظنه بأن ما تقدم به الغرب يمكن أن يتقدم به الشرق ، وكان أولى به أن يفهم حقيقة المنهج الذى يصلح للتقدم هنا وهناك ويركز على الفوارق والخلافات .

لقد أقام المسلمون المنهج التجريبى ونقلوه إلى الغرب ، ولكن الغرب لم يأخذ منهج المسلمين بمضمونه الجامع بين الوحى والعقل . ولقد كان موقف الغرب من التراث واللغة والنظرة إلى الكتب المقدسة راجع إلى تصوره ببشرية هذه القيم ، وأن الكتب المقدسة ليست من عند الله بل هى من عند الرسل ، ولقد كان مفهومه بأن الحضارة وحدها لا تتجزأ فإما أن نقبلها كلية أو نرفضها كلية ، هذا المفهوم خاطىء ، وقد أخطأ فيه طه حسين من قبل ،

ولقد قبل الغرب العلم التجريبى الإسلامى ، ولكنهم تحفظوا على منهج الدين فلم يقبلوه ، وكانوا يرون أن مفهومه العقدى يختلف فكيف يقبل المسلمون الحضارة الغربية بكل ما يتصل بها من قيم وعقائد بعد أن ترسخ منهج الإسلام أربعة عشر قرناً ، وكان فى جملته منهجاً جامعاً بين الدنيا والآخرة ، وبين الروح والمادة ، بينما مذهب الحضارة الغربية منشطر وقائم على المادة وحدها وكيف يقبلون العقل ويرفضون الوحى وهو مصدر الدين أساساً ، وكان مفهوم زكى نجيب محمود للدين بأنه عقيدة ، وفق مفهوم المسيحية قد أوقعه فى أخطاء كثيرة لأنه قصرها على العبادات والتراتيل وبعض القيم الأخلاقية ، وأنه مجموعة من القيم تدعو إلى سلوك معين للوصول إلى غايته ، فالإسلام كان خلاف ذلك إذ كان إلى ذلك منهجاً جامعاً ينتظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويقوم على نظام الثوابت والمتغيرات ، وله منهج فى الاجتهاد يواجه متغيرات المجتمعات والبيئات ويتجاوب معها وليس كما يظن فى مفهوم الدين أنه جامد ، ومن هنا يأتى اتهامه بعجزه عن العطاء فى المراحل التالية ولقد كان موقف الإسلام من العلاقة بين الإنسان والمجتمع بالغ الأهمية والخطر ، وقد أحدث له تنظيماً شاملاً قائماً على أساس الضوابط والحدود فى كل ما يتصل بالمعاملات والربا والعلاقات بين الرجل والمرأة بما يحمى المجتمع من الانحلال والفساد والخمر والفاحشة حتى لا تنهار ، أما قصر الإسلام على مايسمى الجانب الروحى والتدين فإنه يحول دون الوصول إلى المفهوم الأصيل والجامع للإسلام .

*   *   *

ويمكن للناظر فى حياة زكى نجيب محمود أن يرى أنه يتحدث عن نفسه وحياته حديث رجل ليس له مثل أعلى يسعى إليه أو هدف يحققه [الأخبار ١٦ سبتمبر ١٩٩٣] حيث يقول : ليس للحياة معنى ، إنى لأعجب عجباً لا ينقضى من رجل يحتفل لنفسه أو يرضى أن يحتفل له الناس ، لا ، فنحن فى هذه الأعوام التى تكر ماضية عاماً بعد عام مثل من وقف على جسر النيل وفى يده عقد أخذ يلقى حباته فى الماء حبة وراء حبة .

وكان يمكن أن يقول كلاماً غير هذا ، يقول مثلاً : إن عيد ميلاده يذكره بالمهمة التى يعمل لها .

ما كتبه الدكتور
زكى نجيب محمود عن الفلسفة والمنطق

راجع الأستاذ على لبن كتابى زكى نجيب محمود عن الفلسفة والمنطق للشهادة الثانوية العامة فى ضوء مفهوم الإسلام فاستطاع أن يحصر الأخطاء التالية :

أولاً : المؤلف يبدأ بمهاجمة الدين دون مبرر واضح أو حجة مقنعة ، ويزعم أن وسيلة المعرفة هى العقل ودونه يكون الدين والخرافات ، فكيف يفرض على شبابنا الغض تعلم مثل هذا الاعتداء الصارخ على الدين .

ادعى المؤلف بأن الفلسفة نشأت فى بلاد اليونان قبل غيرها معللاً ذلك بأن اليونانيين كانوا يستخدمون العقل كوسيلة للمعرفة فى حين كانت بلادنا (دول المشرق) تستخدم الخرافات والدين بدلاً من استخدام العقل ، وهو فى هذا قد زيف الحقيقة والتاريخ مرتين فى عبارة واحدة حيث افترى على الدين فوضعه مع الخرافات وجرده من العقل كما ادعى أن الفلسفة نشأت فى بلاد اليونان قبل غيرها .

والواقع أن ميزة الإسلام الكبرى أنه لا يتعارض مع العقل وأن الأعداء أنفسهم شهدوا بذلك فقال « مكسيم رونسون » إن القرآن كتاب مقدس تحتل فيه العقلانية مكاناً جد كبير ، كما أنه يقدم البراهين العقلانية على القدرة الإلهية ، ففى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتوالد الحيوان ودوران الكواكب والأفلاك وتنوع خيرات الحياة الحيوانية والنباتية تنوعاً رائع التطابق مع حاجات البشر .

كما أن جوستاف لوبون قال : إن العرب هم الذين علموا العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ، وقد دخل الإسلام بسبب هذه المفاهيم كثير من علماء الغرب ومفكريه وآخرهم جارودى وآرثر أليسون ، وبعد أن شوه المؤلف عقيدة السلف الصالح أخذ يعرض البدائل من عقائد أهل الزيغ والضلال ؛ وذلك من بداية الكتاب حتى نهايته .

كما عرض المؤلف الفلسفة البرجماتية الوضعية ، وهى عقيدة الأمريكيين حيث عدد المؤلف مميزاتها وزينها للعقول ولم يذكر لها سيئة واحدة .

ويرجع منهج زكى نجيب محمود إلى ولائه لزعيم الفلسفة الوضعية الملحدة فى العالم، وهو أوجست كونت ، حيث يدعى أن قوانين العلم التجريبى تغنى عن الإيمان بالله ويزعم أن هذه القوانين تدل على أن الطبيعة لها وجود مكثف بذاته ، وهو يزعم أن الدين والميتافيزيقا ليسا سوى خرافات ورثناها عن القرون السابقة وقضت عليها حالياً سيادة العلم الحتمية ، كما أن كونت قد انتهى بوضع دين جديد سماه (دين الإنسانية) وقد ارتضى مؤلفنا لنفسه أن يكون مردداً لمفكرى الغرب فى الهجوم على دين ليس ثمة داع لمهاجمته وهو الإسلام لمجرد أنه قرأ ما يشبه الهجوم على المسيحية باسم النقد العلمى أو العقلى وقد جاءت الفلسفة الوضعية لتنكر الغيب كله ولا تعتد إلا بالمعرفة الحسية وحدها وتعتبرها المصدر الوحيد للمعرفة ، وليس مجرد مصدر أساسى متقدم على الدين ، ولذلك فالفلسفة الوضعية ترى الدين والفلسفة العقلية وهماً وضلالاً وتنكر أى معرفة تأتى عن طريقهما وتجعل مصدر المعرفة الوحيد هو الحس أو ما يسمى بالطبيعة ، وليس العقل أو الدين .

فالوضعية بجعلها الطبيعة خالقاً تصبح أكثر إسفافاً وخرافية من شرك العرب الذين عبدوا الأوثان ؛ لأن العرب رغم وثنيتهم كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق ، وأن الأصنام ليست إلا وسيلة تقربهم إلى الله زلفا .

ولم تقتصر سموم زكى نجيب محمود على طلاب الثانوية وحدهم ، بل امتدت إلى الجامعة حيث فرض على طلاب الآداب دراسة كتابه (خرافة الميتافيزيقا) رغم ما فيه من السخرية بالدين والعقيدة .

يقول الدكتور محمد البهى : إنه كتاب منقول من الفكر الأوربى المادى ويهدف إلى بيان أن العبارات الميتافيزيقية ـ أى التى تخبرنا عن أشياء غير مُحَسَّة ـ عبارات فارغة من المعنى ـ يقصد عالم الغيب ـ دون أن يستثنى من ذلك الدين أو يراعى قدسيته ودون أن يصون اسم الله تبارك وتعالى مبتعداً به عن هذا النقاش .

* * *

ويقول الدكتور البهى : إن حسن الظن بالحواس أو الثقة فى العقل قد تحملنا على أن نخدع بإحداهما أو بكليهما وهو الأساس نفسه الذى قامت عليه الفلسفة الوضعية حيث

تجعل الطبيعة أو الحس هما مصدر المعرفة والحقيقة ، وبناء على ذلك فهم يرون أن الدين والوحى الذى من عند الله خداع وباطل كما يعتبرون المثل العقلية هى أيضاً وهم لأنها لم تستلهم من الطبيعة المُحسة .

ومع تقدير الإسلام للعقل الإنسانى إلا أن لهذا العقل دوراً محدداً ؛ فكما أن العين لا ترى إلا إذا ظهر النور فكذلك العقل لا يهتدى إلا بالرسالة ، وخطأ الفكر الفلسفى أنه يلجأ إلى العقل فى مسائل العلم الإلهى ولا يلجأ إلى الوحى أى يضع العقل فى موضع الأصل والعكس هو الصحيح ، فما دام الإنسان مخلوقاً مربوباً مصنوعاً فإنه ينبغى الرجوع إلى خالقه وفاطره وصانعه طالباً العلم والعمل ، لأن هذا هو الترتيب الموافق للحقيقة .

يقول الأستاذ على لبن : إذا كان كونت قد هاجم الكنيسة إلا أنه قد نادى بدين بديل سماه (دين الإنسانية) ، كما نادى برفع شأن الأخلاق وعول عليها تأسيس المجتمع .

أما دوركايم اليهودى فقد عارض ذلك كله ، وقال إن الوضعية تقنع ببحث ماهو كائن ، وترفض مناقشة ما ينبغى أن يكون وترتب على ذلك فقدان الحماس لأية قيم خلقية، وقلده فى ذلك هربرت سبنسر الذى استبعد فكرة المثل الخلقية المطلقة ، ونادى بالوقوف عند الظواهر الحسية التجريبية وحدها والتى تخضع لقانون التطور المعتمد على فكرة (البقاء للأصلح والأقوم) والنتيجة هى تقدم الأقوياء وسقوط الضعفاء وهذه النتيجة هى أساس تقدم النظام الرأسمالى .

ثم انبثق عن الفلسفة الوضعية أخيراً البراجماتية الأمريكية .. يقول دكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة : إن الوضعية المنطقية تعد محاولة جديدة لهدم الفلسفة المثالية ، وهدم الميتافيزيقا بقصد غير صريح وهو محاربة الإيمان بوجود الله ، وكل ما يتجاوز عالم الحس، وأن استعمال التحليل المنطقى على يد الوضعيين المناطقة يؤدى إلى زعزعة الإيمان ، وأن توقعهم هذا فاسد إلى حد السخف ، وأنهم يضيقون نطاق المعرفة إلى أقصى حد ، ويقول الدكتور محمد ثابت الغنوى : إن الوضعية المنطقية مدرسة مريضة حقودة لأن تحليلهم يستند إلى التجربة الحسية وحدها ، ولا يستند إلى كل قوى الإنسان العارفة كالعقل والذوق والحس والضمير والروح .

كما أن تمسك الوضعية بالجانب الحسى وحده من الحياة إنما يهدف إلى استبعاد

الفلسفة التى تؤكد وجود الله سبحانه وخلود النفس ، وحرية الإرادة ، وحدوث العالم وغيرها من القيم التى عاش الإنسان وجاهد من أجلها بل يرى اعتبار الوضعية فرضاً لغوياً فى العقل .

ويرى دكتور إبراهيم فتحى (اليسارى) أنه لا يرى فى زكى نجيب من حسنة سوى محاربته للفكر الإسلامى الصحيح وفى هذا يقول : [إن برنامج زكى نجيب التنويرى تحقق فى أن سهام نقده ألحقت ضرراً بالقيم الرجعية (يقصد الإسلام) ونحن لاندهش حينما نرى العداء الذى بين الماركسيين والوضعيين يتلاشى حينما تكون القضية هى مهاجمة الإسلام فكلاهما مادى إلحادى ، وكلاهما تحركه أصابع الماسونية ، وغيرها من مخططات الصهيونية العالمية .

* * *

ويشير مؤلف كتاب الغزو الفكرى فى المناهج الدراسية إلى أن زكى نجيب محمود سلم بسيطرة الفكر الأوربى عليه وأنه النصير الوحيد للفلسفة الوضعية الملحدة فى بلادنا وبعد أن أظهر ندمه وتوبته عن ذلك ، وأكد عزمه على تصحيح موقفه بالنسبة إلى تراث الآباء نجده بعد ذلك يعود إلى سابق حاله من السخرية والتهكم على كل ما له صلة بدين الإسلام وتراثه ، ودليل ذلك ما أورده فى كتابيه الفلسفة والمنطق للشهادة الثانوية ، وهجومه على حجاب المرأة المسلمة .

وأهم القضايا التى أثارها لزلزلة العقيدة ما يلى :

١ ـ إثارة ركام الفكر الوثنى القديم الذى يوقظ افتراءات الباطنية والمجوسية والفلسفات الوثنية ، ودعوات التحلل والإباحية

٢ ـ إحياء فكر الاعتزال الذى يقدم العقل على الوحى .

٣ ـ عرض الفلسفات الماركسية والبراجماتية والوجودية دون إظهار باطلها .

٤ ـ إهمال دور الحضارة الإسلامية لصالح الحضارة الغربية .

٥ ـ محاولة بعث علم الكلام بجدله وشغبه وإثارة المؤلف بفكر المعتزلة وتشويه منهج الأشاعرة لحساب المعتزلة .

٦ ـ تمجيد تلامذة اليونان الذين يسمون بفلاسفة الإسلام .

نقد أعمال زكى نجيب محمود

جرت محاولات لتصحيح موقف زكى نجيب محمود بعد وفاته على هذا النحو :

يمكن القول بأن الدكتور زكى نجيب محمود أقام منهجه الفكرى والفلسفى على قاعدة [المذهب التجريبى الوضعى] والذى بلغ قمته فى كتابه (خرافة الميتافيزيقا) ثم حدث تحول بعد نكسة ١٩٦٧ حين عاد إلى دراسة التراث الإسلامى ، وحين تأثر بالتراث الإسلامى الزائف حين اتصل ـ شأن كل الذين عملوا فى هذا المجال ـ بإحياء تراث المدرسة المشائية التى قامت على أساس ترجمة الفكر اليونانى والتأثر بأرسطو وأفلاطون من خلال ابن سينا والفارابى ثم ابن رشد فى محاولة لاحتواء الفكر الإسلامى الربانى الأصيل فى مدرسة الفلسفة المادية وما يسمى (علم الأصنام) وكان أول تحولاته كتابه (تجديد الفكر العربى) وقد حدثت تحولات قليلة منها :

١ ـ رأيه فى مسألة الأخلاق ، فبعد أن كان ينظر إليها على أنها نفعية أصبح ينظر إليها على أنها قيم ثابتة مصدرها الدين .

٢ ـ تغيرت رؤيته فى مسألة الأصالة فجعل أهم صفة من صفات المصرى والعربى « التدين » .

٣ ـ كما أنه أعاد طبع كتابه (خرافة الميتافيزيقا) بعنوان مختلف .

وبقى زكى نجيب محمود يدافع عن الوضعية المنطقية دفاع المستميت ثم أخذ يدافع عن الوسطية وإسلامية المعرفة بعد أن كان يهاجمها ، الأمر الذى أثار دهشة عارفيه ، ومما كتب فى تلك الفترة أن زكى نجيب محمود كان يذكر الله تبارك وتعالى فى الصلاة من الشعور بجلالة الله وعظمته ورحمته ، ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيرى إنها تلك الثنائية موجودة عند كثير من المفكرين العلمانيين الغربيين ، وكذلك الأمر بالنسبة للدكتور زكى نجيب محمود الذى بدأ بالمنهج التجريبى الوضعى ، ثم أخذ فى آخر أيامه موقفاً مخالفاً حيث تكلم عن الخصوصية العربية والقيم المطلقة .

وأشارت الدكتورة « منيرة حلمى » أنه عقب نكسة ١٩٦٧ حين رأى زكى نجيب محمود أن الشعب يلوذ بالتراث بدأ يفكر فى التراث والدين فكتب عن القيم الدينية والخلقية بعيداً عن المنطقية الوضعية والنفعية .

ويؤكد الدكتور « على عبد المنعم » أن الفكر الجديد الذى يطرحه زكى نجيب محمود لابد أن يكون مشروطاً بإطار المنهج الإسلامى ، فالعقل إذا ترك وأرخى له العنان قد ينحرف ويجنح وينتقد أيضاً موقفه من أسلمة العلوم ، خاصة العلوم الإنسانية ، ويرى أن العلم لا يمكن أن يكون محايداً ، ولا بد أن تنبثق علومه من الرؤية الإسلامية التى يجب أن تكون معبرة عن شخصيتنا بشرط ألا تتقوقع فى مرحلة فكر السلف ، كما ينقد موقف الدكتور زكى نجيب محمود من مسألة الفصل بين الدين والدولة خاصة أن الدين مقاوم لكل الصراعات والأمراض التى يعانيها مجتمعنا حالياً كالقلق والتمزق والضياع .

ويشير الدكتور محفوظ عزام إلى موقف زكى نجيب محمود من أسلمة العلوم وتفسير القرآن والعلمانية .. ويرى محمد عمارة أنه رغم تطور الدكتور زكى [الشعب ١١ أكتوبر ١٩٩٤] العقلى فإنه وقع فى مأزق الثنائية بين العلم والإيمان .

* * *



توفيق الحكيم
على طريق تغريب الإسلام

إن محاولة (تغريب الإسلام) خطة قديمة لها أبعادها ولها أبطالها ، وهى لا تتوقف عن العمل وما قام به توفيق الحكيم على مدى حياته العريضة ليس إلا وجهاً جديداً من وجوهها وحلقة أخرى من حلقات بدأها طه حسين وسلامة موسى وعلى عبد الرازق وحسين فوزى ولطفى السيد وزكى نجيب محمود ولويس عوض .. ذلك أن تاريخ توفيق الحكيم حافل بمعارضته للفكرة الإسلامية منذ اليوم الأول لظهور مسرحية (أهل الكهف) ١٩٣٢ وحتى يومه الأخير لم يتخلف عن مواقفه التى تجرى مع أهواء التغريب ، وليس موقفه فى التهجم على أدب الحديث مع الحق تبارك وتعالى إلا ذروة هذه المحاولة المستمرة الخطيرة التى واجهها كثير من الباحثين الإسلاميين فى وقتها كاشفين عن الهدف الدفين من استغلال منبر من منابر الصحافة كالأهرام لإذاعة هذه الأفكار ، ومنذ صدرت (أهل الكهف) ١٩٣٢ انكشف هذا الاتجاه واستخدم الحوار لخدمة مفاهيم القصة الغربية القائمة على الخطيئة والمأساة والكشف والإباحة والمعارضة للمفهوم الإسلامى الذى لا يعرف الخرافات أو الوثنيات أو الأساطير المستمدة من عقائد تقوم على تعدد الآلهة وعلى صراع الآلهة مع بعضها ، ومع الإنسان لتعارض هذه الأفكار والصور مع إيمان المسلمين بالخالق الواحد وإكباره وتعاليه عن مثل ما توصف به القصة اليونانية من صراع وشهوات وما تقسمه إلى ذكور وإناث وآلهة للصيد والخمر والحب ، فقد نأى الأدب العربى عن ذلك وسما بالألوهية عن مضاهاة البشر التى لا يقرها عقله ولا يرضاها مزاجه النفسى ، كذلك فإن مفهوم الأدب العربى (الإسلامى المصدر والانتماء) يتعارض مع فلسفة المأساة الغربية القائمة على الخطيئة والقصاص والغفران ، والتى ترى أن الإنسان مرتبط بخطيئة أولية هى (خطيئة آدم) فى الفكر الغربى المسيحى والتى لا يقرها الإسلام ، وهناك مفهوم الصراع بين الآلهة والقدر وبين الإنسان والخطيئة ، ويبدو البطل فى صورة المتحدى لإرادة الله تبارك وتعالى والمتحدى للقدر .

ومن هنا فقد حاول توفيق الحكيم بعد عودته من الغرب (دون أن يحصل على شهادة

القانون ، ورضى بأن يكون خادماً للأسطورة السحرية) إخراج الأدب اليونانى القديم القائم على علم الأصنام ، والمتمثل فى صراع القدر وصراع الآلهة وكلاهما غريب على النفس العربية الإسلامية وكان فى مقدمة من نقلوا القصة العربية والمسرحية إلى إحياء الأساطير القديمة ، ومن هنا كانت فرحة طه حسين التى لم يخفها حين أعلن أن هذه القصة فتح لم يسبق له فى تاريخ الأدب العربى كله لأنه كان يعرف مدى السموم التى يمكن أن تنثرها فى جو الأدب العربى والفكر الإسلامى خاصة إذا كانت هذه المسرحية قد وردت فى التوراة وفى القرآن ، وهى تختلف فى كل منهما عن الآخر ، وقد اختار توفيق الحكيم أن يعتمد رواية التوراة فى كتابة قصة عن أهل الكهف ، وعن النبى سليمان (عليه السلام) وقد كشف كتاب اليقظة عن أن هاتين المسرحيتين ليستا سوى نسخ ممسوخة من أسفار اليهود ، وأن المفهوم الذى قدمه توفيق الحكيم فى مسرحية سليمان قد جرد النبى من النبوة وحاول أن يصوره على أنه رجل جنس تحكمه شهواته فى اقتناء النساء ، وهو مفهوم التوراة التى كتبها يهود ، والذى دحضه القرآن حين كشف عن نبوة سليمان التى تعلو على الأهواء ، فسليمان عليه السلام فى مفهوم الإسلام نبى معصوم وفى قصة (أهل الكهف) يخرج توفيق الحكيم من المفهوم الأصيل والصحيح لقصة هذه الجماعة من المؤمنين .

ونجد ذلك التجاوز والمعارضة من توفيق الحكيم للنصوص القرآنية الصحيحة والاعتماد على الكتب الأخرى من كتب النصارى واليهود والأساطير القديمة دون أن يعتمد أو حتى يشير إلى مفهوم القرآن .

(ومن عجب أن كل الذين كتبوا عن توفيق الحكيم بعد مماته من العلمانيين قالوا كاذبين إنه اعتمد فى أهل الكهف على القرآن) وهو لم يحدث .

يقول السيد « أبو الحسن الندوى » : إن قصة أصحاب الكهف والرقيم هى قصة الأديان والقوة والثبات والتضحية والجهاد التى تتكرر فى تاريخ الإنسانية ، وفى تاريخ الحق والعقيدة وهى برهان على أن الأسباب خاضعة للإرادة الإلهية ، صديقة للإيمان والعمل الصالح ، فسبيل المؤمنين أن يستميلوا هذه الإرادة والإيمان والعمل الصالح بما يستحق نصر الله وتأييده .. يقول : أما فى أهل الكهف لتوفيق الحكيم فإن الصورة تختلف فهؤلاء قوم لم

يكن فى قلوبهم إلا حب الدنيا والحديث عن أهوائها فقد أجرى بينهم أحاديث تختلف تماماً عما كان يشغل أهل الكهف الفارين بدينهم من بطش الظالمين من أهل الوثنية ، وكيف يمكن أن يفكر هؤلاء فى تلك الشواغل الدنيوية من حب وعواطف فى موقف قد نصبت فيه المذابح وجرى تخطف الناس ليقروا بالكفر وإلا فالموت الزؤام .

وكان هذا من أقسى ما حملته رياح التغريب ويرتبط هذا برأيه الذى أعلنه فى (العرب) وقد نسب إليهم الجمود والتخلف وصور حضارتهم الإسلامية بصورة مزرية ، وقد وصل فى ذلك إلى الحد الذى فاق فيه المستشرقين المتعصبين أمثال دوزى ومرجليوث بشهادة الدكتور طه حسين نفسه ، وقد رفض السيد محب الدين الخطيب رأى توفيق الحكيم فى قوله (هل يوجد اليوم شرق) وقال له : إن الذى يقول بأن حضارة الغرب كل لا يتجزأ ويدعو إلى الانسلاخ عن الإسلام والأخذ بالتصريح بكل ما فيه من قوة وضعف ، فهو رجل يغش المسلمين ، ويؤخر نهضتهم ويشغلهم عن الحقائق ، لأن فى العرب جانباً قوياً هو هدايته المحمدية التى أوجدت ألمع نهضة فى تاريخ الإنسانية ، ولن تصلح الإنسانية إلا عليها ، وجانباً ضعيفاً هو إبطاؤه فى الأخذ بالعلم الإنسانى المشاع الذى كانت له حلقات ذهبية فى سلسلة تاريخية وستكون له حلقات ذهبية أخرى فى سلسلة مستقبلة ولقد أجمع الناصحون للشرق بأن نهضته إذا لم تزدوج فيها علوم العصر وأنظمته وصناعاته وروحانية الإسلام وهدايته ونوره ، فعاقبة الشرق المسخ والبوار ولا يرضى عن ذلك إلا شانئ أو غبى آثم .

ومن أخطر الأفكار التى يطرحها توفيق الحكيم بين حين وآخر فكرة (تطوير الشريعة) وقد أعادها ورددها مرات عديدة كأنه مصر عليها بالرغم مما كتب فى الرد عليه حولها .

والحقيقة أن طرح هذه المفاهيم يوحى بأن الدعاة إليها يعرفون الفوارق العميقة بين الإسلام وبين الفكر البشرى الذى يتحدث الناس عن تطوره ، والذى يستلزم إجراء تطوير فيه بالإضافة والحذف حتى يستطيع الملائمة بينه وبين متغيرات الزمن والبيئات ، أما الإسلام فإنه بوصفه منهجاً ربانياً فهو لا يخضع لهذا المفهوم وقد وضعه خالق السموات والأرض والعارف بالعباد والنفس الإنسانية ومراحل التغيير والتطور على مدى الأزمان .

ومن ثم فقد جاء منهج الإسلام مرناً واسع الأطر قابلاً للمتغيرات قادراً على الاستجابة

لاختلاف العصور والأزمان والبيئات وقد أقام الإسلام منهجه على أساس واضح هو : « الثوابت والمتغيرات » وربط الإلهى والزمنى دون أن يحدث هذا اضطراباً على النحو الذى يفهمه أهل الفلسفات المادية والغربية الانشطارية التى تفصل بين الروح والمادة ، والقلب والعقل والدنيا والآخرة .

فللإسلام ثوابته الواضحة التى لا يمكن التحدث عن تطورها أو تغييرها وله حركة المتغيرات المستمرة داخل إطار الثوابت فهو لا يتوقف عن التطور فى الفروع (عن طريق الاجتهاد) والاستجابة للظروف المتغيرة داخل إطار الثوابت فهو لا يتوقف عن التطور فى الفروع والاستجابة للظروف المتغيرة .

أما فكرة تطوير الشريعة التى يجول بفكر بعض التغريبيين والعلمانيين من أجل فتح الباب أمام تقبل الإسلام للربا والخمر وللزنا والميسر والانحلال الاجتماعى والقضاء على المسئولية الفردية والالتزام الخلقى ، فإن هذا كله مستحيل وغير مقبول ولن يكون الإسلام يوماً ما مبرراً لفساد المجتمعات القائمة الآن ، وعلى المجتمعات نفسها أن تصحح طريقها على أساس حكم الله تبارك وتعالى ، وأن يلتزم بالضوابط والحدود التى أقامتها الشريعة الإسلامية من أجل سلامة الحضارة والمجتمع وحماية الأسرة والأفراد ، وأن كل ثرثرة فى هذا المجال لا تستطيع أن تخدع أحداً اليوم فى العالم الإسلامى الذى أجمع على أن الشريعة الإسلامية هى مصدر التشريع ، وأن الذين يقولون بتطوير الشريعة لا يستهدفون الحق أو الخير لأمتهم وإنما هم يرغبون إلى تحقيق غاية من غايات النفوذ الغربى والاستشراق والتغريب بإخراج المسلمين من منهج حياتهم الأصيل .

ومن العجيب أن يحدث هذا فى الوقت الذى يتجه فيه نوابغ الغرب ومفكروه إلى الإسلام والإيمان بأنه أصلح منهج للحياة ، بل ويعتنقونه تاركين مفاهيمهم السابقة من أمثال الدكتور موريس بوكاى والفيلسوف الفرنسى رجاء جارودى والعالم أليسون .

وقد جرت فى السنوات الثلاثين الماضية محاولات لعقد مؤتمرات فى بعض الجامعات الغربية دعى إليها بعض علماء المسلمين من أجل ما أسموه (تطوير الشريعة الإسلامية) بحيث تصبح أداة لتبرير القيم الغربية ، ومن أساليبهم فى هذا التطوير استدراج علماء

المسلمين للكلام فى نقاط معينة من نظم الشريعة تخالف ما استقر عليه عرف الغربيين مما يجرى باسم « المدنية » ؛ وذلك لكى يلجئوهم إلى تحريف نصوص القرآن والحديث والميل بها إلى ما يوافق العادات الغربية السائدة .

والجانب الخطر فى هذه الوجهة هى محاصرة الدين لتضييق دائرة نفوذه وقصرهاعلى شئون العبادات وحجب (المعاملات) التى يقوم عليها تنظيم المجتمع أو فكرة إعادة النظر فى الدين وتطويره ، ووضع تجربة الدين وتجربة النبوة والمعجزات والصلاة والحياة الأخرى كلها موضع البحث وإخضاعها لقوالب علم النفس الحديثة التى تقوم على (الحدس) والتى تخضع نفسها للتغيير والتبديل ، وهى بذلك تجعل الدين مسألة ذوقية وهمية ليس لها وجود حقيقى ، وهناك التطاول على أسلوب الله تبارك وتعالى فى العمل ولما كانت هذه المخططات لم تمت ، وهى تبعث بين حين وآخر فإن محاولة توفيق الحكيم (فى أيامه الأخيرة) هى جرى على هذا الطريق ، ومحاولة لتقديم مجموعة من الأفكار المسمومة فيها الجرأة على الله تبارك وتعالى ، بمثل هذا الحوار الذى يكشف عن خطورة خطيرة فى وقت تحاول الأمة الإسلامية أن تجمع شملها وتتجه إلى الله تبارك وتعالى بالعمل بمنهجه حتى يكشف عنها هذه الأزمات الثقيلة منذ علت صيحة العودة إلى الله بعد نكسة ١٩٦٧ .

وتوفيق الحكيم قد شارك فى مقاومة الصحوة بمحاولاته المتصلة على طريق تغريب الإسلام أو الدعوة إلى تطوير الشريعة ، وكانت خطيئته الكبرى فى كتابة أحاديث جريئة موجهة إلى الله تبارك وتعالى ، وكان قبل ذلك قد أجرى حواراً مع ملك الموت بأسلوب ساخر حول الأجر الإضافى ومن يساعد ملك الموت ، وقد جاء حديثه ذلك مقدمة لتجرؤه بعد ذلك على السخرية من الله جل فى علاه .

* * *

وبعد فقد كانت حياة توفيق الحكيم الفكرية مجموعة من المحاولات الخطيرة لتغريب الفكر الإسلامى وغزوه وفرض مفاهيم الفكر الغربى المرتبط بالفكر اليونانى الوثنى القديم من خلال فرض محاولة (الدراما) التى يراد بها تحويل منابع الفكر الإسلامى من مصادره الأصيلة (القرآن والسنة والتراث الإسلامى)إلى سيطرة المتغربين والعلمانيين ، ومن ذلك

مقولته (إننا لا نسلم مقاليد فكرنا المعاصر إلى علماء المسلمين) (يقصد الفقهاء والمفكرين الإسلاميين والدعاة إلى تأصيل الفكر الإسلامى وحماة الشريعة الإسلامية) وذلك لفتح الطريق إلى الغزو .

ولقد كان مفهوم توفيق الحكيم للإسلام على مدى حياته (كما هو عند جماعة المغربين العلمانيين كلهم) مفهوم غربى علمانى لا يرى الدين إلا صورة من صور العبادات ، وكان أخطر أعماله إقامة المسرحية على تراث التوراة والفكر الوثنى وأساطير اليونان والرومان والفراعنة وكانت أخطر أعماله : مسرح العبث ومسرح اللامعقول .

وكان من أعظم خطاياه : الدعوة إلى ماسماه (اللغة الثالثة)بتغرير العامة لجعلها لغة وسطى بين الفصحى والعامية .

وكانت الدراما من الأعمال الخطيرة لتزييف حقائق التاريخ وتغليب الخط الدرامى على الوقائع التاريخية الأصيلة .

وكانت مقولتهم الزائفة الخادعة دائماً هى أن المسرح ليس ترفاً اجتماعياً أو ثقافياً أو مكاناً لمجرد الضحك وإنما هو معالجة للقضايا الاجتماعية ، ولم يكن التحول من مسرح السامر البسيط إلا محاولة لفرض مفاهيم جديدة تخرج عن إطار الأصالة الاجتماعية وثوابت القيم الأخلاقية ولم تكن عملية (خليل القبانى ويعقوب صنوع) (إلا مقدمة لنقل هذا المسرح اليونانى الوثنى إلى الفكر الإسلامى على مراحل ، فقد كانت الدراما هى العمل الخطير الذى رمى به الفكر الغربى مفهومنا الإسلامى الأصيل القائم على الصدق والحق) .

وقد جاء العمل لتأكيد الدراما وهدم الأصالة عن طريق توفيق الحكيم من وجهة كتابة الدراما كمرحلة بعد خلف الله وأمين الخولى وغيرهم عن طريق تزييف القصص القرآنى ورميه بأنه كذب فنى (على النحو الذى ورد فى كتاب القصص الفنى فى القرآن) ومن أجل ذلك اختير توفيق الحكيم لصدارة منبر الأهرام الذى أنشأه هيكل والذى ضم حسين فوزى ولويس عوض ونجيب محفوظ ثم ضم أحمد بهاء الدين ويوسف إدريس وإحسان عبد القدوس ، ممن أسماهم إبراهيم نافع (عقل مصر بما يضمه من

عمالقة الأدب والفكر الذين كانوا يجتمعون حول الحكيم ليسمعوا آراءه وأفكاره .

وكان قد فتح أبواب الصحافة لتوفيق الحكيم المنظم الأكبر للغزو الفكرى مصطفى أمين فى أخبار اليوم حين قال : إنه حوله من كاتب قصة إلى صحفى .

وقد مضى توفيق الحكيم فى طريقه طوال حكم عبد الناصر ، فلما انتهى العهد وبدأ النقد كان أول من حطم المعبد وكتب (عودة الوعى) وادعى أنه خلال سبعة عشر عاماً كان مخدوعاً وقد وجدت قصص توفيق الحكيم عناية كبرى من الاستشراق الغربى ، وترجمت إلى عدة لغات ، ووضعت لها جوائز تحت عنوان معروف هو (بضاعتنا ردت إلينا) ولقد مضى توفيق الحكيم فلم يترك فناً من فنون المسرح والدراما إلا كتب فيه ، وقدم إنتاجه بحيث أصبح هو الرائد الجامع لكل فنون المسرح .

قال عبد الرحمن زيدان من كتّاب المغرب : إن التعادلية التى هى فلسفة توفيق الحكيم إنما تعبر عن وسطية إصلاحية لا تحسم الصراع ، وإنما تسعى لصالح أطرافه المتنازعة على مستوى واحد ، فقد انساق توفيق الحكيم وراء الغرب وبريقه وأشكال تغييره ، وظل يعمل على التوفيق بين الموروث والغرب (الوافد) ، وكان هذا التوفيق لحساب الغرب وليس لحساب الفكر الإسلامى .

* * *

وكانت مغامرة توفيق الحكيم فى المرحلة الأخيرة من حياته هى خاتمة المطاف بما يوحى أنه أراد أن يبلغ الرسالة التى كلف بها كاملة وأن الوقت لم يعد متسعاً للمناورة ، فألقى قنبلته التى هاجم فيها الإسلام والألوهية فى دفعة واحدة .

يقول أنيس منصور عن أخطر توجيهات توفيق الحكيم فى الفكر العربى الحديث : الذى سمعناه من توفيق الحكيم وهوعلى فراش الموت، وسارع أطباء مصر الدولى بتسجيله لأهميته التاريخية كان عينات من اجتهاده فى الدين والوجدان الدينى فى العصر الحديث ، كان ثورة على الفهم البلاغى للقرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ أى كان تجاوزاً وتخطياً وتخطيئاً أيضاً للنظر إلى القرآن الكريم على أنه مجرد نصوص رائعة البناء بليغة البلاغة وكان ثورة على بعض رجال الدين الذين تجمدوا عند شرح وتشريح كلام الله دون أعماق القرآن الكريم والالتفات إلى أبدية كلام الله وكيف أن الديانة المسيحية قد سبقتنا إلى مثل هذه

المعاناة بسبب ضيق الأفق والتعصب القاتل فى عصور الظلمات وأن الحضارة الأوربية لم تزدهر إلا عندما انطلق رجال الدين بأفكارهم وإيمانهم بأن الله حب ، وأن الدين حرية ، وأن الإنسان شرف ، وأن الحياة كرامة وبعدها تطايرت النظريات وتفجرت العبقريات وكل مرافق العلم النظرى والعملى (أخبار اليوم ١٩٨٧/١٢/٥) هذه هى المقولة المسمومة المبطلة التى كان يلقنها الغرب والاستشراق لأعلامه ورواده ، وكان توفيق الحكيم يلقيها إلى جماعته فيقدمونها فى صورة أو أخرى ، وعلى هذا النحو كان طه حسين ، وكان زكى نجيب محمود وفؤاد زكريا .

والواقع أن هذه المقولة باطلة أصلاً وليس لها أساس من تاريخ الفكر الغربى فى معركته مع المسيحية أو الكنيسة ، وهى ليست مشكلتنا كمسلمين ، فإن العلمانية بكل أبعادها قضية غربية أساساً ، ومن هنا فإن هذا الكلام الزائف لا ينطبق على الفكر الإسلامى المتفتح المرن الذى كان منذ اليوم الأول يمثل منهجاً جامعاً للحياة والمجتمع ولم يكن ديناً لاهوتياً قاصراً على العبادات والتراتيل .

والديانة المسيحية التى يتكلم عنها توفيق الحكيم مختلفة تماماً عن الإسلام فقد جاءت مرحلة من مراحل الدين الذى جاء به موسى ، والذى كانت ركيزته وشريعته فى (التوراة) فلم تكن المسيحية ديناً مستقلاً أو منفصلاً وإنما فعل ذلك (بولس) وهو الذى حولها إلى دين مستقل ولذلك ولأنها لا تملك منهجاً تشريعياً ، فإنها عجزت عن أداء الرسالة وأحدثت هذا الفصل بينها وبين جذورها فى رسالة موسى عليه السلام وفى التوراة هذه الأزمة الخطيرة التى دفعت الكنيسة إلى الاستعلاء بالحكم ودفعت الغرب إلى الانفصال عن الدين جملة ، لأنها وجدت أن مفهوم الدين قد تعثر واختلط ؛ لأنه لم يكن الدين الحق الذى جاء به الأنبياء ، فهذه الأزمة هى فى الحقيقة أزمة الصراع بين الكنيسة والعلماء الغربيين ، فإذا أرادوا أن ينقلوها إلى أفق الإسلام على النحو الذى دعا إليه هؤلاء المغربون العلمانيون ، فهم خاسرون لأن الإسلام سيظل يحتفظ بمنهجه الجامع الكامل الأصيل المرن القادر على مواجهة كل متغيرات الحياة والعصر والبيئة جميعاً .

إن دعوة توفيق الحكيم وغيره إلى هذا يراد بها تحطيم مفهوم الإسلام كشريعة ونظام

مجتمع ، ومحاولة تطبيق منهج على غير مجتمعه ، وقد نسوا أو تناسوا أن الإسلام يختلف تماماً عن هذا المفهوم وعن هذا الوضع جملة .

* * *

ولا مانع من أن نكشف هذا الجانب فى حياة توفيق الحكيم وما يتعلق بنظرية التطور الوجدانى للدين . فقد أشار أنيس منصور إلى أن توفيق الحكيم وضع نظرية (التطور الوجدانى للدين) ولم يكملها وإنما نشر بعضاً منها بحذر شديد وكان نصيبه الهجوم العنيف على الذى كتبه ، ولم يكن قد كتب شيئاً بعد وإنما هو فقط مثل بائع سريح أعلن عن بضاعة ولكن أحداً لم يستوقف البائع ولم يمد يده ليعرف ما الذى يبيع ، سواء كان من إنتاجه هو أو أنه يبيعها لحساب غيره .

لم يتمكن توفيق الحكيم من أن يشرح وأن يؤيد وجهةنظره بما جاء فى القرآن الكريم والحديث والسنة ، ولكن سوء الظن بتوفيق الحكيم قد عجل بمحاسبته على الذى قال والذى كان فى نيته وحتى لا يقول .

لقد ظهرت هذه النية السيئة حين ظهرت مسرحيته عن الرسول ﷺ مع أنه فى هذه المسرحية كان حريصاً على أن يعيد ترتيب ونظم الأحاديث النبوية وما جاء فى السيرة النبوية وكان دوره فيها متعادلاً أى متوازناً ، فهو لم يضف ولم يجتهد وإنما أعاد ترتيب وتنسيق ما هو معروف فقط أما عمله فكان نقدياً ، أى أنه اختار وانتقى فكان تعادلياً أى تعادلت رغبته فى رسم صورة للرسول ﷺ من عيون وألسنة الذين سمعوه ورأوه ونقلوا عنه مع الإطار الفنى الشفاف الذى يكشف الكثير ويعطى القليل احتراماً لعظمة رسول الله ﷺ ، أى ليس أروع مما قاله الرسول ﷺ تصويراً لشخصه الكريم وحكمته البالغة فلم يكن توفيق الحكيم قد اهتدى بعد إلى كلمة التعادلية فى الفلسفة والدين والفن والنقد وقوى الكون » .. هذا النص بالإضافة إلى النص السابق يمكن أن يلقى الضوء على تصور توفيق الحكيم للإسلام وهو فى جملته سير على الطريق الذى بدأه طه حسين حين قال : هل يمكن اعتبار القرآن نصاً أدبياً كما اعتبر اليهود التوراة ؟ وهو متصل بما كتبه خلف الله حول القصص الفنى فى القرآن ، وهى محاولة عرض القرآن على الأوضاع التى عرضت عليها الكتب القديمة

وهو ما نراه اليوم فى كتابات نصر حامد أبو زيد وغيره ﴿ **وما يجحد بآياتنا إلا كلُّ ختار كفور** ﴾ [لقمان : ٣٢] والواقع أن القرآن يختلف اختلافاً واسعاً وعميقاً عن التوراة والإنجيل الموجودين الآن فى أيدى الناس واللذين جرى نقدهما على النحو الذى تحدث عنه طه حسين ويختلف عن الميثولوجيا التى وضع أساسها فى كتاباته عن هامش السيرة .

وقد تأكد هذا من كتابات العديد من كتاب الغرب أنفسهم الذين نشأوا فى أحضان التوراة والإنجيل (العهد القديم والجديد) حين كشفوا عن مدى الخلاف الواسع والعميق بين القرآن الكريم وهذه الكتب التى كتبها الأحبار والرهبان .

﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله** ﴾ [البقرة : ٧٩]

وخير مثل لهذا ماكتبه الدكتور موريس بوكاى فى كتابه (القرآن والإنجيل والتوراة) ودراسته للتوراة والإنجيل وكيف فاجأه القرآن بما لم يكن ينتظره .

لقد مضى توفيق الحكيم على خطوات وئيدة ولكنها لم تنقطع على تجديد دعوة طه حسين بالنظر إلى الإسلام والقرآن بروح النقد وبالنظر إلى القرآن بأنه كتاب بشرى ، وهذا كله يتصل بما سماه تطوير الإسلام .

* * *

ويتمثل التناقض فى فكر توفيق الحكيم وحياته واضحاً فى موقفه من حركة الجيش وما قيل من أن عبد الناصر قرأ له فصلاً عن النهضة كان دافعاً له على ما قام به ، وقد عاش الفترة كلها موالياً ، ثم عاد فهاجم عبد الناصر هجوماً مريراً وأدان عهده إدانة كاملة فى كتابه (عودة الوعى) وخلص إلى نتيجة مؤداها أن هذا العهد قد جر الخراب على مصر وعم الإرهاب كما أنه عهد لم يكن له طيلة تاريخه حسنة واحدة حتى تأميم القناة كان عملاً فاشلاً .

وقال إنه كان فاقد الوعى لايدرى عما كان يحدث ويجرى ذلك أن ناصر كان ساحراً نجح فى تنويمه تنويماً أشبه بالتنويم المغناطيسى ، وقال لويس عوض إنه لا يجوز أن يقول إنه كان نائماً باستهواء الساحر العجيب ولم أفق إلا حين وجدت نفسى فى قاع هاوية ١٩٦٧م .

دعا توفيق الحكيم إلى عدد من قضايا التغريب والغزو الثقافى :

أولاً : الإقليمية المصرية الفرعونية الكارهة للعرب والإسلام على النحو الذى كان يدعو إليه لطفى السيد وكانت له نظرته العميقة إلى مصر والمصرية والحضارات الفرعونية واليونانية والأهرامات والأديرة والكنائس .

ثانيـاً : الحضارة الغربية .

ثالثاً : التبعية للنسق الغربى فى المسرحية والحوار .

رابعاً : الولاء للصهيونية العالمية والتلمودية .

خامساً : الفصل بين العرب ومصر فكل منهما له وضع مختلف ، وكانت له عادة التقاط الكلمات التى تجرى على الألسنة وترديدها ، وكان له موقف بالكراهية إزاء الصحوة الإسلامية ومعارضة إدخال الدين فى المدارس كمادة أساسية .

أما بالنسبة للمجتمع فقد كانت له مجموعة من المفاهيم المغلوطة :

ـ الدعوة إلى العشق والفجور ومحاولة الإيقاع بين الرجل والمرأة .

ـ استنكار الزواج والدعوة إلى الحرية الجنسية .

ـ مهاجمة الطليعة المؤمنة من الفتيات .

وقد عرف عنه أنه قال فى ندوته : « الزواج فى رأيى قيد على حرية الرجل ويجب أن يبحث عن وسيلة أخرى للارتباط بين الرجل والمرأة غير الزواج [مجلة صباح الخير ١٩٧٤/٩/١٢] ».

وقال نجيب محفوظ : أنا لا مانع عندى فى أن يكون للفتاة صديق من الجنس الآخر حتى ولو خالف ذلك رغبة الأهل ، وكان هذا بعض ما تدعو إليه مجلات (حواء ، الشرقية، صباح الخير) .

* * *

ولعل أخطر من ذلك كله ما قاله « توفيق الحكيم » من منطلق هدف واضح خفى

لا يظهره إلا مجزءاً فى مقولات متفرقة ولكنها حين تجمع وتنسق تكشف عن مخطط خطير .

قال : « إن علماء الدين يريدون أن يكون لهم وحدهم تشكيل عقلية هذه الأمة على أساس العلم الذى درسوه فى الكتب المعتمدة عندهم طبقاً للنصوص التى قرءوها فى طريقهم وأقروها وحدها دون أن يقبلوا تطوراً فى أصولها أو أى شىء من المعارف التى تصل تفكيرهم بالحياة على النحو الذى يعيش عليه الجزويت » .

إن تشكيل عقلية الأمة الإسلامية ليس لعلماء الدين فى الأصل ولكنه للقرآن والسنة فهم مبلغون وشراح لهما ، ولكنه كما تعودنا يركز على هدف مادى حتى لا يصطدم مع العقيدة .

ويتدرج فى ذلك شيئاً فشيئاً فيقول : إننا يجب ألا نقف عند حدود المعطيات الأولى التى عرفها العصر الأول فى الإسلام أو الصدر الأول وحدها ولا نتخطاه ونجعلها قيداً لأفكارها أو حداً لا تتخطاه فنظل مئات السنين ندور فى حلقة مفرغة حول عصر واحد فقط ، كأن الإسلام لا يصلح إلا له ولأفكاره وظروفه وحدها وهو عصر الإسلام الأول ، نبنى عليه كل تفكيرنا وننسى أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان » .

ماذا يريد حقيقة توفيق الحكيم من هذه الدعوة المسمومة المغلفة بثوب ناعم خادع ، وهل بنت الأمم وجودها وفكرها إلا على أساس منهجها الربانى وعقيدتها الأصيلة التى شكلت هذه الأمة منذ أربعة عشرقرناً وحمت وجودها هذه العصور .

لقد جعل الإسلام من قواعده الأساسية فى « ثوابته » القاعدة لتطور الفكر والحياة جاعلاً من (المتغيرات) أفقاً واسعاً للانتفاع بتجارب الأمم والحضارات دون أن يطغى ذلك على قاعدة التوحيد الخالص أو مفهوم الإنسان القائم على قبضة الطين ونفخة الروح والجامع بين العقل والوجدان والذى جعل الإسلام سعيه على أساس المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي وفق حدود الله تبارك وتعالي إزاء التكافل الاجتماعي والتعامل الاقتصادى (بعيداً عن خطيئة الربا وخطيئة التحلل الخلقى) .

ولقد كان الإسلام على مدى تاريخه قادراً على العطاء مسايراً لمعطيات الحياة مرناً

لا يواجـه ما تواجهه الأيدلوجيات من الجمود والأزمة ممـا يدفعهـا إلى التغيير والإضـافة والحذف .

إن عيب المغربين والعلمانيين أنهم لم يقرأوا القرآن والإسلام قراءة منصفة وخدعوا بمقـولات الغـرب الذى عـاش مـضطرباً بين مناهج عـاجـزة وذات أهواء وظنوا أن الإسـلام كذلك .

ولا يستطيع توفيق الحكيم أن يفـهـم الحقـائق ويظل حـتى يومه الأخـير لا يرى فى الإسلام إلا دين عبـادة ولا هوت على نحو مـا وجـد فى المسيـحيـة والفكر الغـربى ، إن المسلمين لا يقـدسون التراث ولا يعـملون على إعادته ولكنهم يجعلونه ضوءاً كـاشـفاً إزاء حـقـائق القـرآن والسنة المنزلة التى سـمت عن أن تكون فكراً بشـرياً والتى هى قـمـة العطاء الربانى لبناء الأمم والمجتمعات ، وقد شهد لها الغربيون من أساتذة توفيق الحكيم نفسه وخدع هو مع المخدوعين .

ولا يخفى توفيق الحكيم أثر الغرب على عقليته التى لم تكن تعرف عن الإسلام قبل سفره إليها شيئاً يدفع به عن نفسه ذلك أنه قال :

« نشأت بين العوالم فوجدت نفسى أغنى أغانيهن وألعب بالآلات التى يلعبن عليها »

إنه يقول عن مسرحيته (شهر زاد) التى كتبها بعد عودته من أوربا : كانت صدى للأفكار الكثيرة التى دوت فى ذهنى أثر اتصالى بالفلسفة الأوربية ، كانت الفلسفة الأوربية فى ذلك الوقت تقوم على أساس أن الإنسان هو رب هذا الكون ، وأن الله (جل وعلا عما يقولون علواً كبيراً) قد مات كما قال نيتشه ، وأن المتحكم فى مصائر البشرية هو الإنسان وحده بحريته المطلقةولذلك كانت موجة الإلحاد وإنكار الدين تغمر المحيط الثقافى الأوربى عندما ذهبت إلى باريس فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

ولكن إذا كان توفيق الحكيم قد استكشف الصدمة لما عاد فهل دفعه هذا إلى تصحيح نفسه وعقيدته ، مع الأسف ، لقد كان فى كل هذه النصوص التى نقلناها عنه يتمثل لنا فى غمار هذه المحاولة الخطيرة التى انساق إليها وهى محاولة التغريب حتى عندما كتب

كتاباته المختلطة مما أسماه الحوار مع الله تبارك وتعالى واجتمع القوم عنده يوجهونه إلى الطريق الصحيح ، وكان الاجتراء على مقام الله تبارك وتعالى مما لا يجوز لمسلم أن يتخيل حديثاً مع الله (تبارك وتعالى) فهذا اجتراء على مقامه تبارك وتعالى ، وكان رده عليهم : إننى اجتهدت فى فهم الدين ومن حقى أن أفهم كما أشاء .

قالوا له : إنه ليس من حق أى إنسان أن يقول إنه يفهم الدين كما يشاء ، قد يفهم الدعوات الوضعية (الاشتراكية والديمقراطية) أما الدين السماوى الإلهى فكيف يفهم بما لم يفهمه محمد ﷺ .

إن من خيانة الأمانة أن يفسر الإسلام بعقله ، والقول بأن كل واحد ما دام تعلم وتنور وقرأ كتباً وصحفاً وتثقف فله أن يفهم الدين كما يشاء ، هذا ليس ديناً ، الدين لا يكون ديناً إلا من مدرسة النبوة ، من النبع .

والتجديد فى الدين : ليس هناك تجديد بل علينا أن نرجع إلى القرآن الكريم فى كل شيء والسنة النبوية الصحيحة والاعتماد على « القرطبى » لا يكفى لمن يعرفون الآراء والخلاف .

والعلماء قالوا : لا اجتهاد مع النص ، بمعنى أنه إذا وجد الحكم أو دلالته الواضحة من القرآن والحديث فلا يصح للعلماء المتخصصين فى الدين أن يجتهدوا فضلاً عن أن مثلك يعطى لنفسه حقاً فى أن يجتهد ويخالف إجماع المسلمين ويصر على ذلك .

وكان توفيق الحكيم قد أصدر مجموعة من الأحكام الخاطئة منها حكمه على العلماء غير المسلمين أنهم يدخلون الجنة ، وقال عن شهادة (لا إله إلا الله) : إنها شهادة لغوية ؛ وعندما ذهب له العلماء يناقشونه قال : لا زلت مصراً على أننى غير مقتنع بأنى لم أرتكب خطأ لأن كلامى مع الله كان صريحاً وليكن الأسلوب ما يكون ولكنى لن أغير كلمة منه أبداً ولم يقنعنى أحد منكم بأنى ارتكبت شططاً .

قالوا : كيف أجريت حواراً بينك وبين الله وكيف سمعته يحاجك ؟ المناجاة لله تبارك وتعالى لا بأس بها ولكن أن تعرض تأليفاً وتجعله على لسان الله تبارك وتعالى أن يقول

لك شيئاً وهو لم يقل هذا فى نظر الدين خطر جداً ، ويدخل تحت باب قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾ [سورة الأنعام الآية : ٩٣] لأن التأليف والتخيل غير حق .

لم يستخدم توفيق الحكيم فى مقالاته لفظ الدعاء ولا مرة واحدة ، بل كان يقول : أسألك ، أطلب منك ، ولم يستخدم لفظ التضرع والمناجاة ولا مرة واحدة بل كان يستعمل الألفاظ المستعملة بين المتناظرين أو بين المتماثلين ، ويحس القارىء أن توفيق الحكيم تعالى بنفسه حتى يضع نفسه مع الله فى حوار ، أو نزل بالله عز وجل جلاله إلى درجة حواره ، وقد كان دفاع العلماء عن توفيق الحكيم لا عن حجة يلتزم من يقرأها ولكن عن عاطفة ولا اعتراض على الحديث مع الله (تبارك وتعالى) مادام الحديث من طرف واحد ، الاعتراض على حديث من الله إلى توفيق الحكيم يجترىء فيه على الله فيكتب على لسان الله جل شأنه .

وعندما ينقل كلاماً على لسان الله فكأنه يقيد إرادة الخالق بإرادته هو المخلوق فقد نزع صفة كلام الله الأزلى وأعطاها صفة البشرية الزائلة ، وقيد مرادات الله بمراداته وقيد إرادة الله بإرادته هو .

ومن أخطائه فكرة التسوية بين الأديان السماوية فى قوله : إن الأديان نسبية وإنه كلما مر الزمن جاءهم بدين جديد ونسى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ [آل عمران : ٨٥] . وخطأه فى أن علماء المادة الذين لم يشهدوا بأن لا إله إلا الله سيدخلون الجنة والدفاع عن نيتشه وكيسلر بأنهم لم يقرأوا القرآن والحقيقة أن الغربيين قرأوا القرآن ليستخدموه ضد القرآن وهو يرى أن هؤلاء العلماء سيدخلون الجنة ولو لم ينطقوا بشهادة لا إله إلا الله .

وقال بعض الباحثين مع توفيق الحكيم إن حواره مع العلماء يدل على أمرين : على سذاجة متناهية ومكر عال وأنه قد اجتمع له شيخوخة العمر وطفولة العقيدة ، فالأمور أمامه محدودة بالحدود المادية الصرفة ، وكأنما يريد أن يقايس القرآن والإسلام على عصر واحد ومرحلة واحدة لاتتجاوز هذه الخمسين سنة التى عاشها .

ويسخر توفيق الحكيم من اللغة بينما هذه اللغة التى يسخر منها هى الأساس لكل شىء وهى آية من آيات الله سبحانه وتعالى لتأخذ البشرية حضارتها جيلاً بعد جيل وترتقى وتتقدم ومن المستحيل على البشرية كلها أن يرث جيل الجيل الذى قبله فى العلم إلا باللغة .

* * *

ومن دعاوى توفيق الحكيم فى حواره مع العلماء ما يسمى نسبية الأديان وتعنى النسبية عنده أن يكون الحكم على الشىء متغيراً أو مختلفاً باختلاف انضمام الشىء إلى غيره، والواقع أنه لا يمكن لأى إنسان أن يدعى أن الدين الخالص لله له حكم مع واحد وحكم مع آخر ، فالأحكام على كل خلق الله بلا تفرقة والأديان كلها من الله ، وكيف تكون الأديان من الله سبحانه وتعالى ثم تنطبق عليها النسبية وهى شىء متغير ولا نعتقد أن هناك ديناً قد جاء من السماء يقول : لا إله إلا الله وديناً آخر يقول غير ذلك ، فالدعوة إلى عبادة الله تبارك وتعالى لم تتغير منذ بداية البشرية إلى نهايتها فلا يوجد حكمان متناقضان بالنسبة للشىء الواحد حتى يمكن إن يقال إنها نسبية .

ونسبية الأديان معناها أن الله متغير والله سبحانه وتعالى ثابت لا يتغير ، والعقيدة لم تتغير منذ آدم حتى الآن ولا يوجد أى تناقض أو تقابل ، والعقيدة فى كل الأديان سواء ، وكل نبى جاء بدين يؤكد ما قبله ولا يلغى ما قبله بل يضيف عليه ويصحح ما حرفه البشر إرضاءً لأهوائهم .

[الحوار مع توفيق الحكيم كاملاً فى جريدة اللواء الإسلامى عدد إبريل ١٩٨٣ حضره : الأستاذ الدكتور/ الحسينى هاشم ، الأستاذ الدكتور / موسى لاشين ، الأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم ، الدكتورة عائشة عبد الرحمن ومن خارج الحوار الشيخ محمد متولى الشعراوى]



فكر توفيق الحكيم

١ ـ تأثره الشديد بالفكرة الفرعونية .

٢ ـ فكرته المشوشة عن الأديان خاصة الإسلام

٣ ـ الاعتماد فى أهل الكهف على نظرة فرعونية

ولقد كان لفكرة الحكم المشوشة عن الإسلام عنده هى التى جعلته يخلط بين مصر القديمة والأديان بصفة عامة .

فالمسلم يؤمن بأن هناك انقطاعاً يفصل ما بينه وبين التصورات الوثنية والوضعية كما أنه يؤمن بأن الإسلام وهو دين ممتد من لدن آدم حتى محمد ﷺ يضع التصور المتكامل لعلاقة الإنسان بربه ونفسه والآخرين ويرسم له منهاج الحياة ويحدد معالم المستقبل فى الآخرة .

٤ ـ اعتماده على الأساطير فيقول : كان تحت تأثير مصر القديمة ، لقد قرأت كتاب الموتى والتوراة والأناجيل الأربعة والقرآن .

مسرحية أهل الكهف توحى بأنها ستكون معالجتها من خلال منظور إسلامى ولكنها جاءت مشوشة الفكر والمنهج ، أما عودة الروح فقد تحمل فكرة فرعونية قديمة (الكل فى واحد) أى أن الوجدان الجمعى والشعبى ينتمى فى زعيم واحد أو فرعون واحد .

٥ ـ الترويج لنظرية الفكر الصوفى المنحرف (نظرية وحدة الوجود) وما فى الجبة إلا الله (الحوار صاحب الأسئلة هو نفسه صاحب الإجابات) .

٦ ـ حاول فى المضمون أن يسقط إسقاطات علمانية وإلحادية روج لها الفكر الوافد منذ منتصف القرن الرابع عشر الهجرى انطلاقاً من المفاهيم الكنسية التى لا تنطبق بحال على فكرنا الإسلامى .

٧ ـ قصر الإيمان على المعرفة أو هو ألغى التلفظ بمنطوق الشهادة فهو عنده إيمان

تعبدى لفظى لا معنى له وهذا ولا شك مذهب طائفة من الفلاسفة والمتكلمين المنحرفين ونسى أن الإقرار باللسان هو شرط عند أهل الحق .

٨ ـ خوّلَ لنفسه أن يتكلم باسم الله (قل على لسانى ما تشاء على مسئوليتك) هذا منتهى العبث والاستهتار مما يشعرنا بأن الرجل كان فى حالة غير طبيعية أثناء كتابة هذه الشطحات ، إذ كيف يتجرأ أن يروى كلاماً مكذوباً على الله كهذا .

٩ ـ افترى على الحق حين جعل (العز بن عبد السلام) عاشق غانية يلين لها ويتوسل وما هكذا كان العز بن عبد السلام ولن يكون وقد يكون هذا الانحدار الشائن مدعاة غضب عندما انتقده أمين الخولي في الأهرام وقال : إن الروائى لا يتقيد بالتاريخ .

١٠ ـ قال في أحد أحاديثه : إن كل أعمالى التى تعبت العمر فيها لا قيمة لها ، ضيعت حياتى فى كتب كان يخيل إلى أن لها قيمة، يمكن كانت لها قيمة زمان فى الثلاثينيات والأربعينيات لكن بعد الخمسينيات لا أظن ، وقال : إن أجيال الشباب هى نبت شيطانى بلا أب شرعى ومن يقل لك إن أعماله خالدة فلا تصدقه ، إن الخلود لله تبارك وتعالى .

كتبت العلم المغربية [١٥ / ٨ /١٩٨٧] بقلم : عبد الرزاق إسماعيل هرماس :

لماذا تعمد هذه الوسائل إلى تلميع بعض النماذج التى تأبى إلا أن تكشف عن سوآتها أمام الجميع وحين أقول هذا أذكر جيداً ما نشره توفيق الحكيم عن نفسه خلال السنوات الأخيرة من عمره متصلاً عن تراوحه طيلة حياته بين الولاءات المتعددة نجده يأبى بعد أن بلغ من الكبر عتيا إلا أن يسلط الأضواء على نفسه عن طريق الجدل العقيم فى قضايا العقيدة الإسلامية من خلال مقالاته الأسبوعية فى جريدة الأهرام [بداية ١٩٨٥ ثم بداية ١٩٨٧] هذا من جهة ومن جهة ثانية عن طريق نشر مذكراته الفضائحية بمجلة الوطن العربى [بداية ١٩٨٤] .

فخلال مطلع عام ١٩٨٣ خصصت له الأهرام صفحة أسبوعية نشر فيها سلسلة أحاديث أطلق عليها فى البداية (حديث مع الله) ثم (إلى الله) وأخيراً (مع نفسى) وأورد فى أحاديثه تلك أشياء تطعن مباشرة فى الذات الإلهية وقضايا الصفات مما جعل

علماء الأزهر يواجهونه ، وهو الذى ردد الأطروحات نفسها التى سبقته إليها الدعوات المنحرفة التى واجهت الإسلام قديماً مع نهاية الثلث الأول من عام ١٩٨٣ ، كانت المواجهة قد حميت تلك التى أرخت لها جريدة (الشرق الأوسط) بمقالة : (العاصفة الدينية فى مصر .. علماء الأزهر يواجهون الحكيم) لكن توفيق الحكيم أبى إلا أن يستمر فى عبثه وانتقل إلى الطعن فى العقائد إلى الكلام فى القرآن حيث أراد أن يعلن نفسه كرائد لمدرسة جديدة فى التفسير .

وكان تركيزه دائماً على نصوص قرآنية معينة كقوله تعالى فى سورة يوسف ﴿ **ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ [يوسف : ٢٤] محاولاً من خلال ذلك أن يلفت الأنظار إليه وينفض عن نفسه غبار النسيان خصوصاً وقد ملَّ الناس تقلبه بين المواقف المتناقضة ، أما فى بداية عام ١٩٨٤ فقد بدأ الحكيم مسلسلاً هرائياً آخر سجله مع نبيل مغربى لفائدة مجلة الوطن العربى تحت عنوان (خريف العمر) وقد ركز خلال الجزء الثانى منه (ابتداء من ١٩٨٤/٣/١٦) على ما أسماه (نساء فى حياتى) أو إن أردنا أن نكون أكثر صراحة سمينا ذلك (العبثية والمجون فى حياة الحكيم) .

مع العلم بأن الأديب كرس جزءا من إنتاجه لهذا الموضوع فهو ليس جديداً عنه ، وكان قد أصدر رواية (الرباط المقدس) حيث خصص أحد فصولها وهو بعنوان (الكراسة الحمراء) لوصف حياة الملل فى الحياة الزوجية بين زوجة متحررة التفكير وزوج رجعى (صدرت عام ١٩٤٤) كما جعل بطلة رواية عودة الروح (سنية) نموذجاً للمراهقة العابثة المنحلة .

إنما الجديد بالنسبة لحكيم الثمانينيات هو أنه صار يدعو المرأة من خلال (الوطن العربى) إلى التحلل والفساد إلى الحلقة ١٨ من خريف الغضب التى خصصها لموضوع (الخيانة الزوجية) دعاها صراحة إلى ممارسة هذه الرذيلة الممقوتة لأن الباعث الذى كان يحول دون ذلك سابقاً ـ حسب منطق الحكيم ، هو اختلاط الأنساب أما الآن فقد زال هذا الباعث بوجود الحبة المانعة للحمل ، وبالتالى فإن الزوجة سوف تأخذ الاحتياطات اللازمة قبل أن تقدم على نزوتها وهكذا فإن هذا الجانب قد سوى .

ويقرر أيضاً فى الحلقة نفسها بأن الأفلام الجنسية ليست كلها سيئة عندما نتيح للناس أن يستخرجوا منها حقائق حيوية .

ثم انتقل ليتحدث عن تجاربه مع بغايا فرنسا يوم كان يدرس هناك ، وهذه الحلقة من الخريف حافلة بأفحش ما عرف فى معجم السلوكيات المرذولة والمنحطة .

وفى عام ١٩٨٥ نجد الأهرام على عهدها تخصص الصفحة الأسبوعية لنشر هراء الحكيم الذى صار يتحدث كثيراً عن التفكير والاجتهاد وكأن العالم الإسلامى خلا من مفكر سواه .

وفى ذكرى الإسراء والمعراج عام ١٤٠٥ استغل الصفحة ليشكك فى هذه المعجزة ناسباً الشك فيها (بالكفر) إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهكذا صار الذى ذهب إلى فرنسا ليدرس القانون ثم فشل فيه وتسكع فى شوارعها باعترافه بنفسه يطرح نفسه الآن كمفكر فى دين لا يعرف عنه شيئاً ولا يؤمن بمعجزاته .

لقد نصب الحكيم نفسه من خلال الأهرام عالماً دينياً وراح يتحدث انطلاقاً من الإسراء والمعراج – عن بشرية الرسول ﷺ – التى يبدو أنه أول من اكتشفها ولكن متى كان للحكيم أن يتكلم فى أمور الدين وقد خصص حياته لخدمة المسرح بل وحكم على نفسه بفقدان الوعى لأكثر من ربع قرن ، وصدق الشاعر محمود مفلح حين وصف حال هذا الكاتب الذى تحول هو ذاته إلى مسرحية بقوله :

خرف الحكيم فما اليوم ⠀⠀⠀ إسلام في خطل سقيم

قالوا : تمادي في الضلالة ⠀⠀⠀ قلت : مرتعه وخيم

يلهو على كبر السنين ⠀⠀⠀ كأنه الطفل الفطيم

في آخر الزمن العقيم ⠀⠀⠀ يسوءك الرجل العقيم

جل الإله أأنت تسمعه ⠀⠀⠀ أأنت له كليم

ما أنت إلا ذرة ⠀⠀⠀ في قاع عالمه تعوم

إن المرء ليأسف حين تطالعه مقالات الإثراء التى نشرت بمناسبة وفاة الحكيم والتى وصفته بكل الصفات العبقرية بالرغم من أنه هو ذاته وصف نفسه بأنه فاقد الوعى فى عهد عبد الناصر ، وصف نفسه ثانية بأنه مخدوع فى عهد خلفه ويبدو أن وعيه خلال المرحلة الأخيرة من حياته قد أحيل على التقاعد بعد أن أنهكته كثرة التراوحات ، إن الحقيقة أكبر من أن تجليها هذه الأسطر فأنا أتساءل اليوم : لماذا تترجم مسرحيات الحكيم إلى العديد من اللغات فى حين نهمل أعمال الكثيرين غيره .

ولكن جزءاً من الحقيقة يتجلى لنا واضحاً إذا عرفنا أن الحكيم ذاته هو أحد الذين وصفوا إسرائيل بأنها الدولة المتحضرة .

لقد فضح الحكيم نفسه فى حياته على صفحات الجرائد والمجلات ، أما الكثيرون ممن يكتبون عنه فإنهم يستحيون من ـ أن يصفوه بما وصف به نفسه ؛ لماذا يتعامل المثقفون مع بعض الكتاب فى نفسه حين يرجع إليها وإذا كان هذا الإجلال البالغ قد انغرس فى (لاوعينا) ولا نستطيع التخلص منه ، فلماذا لا نجعله من نصيب الحقيقة بدل أن يكون من نصيب الأشخاص .

* * *



لويس عَوَض

كانت مهمة لويس عوض ثقيلة لأنها كانت متعددة الجوانب ليغطى مطامح العلمانية والاستشراق وتاريخ الكنيسة والتلمود وتراث الإغريق والرومان والثورة الفرنسية وبالذات تاريخ الفرعونية ، يظهر هذا واضحاً فى عناوين الموضوعات والقضايا التى شغلت لويس عوض خلال حياته كلها :

١ ـ إحياء الأسطورة من خلال التاريخ الوثنى كله وآثار اليونان والرومان

٢ ـ تدمير اللغة العربية الفصحى : لغة القرآن وإعلاء العامية

٣ ـ تكريم الثورة الفرنسية التى صنعها اليهود

٤ ـ إسقاط جمال الدين الأفغانى داعية الجامعة الإسلامية وتتويج الخائن يعقوب

٥ ـ إعلاء الفرعونية المسيحية

٦ ـ ولاء مسيحى ويهودى مزدوج متصل أساساً بالماسونية

٧ ـ الدعوة إلى القومية المصرية الفرعونية

٨ ـ محاولة إيجاد « دراما » عربية مستمدة من حثالات الشعوب والأمم .

* * *

كانت محاولات لويس عوض ومن وراءه ومن معه لإحداث ثغرة فى الفكر العربى الإسلامى من أجل الوصول إلى قبول التبعية الغربية ومفاهيم الفكر الغربى (المادى الوثنى الإلحادى) المختلفة مع الفكر الإسلامى خاصة الاشتراكية والعلمانية .

ولكن بالرغم من كل ماكتبه لويس عوض من تراث ضخم قوامه ترجمة الفكر اليونانى والفكر الغربى القائم على الفلسفة المادية ولكنه لم يستطع أن يصل إلى أى عقل أو وجدان مصرى نتيجة لطابع الاستعلاء والحقد الموروث الذى كان يملأ نفس هذا الكاتب وكانت

التبعة على الذى صدروه لأنهم عجزوا عن فهم نفسية الأمة ومدى نفوذها من بدائل غامضة تضع يعقوب الخائن فى مقام عمر مكرم بتزييف الوثائق والنصوص والحقائق ، ومن هنا جاءت كتاباته كلها وليس كتابه عن تاريخ الفكر المصرى الحديث مسمومة مرفوضة حيث لم يعرف الناس ما يسمى الفكر المصرى (وإنما الفكر العربى الإسلامى) .

وقد كان وصف غالى شكرى له بأنه المشروع الذى مات قبل أن يولد صحيحاً إلى حد ما ، وقد كانت كل محاولات لويس عوض فاشلة ، يرتد منها بالهزيمة الساحقة ، وقد عم الفشل مخططه كله وحلقات عمله كلها بالرغم من دفع أصحاب الولاء له حتى ليمكن القول أن ما يسمى (مشروع لويس عوض) لم يكن إلا مجموعة من الأحقاد .

لقد حاول لويس عوض أن يخدع الناس حين قال إنه تلميذ لطه حسين والعقاد والحقيقة أن سلامة موسى هو مثله الأعلى الذى رسم له كما رسم لآخرين أمثال غالى شكرى وغيره ولكنه يخفى هذا الاتجاه حتى يكسب به بعض أغرار المسلمين الذين لا يعرفون هدفه ومطامعه ، وهو فى كل القضايا التى أثارها متابع ومكمل لعمل سلامة موسى.

لقد هاجم سلامة موسى اللغة العربية فجاء لويس عوض يؤلف بالعامية كتباً (أمثال مذكرات طالب بعثة) وديوان شعر كامل بالعامية (بلوتو لاند) وكان أخطر من ذلك كله كتابه (مقدمة فى فقه اللغة) ؛ وهكذا فى كل القضايا التى أثارها التغريب جملة .

ومن يطالع قائمة كتب الدكتور لويس عوض يتأكد له تماماً ذلك الإصرار على (تشويه) كل مقومات الفكر الإسلامى عن طريق الأدب أو طريق التاريخ أو عن طريق هدم القيم الأساسية أو بعث التراث الفرعونى والتراث اليونانى ، وهو يريد أن يقول : إن الفكر الإسلامى الحديث كله (يسميه الفكر العربى) مدين للمؤثرات الأجنبية وليس فيه شىء أصيل ، وهو حريص على أن يترجم المذاهب والنظم الغربية ومفاهيم الحرية والعالمية (الهومتزم) وتصور هذه الأمة على أنها مسلسلة بقيود شديدة إلى التبعية وإلى الانطلاق من خلال ما فرضه عليها النفوذ الأجنبى ومدارس الإرساليات وكتابات المستشرقين ودعوات المبشرين ، وهو حريص على أن يثبت أن كل القيم الإسلامية الأساسية قد انتهت وانطفأ

نورها وأن الأجيال الجديدة قد أصبحت مغرّبة تماماً وأنه لا عودة إلى الوراء أبداً ، وهو يبشر أهله الذين وكلوه بأن الأمور سائرة إلى ما يريدون ولم تبق إلا خطوات قليلة حتى يجدوا هذه الأمة قد استسلمت وتغربت وانصهرت فى بوتقة التبعية الكاملة وهو حين يكتب عن التاريخ المصرى القومى لا يجد بطولة إلا بطولة المعلم يعقوب الذى خان مصر وهرب مع الحملة الفرنسية ومات فى الطريق إلى فرنسا وهو حين يكتب عن اللغة يتهم الفصحى (لغة القرآن) بأنها لغة متصدعة ويجمع لها من هنا ومن هناك ما يحاول به أن ينكر أصالتها .

ومن خلال حياته الطويلة لم يترك مجالاً ينفث فيه سمومه إلا سارع إليه وقد فتح له الذين جندوه كل الصحف العالمية والشهيرة ، فضلاً عن الكتب والمحاضرات فى جميع الجامعات العالمية الشهيرة .

ففى الشعر : حاول هدم القصيدة العربية وأعلى شأن كتاب قصيدة النثر

وفى التاريخ : انتقص الأبطال والمجاهدين وأعلى شأن الخونة

وفى الترجمة : قدم كل سموم الفكر اليونانى والأدب العربى

وكان فى كل كتاباته عن الفكر الإسلامى يحمل طابع الحقد والكراهية والانتقاص ظناً منه أنه بذلك يخدم الفكر الغربى المسيحى ولكن كل الناس تعرف من هو (لويس عوض) وتعرف هدفه وتعرف وجهته فلم يكن فيه شىء يخفى عن القارىء المسلم أو شىء يكسبه ثقة القارىء أياً كان دينه .

* * *

ولقد كان من أخطاء التغريب والغزو الثقافى وقصور التوجه الإسلامى أن جعل المثقف العربى يعجب بعدو أمته ودينه ويقع فى شرك الخداع بما يسمى حرية الفكر أو تخدعه الأسماء اللامعة ، أو يعجب بالمقولات التى يغلب عليها بريق العصرية أو التقدمية ، ومن هنا نجد كثيراً من المتصدرين فى مجال الصحافة أو الثقافة ينخدعون لأعداء أمتهم الذين حملوا لواء الهجوم والحقد والكراهية أعواماً طوالاً تحت اسم (التنوير) و (التقدم) ولو أنهم استطاعوا أن يؤمنوا بالمنهج العلمى الأصيل والصحيح المستمد من القرآن الكريم لعجز هؤلاء المغربون عن خداعهم ولا نكشف لهم من حقيقتهم ما يجعلهم يدركون مدى الأخطار التى تتعرض لها الأمة من جراء الاستماع إليهم أو وضعهم موضع التصدير ولو أن أحداً

استعرض أسماء كتب الدكتور لويس عوض وحدها لكان ذلك كافياً ليكشف حقيقة هذا المخادع الأكبر ولعرف كيف كان مشروع حياة الدكتور لويس منذ اليوم الأول هو هدم مقومات هذه الأمة من خلال :

ـ الدعوة إلى العامية

ـ التشكيك فى سلامة اللغة العربية

ـ تزوير التاريخ بإعلاء أعداء مصر أمثال الجنرال يعقوب

ـ كراهية العروبة والإسلام والدعوة إلى الفرعونية

ولقد شاء الله تبارك وتعالى أن يواجه لويس عوض منذ يومه الأول إلى يومه الأخير معارضة لأفكاره وازدراء لها وشجباً واضحاً وكشف عن زيفها بحيث انهزم فى كل معركة دخلها ولم يزده إصراره على الباطل إلا كراهية ونبذاً .

لقد جاء لويس عوض فى عصر اليقظة فانهزمت دعاواه وظهر باطله وخبا تنويره ، وما من أحد تحدث عن لويس عوض إلا ربطه بخط طه حسين فى محاولة لتغطية هدفه الدفين والحقيقة أن لويس عوض هو تلميذ سلامة موسى بالفكر والعقيدة وأحمال المواريث المختلفة وخط واحد هو هدم القيم الإسلامية العربية إتماماً لرسالة الحقد المتسلط ومع ذلك فإن أكثر من كرموه وأشادوا به هم من العرب المسلمين الذين هاجم قيمهم وازدرى مفاهيمهم وعقائدهم .

ويتباكى تلميذه (ثالث ثلاثة) غالى شكرى على أن مشروع لويس عوض قد انتهى قبل أن يبدأ لأنه هو الذى اختار هذا الطريق يوم أقسم فى كمبردج على أن لا يكتب كلمة باللغة الفصحى وحين وضع ديوانه (بلوتو لاند) لهذا الغرض فأصبح وثيقة تدينه ولا يستطيع من تبعتها فكاكاً .

ونحن نسأل أى (تنوير) قدمه لويس عوض وأى عطاء قدمه للأدب العربى غير ترجماته من اللغات الأوربية التى حاول عن طريقها إدخال كل مساءات الآداب الأوربية وسمومها وفسادها وإباحياتها ، وغير الاهتمام بالتراث اليونانى القديم : تراث الأساطير

والخرافات التى كان (طه حسين وغيره) حريصين على أن ينقلوها إلى اللغة العربية بعد أن تنكر له علماء المسلمين وأئمتهم فى عصر الترجمة الأول ورفضوا نقله وترجمته حتى جاء عصر التغريب وفرض هذه الترجمات ، كل إباحيات وكفريات وأساطير الرومان واليونان وكانوا يزدهون بأنهم أدخلوا إلى العربية مادة ظنوا أنها قادرة على هدم مقومات هذه الأمة ، كما فعل الذين قدموا الفكر الفلسفى والباطنى والمجوسى والهندى والإغريقى .

إنها الحرب المدبرة والمبيتة ضد الإسلام من خلال اللغة والتراث والترجمة ، تحت اسم التنوير بمفهومه، وكان آخر ما شغل لويس عوض تقديم الثورة الفرنسية إلينا بمفهوم (البروتوكولات) على أنها قمة أحداث العالم وكأنه لم يكتب عنها من قبل المنصفون من أبناء فرنسا الذين كشفوا عن أنها لعبة الصهيونية التى رسخت وجود الماسونية فى الغرب وامتدت إلى العالم كله ، ولكن الأزمة الكبرى التى واجهت لويس عوض وأزعجته هى (الصحوة الإسلامية) فقد أحس أن كل العمل الذى قام به رجالهم على مدى مائة عام قد تبدد وأن البناء الذى أقاموه قد تحطم وسقط ، وأن موجاً عاصفاً قد اندفع ليبتلعهم ولذلك كانت حملتهم شديدة وعاصفة على ما أسموه (الرجعية والسلفية والتخلف) وهى المصطلحات التى واجهوا بها اليقظة والصحوة الإسلاميتين حين ظنوا أن ما قدموه قد تناثر بين أيديهم وكانوا يظنون أن التغريب قد حقق أهدافه خلال مائة سنة وأنهم يقفزون الآن على الأشواك ليصلوا إلى أمة مغربة تماماً تصلح للتبعية التامة لحضارة الغرب المنهارة ولفكره الإباحى والإلحادى الذى استشرى تماماًولذلك كان عجبهم شديداً أن عاد المسلمون إلى أصولهم ومناهجهم ، وعرفوا أن رحلة الخداع التى ساقها إليهم فيها طه حسين وعلى عبد الرزاق وزكى نجيب محمود وسلامة موسى قد انتهت ، وأن رحلة العودة إلى المنابع قد بدأت فعلاً .

تلك هى أزمة لويس عوض الحقيقية التى تكشف عنها كل كتاباته الأخيرة .

* * *

الحرب على التراث

كانت الحرب على التراث الإسلامى أبرز مهام الدكتور لويس عوض التى حشد لها خبرته وتجاربه ووسائطه المستمدة من الاستشراق والتبشير ، ولم يكن الحرب على التراث قائماً بوصفه قديم وجامد وحجر عثرة فى طريق التقدم والنهضة فحسب ، بل كان ستاراً يخفى وراءه الحملة على الإسلام والقرآن : هذه القيم التى تكون كراهيتها أول ما يغرسه المستشرقون فى نفوس العرب الذين يلتقون بهم سواء فى البعثات الخارجية أو التدريس فى الجامعات فإذا أتيح لهم أن يجدوا أمثال سلامة موسى ولويس عوض ومراد وهبة فإن الأمر يكون واضحاً صريحاً ، ولقد وجد لويس عوض فى سنوات الجامعة ذلك المعلم الكبير المتصدر لجمعية الشبان المسيحيين (سلامة موسى) وله غرفته الخاصة التى يلتقى فيها بأولئك الذين أعجبوا به على النحو الذى وصفه نعمان عاشور لذلك اللقاء .

أما حديثه عن الإعجاب بطه حسين والعقاد فليست إلا تغطية يراد بها خداع القارىء عن الوجهة الحقيقية .

وإذا كان سلامة موسى قد استطاع أن يكسب لتجارته : نجيب محفوظ ونعمان عاشور وعبد الحميد حمروش فقد كان مكسبه كبيراً بأمثال لويس عوض ومراد وهبة .

وكان المنطلق دائماً هو الحملة على التراث الإسلامى والقديم العربى وحده من ناحية، والوحدة العربية واللغة العربية فى سبيل إعلاء قديم آخر ، هو التراث اليونانى ، والدعوة إلى الفرعونية ، وهما سابقان على الإسلام الذى يوصف بأنه قديم، فهل يترك الإسلام (الدين المنزل) من عند الله تبارك وتعالى ويزدرى وينتقص ليعلى من شأن أساطير اليونان والرومان والفراعنة السابقة للإسلام ، هذا من العجب الذى لا تقبله العقول ، ولكنه يخضع للأهواء الحاقدة على الإسلام وأهله .

ويصور الدكتور محمد عنانى لقاءه الأول مع لويس عوض فيكشف عن اللمحة الدالة وكيف تتركز على ألفاظ اللغة العربية التى قدمها له فى ترجمته وهل هى قديمة أم محدثة ولا ريب أن كراهية الدكتور عنانى للتراث على النحو الذى كشف عنه بعض ناقديه ترجع

إلى هذا المصدر الأول ، إلى لويس عوض الذى أثار فى نفسه تلك الكراهية الغامرة التى كشفت عنه كتاباته .

وإذا كان سلامة موسى قد هاجم اللغة العربية والأدب العربى فإن لويس عوض ذهب إلى أبعد من ذلك كثيراً فقد هاجم التاريخ والتراث والقرآن ودعا إلى الفرعونية وإحياء تراث اليونان وترجم كثيراً من الأساطير ظناً منه أنها ستستطيع أن تحول وجهة الحياة الاجتماعية فى مصر والبلاد العربية .

فهو منذ اليوم الأول ارتبط بجماعة يوسف الخال فى بيروت الذى كان يدعو إلى الشعر الحر والذى احتضن مجموعة من شعراء مصر أمثال صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى ، وكانت العبارة التوراتية هى مصطلحهم وكانت الأساطير هى منطلقهم ، وحاول أن يوفق بين الماركسية والعلمانية الغربية فى منطلق هدام بالغ الخطورة .

وكان لويس عوض قد أعد نفسه فى رحلة التعليم فى أوربا (فرنسا وبريطانيا) على عمل خطير : وهو تحطيم عمود الشعر وضرب اللغة العربية الفصحى فى الصميم فى ديوانه (بلوتو لاند) الذى نظمه فى كمبردج (١٩٣٨ ـ ١٩٤٠) حيث اجترأ على اللغة العربية فكانت هدفه الأول فكتب فى المقدمة (حطموا عمود الشعر العربى) وتبعه بالدعوة إلى انسلاخ مصر من عروبتها وقوميتها ولكنه واجه جداراً صلباً فتراجع عن عهده الذى عاهده للثلوج الغزيرة فى خلوة مشهورة بين أشجار الدردار عند الشلال بكمبردج ألا يخط كلمة واحدة إلا باللهجة العامية (ويسميها اللغة المصرية) بها كتب « مذكرات طالب بعثة » .

ولكنه وجد نفسه مبعداً عن القارىء العربى فاضطر إلى الكتابة باللغة العربية الفصحى ـ وهذا هو ما حدث لسلامة موسى الذى دعا إلى العامية وعجز عن الكتابة بها ، لقد دعا لويس عوض إلى العامية فهل نجحت دعوته إلى اليوم ؟ ودعا لويس عوض إلى تحطيم عمود الشعر فهل تحطم بعد خمسين عاماً ؟

لقد واجه لويس عوض ما لم يواجهه سلامة موسى : واجه الصحوة الإسلامية التى حملت لواء بلاغة القرآن الكريم والسنة المطهرة وأحيت التراث الإسلامى فى كل جوانبه

خاصة فى مجال اللغة والسنة والفقه والعلوم والتربية والأخلاق والاجتماع على نحو مكثف هز نفسية هذا الداعية إلى ما تجاوزه العصر .

لقد ظن لويس عوض أن الشعر العربى مات بموت شوقى ولكن أصالة البيان العربى لم تتوقف عن العطاء ومنى الشعر الحر الذى دعا إليه وآزره بالهزيمة والانهيار .

لقد صدق الأستاذ سليمان جودة في مقولته : إن لويس عوض عاش خمسين سنة من عمره فى السباحة ضد التيار والذى أعد نفسه منذ البداية لمرحلة الصدام واللاتفاهم مع المجتمع ، وهذا صدق وحق فقد كان لويس عوض حريصاً على أن يفتن هذا المجتمع من داخله فتنة تمزقه إرباً وتدفعه إلى الصراع العميق ، ومهما حاول غالى شكرى أن يضعه فى صف مندور ونجيب محفوظ وآخرين بوصفهم صفاً واحداً في الجامعة ، فإن ذلك كله تمويه يراد به الخداع عن وجهة لويس عوض الخاصة القائمة على إذاعة الرأى المعارض لطبيعة المجتمع وثقافته وعقيدته وطابعه الذى تشكل منذ أربعة عشر قرناً ، لقد استعان في سبيل ذلك بسماحة المجتمع وسعة صدره بجميع أبنائه وبالوعى العميق الذى يحفظ له خاصيته الأساسية وانصرافه عمن يعرف عنهم الحقد أو التآمر ، أن يخفى وراء كلمات براقة لحرية الفكر وعالمية الثقافة وإنسانية الأدب وكلها كلمات تخدع السذج والأغرار وهى أكذوبات مشهورة ، فليس هناك شيء يسمى (حرية الفكر) إذ إن لكل حرية ضوابط وليس هناك ما يسمى عالمية الثقافة ذلك لأن لكل أمة ثقافة تستمدها من عقيدتها ولغتها وتاريخها وتراثها ، كل ذلك كان يحاول لويس عوض التمويه فيه والخداع به ، وشأن المسلمين فى هذا هو ما أوصى به القرآن الكريم ﴿ **فأعرض عنهم وتوكل على الله** ﴾ [النساء : ٨١] ، ولعلك تعجب حين يقول أحمد عبد المعطى حجازى : إن أول محاضرة ألقاها لويس عوض فى حياته كانت تدور حول الفكرة التى قام عليها عمل الروائى الإنجليزى (د . هـ . لورنس) المعروف بالدعوة إلى الكشف والجنس فى دعوة مستميتة إلى التخلص من كل قيم الخلق والضوابط الاجتماعية تحت اسم (إطلاق الطبيعة البشرية) بدلاً من ضبطها وتنظيمها ، وهو مفهوم متعارض تمام التعارض للدين الحق .

ثم مضى إلى إحياء الأساطير : أساطير اليونان والرومان وإذاعتها وأضاف إليها القصص

الذى كتبه المشهورون من شعراء وقصاصى الغرب الذين كانوا يحققون هدفاً بالغ الأهمية وهو نشر الفكر الماسونى فى العرب ودعوة الأجيال والأمم إلى التحرر من الدين بعامة والأخلاق بصفة خاصة .

تلك هى مهمته الحقيقية التى شغل بها نفسه فى محاولة لإعلاء تراث الفرعونية والتراث المجوسى والإغريقى : هذا التراث الذى جاءت الأديان المنزلة لتدميره وتحطيمه .

ومضى إلى تشجيع شعراء العامية وقصيدة النثر فى اهتمام بالغ ورعاية واسعة حتى كانوا يدخلون فى شعرهم كلمات من التوراة (الكتاب المقدس) لإرضائه حتى ينالوا ما ناله صلاح عبد الصبور الذى أعطاه لقب أمير الشعراء لحفاوته بكلمات الإنجيل .

* * *

الحرب على اللغة العربية الفصحى : لغة القرآن الكريم

عمل لويس عوض فى هذا الميدان على عدة أوجه: كانت حملته (أولا) على عمود الشعر فى ديوان (بروتولاند) الذى كتبه بالعامية ، ثم كانت حملته الخطيرة من خلال كتاب (مقدمة فى فقه اللغة) كان قصد المؤلف من هذا العمل الواضح من مصادره الخفية ما جمعه المستشرقون والمبشرون وأهدوه إلى أصحابهم فقد قصد المؤلف بالكتاب النيل من الإسلام واللغة العربية : لغة القرآن زاعماً أن ما تضمنه الكتاب هو نتيجة دراسة وعلم وتحقيق .

حاول المؤلف ربط القول بقدم القرآن فى الإسلام انطلاقاً من نظرية اللجوس المسيحية والتى تقول بقدم الكلمة وهو بذلك يعتبر أن القول بقدم القرآن منقول عن هذه النظرية ويقول : إن علماء الإسلام اجتهدوا فى أن يضعوا نظرية الوحى فى الإسلام على طريقة نظرية لاجوس ، ويشير إلى أن نظرية الخلق فى الإسلام ما هى إلا كن فيكون ، وكلمة اللجوس مرادفة لعبارة روح الله ككلماته .

والمؤلف يهدف من ذلك إلى القول بأن علماء الإسلام نقلوا من غيرهم ما ليس له أصل فى دينهم ، ويحور المؤلف كلمة (صمد) فى سورة الإخلاص فى محاولة خاطئة

بأنها تدل على التثليث وأنها كلمة غامضة المعنى ومحيرة منها حيث عقد مقارنة بين كلمتى (صمد) القرآنية و (خمت) المصرية القديمة حاول جعل كل منهما مساوية للأخرى ، وذكر أن كلمة (خمت) تساوى ثلاثة وعلى ذلك تكون كلمة (صمد) العربية تعنى ثلاثة وهذا منتهى التعسف فى التخريج .

ولقد كان الكتاب كله تهجمًا على بعض النصوص القرآنية ووصفها بأنها من قبيل التشنجات البشرية وعلى ذلك لا يكون وحياً من عند الله وأن الإسلام ينطوى على العنصرية والطبقيــة .

ويدعى أن الخوارج والشيعة يمثلان ثورة واحتجاجاً على سيادة النبى العربى على الشعوب الإسلامية باسم اللغة والدين واتهم أئمة الإسلام بالعصبية والعنصرية لمجرد أنهم قالوا إن الإسلام يخلو من الألفاظ والتراكيب الأعجمية فى اللغة العربية حتى تفقد شخصيتها ، والكتاب يدعى أن اللغة العربية ليست أصيلة وأنها متفرعة من المجموعة الهندية الأوربية وكانت تلك أخطر دعاويه الزائفة .

وكذلك من زائف ما ادعاه : أن المصريين المسلمين رغم قبولهم للثقافة الإسلامية لم يأخذوا اللغة العربية مأخذاً حرفياً وإنما امتصوا فيها الكثير من عناصر اللغة الفينيقية وهى مرحلة من مراحل اللغة المصرية القديمة الديمقراطية ـ أى العامية ـ التى كانوا يتكلمونها قبل دخول الإسلام ، وهكذا ظهرت بين الكافة من المصريين العامية المصرية .

ولقد سجل كثير من الباحثين خطأ لويس عوض وتقحمه فى المسائل الاعتقادية الإسلامية ، بعد أن كان ذلك بضاعة المستشرقين فى الأزمان الماضية (كما يقول عبد الحكيم قاسم) ثم هبت الرياح الجديدة على بحوثهم فنقلتها من أردانها التى تراكمت على عدتها وعلاتها .

والواقع أن لويس عوض كان له رأى محدد فى اللغة العربية فهو يعلنه بوضوح :

١ ـ أن اللغة العربية مثل اللغة اللاتينية .

٢ ـ أن اللغة اللاتينية لغة ميتة وكذلك ينبغى أن تكون اللغة العربية .

٣ ـ اللغة اللاتينية تفرعت إلى لهجات هى الفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية وقد تحولت هذه اللهجات إلى لغات وكذلك تحولت اللغة العربية إلى لهجات (المصرية ـ السودانية ـ العراقية ـ الشامية ـ الخليجية) والمفروض أن تتحول هذه اللهجات إلى لغات منفصلة تماماً عن الأصل وعن بعضها البعض .

وقد نادى لويس بهذا الرأى فى مقدمة ديوانه (بلوتولاند) عام ١٩٤٧ وعاد إلى هذا الرأى ١٩٧٨ فى مقال بجريدة الأهرام ١٩٧٨/٥/١١ حيث يعود ويكرر بكل وضوح أن اللهجات العامية العربية تشبه اللهجات اللاتينية التى كانت تعيش فى أوربا قبل خمسمائة سنة وقد انتهت هذه اللهجات إلى قيام عدد من اللغات الأوربية الجديدة وهى : الفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية .

وهكذا كرر عام ١٩٧٨ ما قاله قبل ثلاثين عاماً ولم يغير رأيه ولم يتخل عنه ، ولقد كانت مقولته أن موجة الهكسوس التى وفدت إلى مصر واستمرت قرناً ونصف قد اتجهت إلى الجزيرة العربية والحجاز بالذات واستقرت فيها ، فهذا قول ليس له من سند تاريخى يؤيد هذا الكلام أو الافتراض الذى وضعه ، أما الحقائق فتقول : إن الهكسوس بعد خروجهم من مصر اختفوا جملة من مسرح التاريخ (محمود خالص) .

ومن أشد دعاويه بطلاناً مقولته : أن العرب موجة ظهرت من الموجات التى نزلت على شبه الجزيرة العربية ، من القوقاز والمنطقة المحيطة ببحر قزوين ، والبحر الأسود نحو ١٠٠٠ ق . م ، وخالطوا السكان الأصليين ، وقد بنى على هذا التصور الباطل نتيجتين :

١ ـ أن اللغة العربية فرع من فروع الشجرة التى خرجت منها المجموعة الهندية الأوربية

٢ ـ أن رصد بعض قوانين التحول الفويطيقى فى اللغة العربية تشير إلى وجود علاقة بينها وبين القوطية واللغة الجرمانية القديمة ، وهى محاولة ترمى إلى زعزعة مكانة اللغة العربية بوصفها لغة القرآن ، وقد اعتمد فى دعواه على بعض الكتب القديمة فى محاولة للادعاء بأن معظم كلمات العربية من الكلمات الأجنبية الدخيلة حيث توجد عدة كتب منها (المعرب فى الكلام الأعجمى على حروف المعجم للجواليقى ٥٤٠ هـ) حيث لم يتجاوز عدد الألفاظ المستعارة فى اللغة العربية والتى جمعها الجواليقى ١٥٠٠ كلمة على

وجه التقريب .

وأحدث النظريات حول وجود مفردات أجنبية فى اللغة العربية فى رأى (القاضى عبد الجبار المتوفى ٤١٥ هـ) وملخص هذا الرأى أن الألفاظ الأجنبية المستعارة ذاتها تصبح ألفاظاً عربية ، ما دامت قد عربت واستعربت كجزء من عمود اللغة ، وما دامت قد اتبعت قواعد الصرف فى مهجرها الجديد .

وكل هذا مما هو معروف لا يعطى أى دليل على دعاوى لويس عوض فى مقولته عن صلة اللغة العربية بالمجموعة الهندية الأوربية .

* * *

حطموا عمود الشعر

صدر ديوان (بلوتو لاند) ١٩٤٧ وأعيد طبعه بعد ٤٢ سنة (١٩٨٩) وتمثل المقدمة البيان الأول لمعركة التجديد الشعرى تحت عنوان (حطموا عمود الشعر) ويدعو فيها لويس عوض إلى كسر قاعدة العروض الخليلية وتجريب أشكال متباينة من الإيقاع الشعرى واستخدام الرموز الأسطورية والتاريخية وإدخال تفاصيل الحياة اليومية فى نسيج العمل الشعرى ، ذلك كل ما حققته حركة الشعر الحر ، والكتاب يقدم مجموعة من النصوص الشعرية التجريبية التى كتبها المؤلف بين عام ٣٨ ـ ٤٠ وهى نصوص تضم الحفعيلى والنثرى والعامى والفصيح مستفيدة من التراث الشعرى الإنجليزى والفرنسى والأسطورى والإغريقى وقد حمل نبوءة يتكفل جيل لاحق من الشعراء بتحقيقها (صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى) يضم الكتاب العهد الذى قطعه لويس عوض أمام ثلوج كمبردج على ألا يكتب باللغة العربية الفصحى حرفاً واحداً وهو يسميها « لغة قريش » ولماذا حنث في يمينه ؟ وهم يبحثون عن مسلم يتولي بدلاً من الأقباط طرح هذه الأفكار شديدة الحساسية .

المعلم يعقوب

قدم الدكتور لويس عوض أفكاره عن المعلم يعقوب الذى عمل فى خدمة الفرنسيين إبان حملتهم على مصر ، وكان قد نشرها فى مجلة التضامن عام ١٩٨٢ بعد أن رفضت الأهرام وعدد من المجلات نشرها بما فيها من تجريح لتيار التجديدالإسلامى الذى قاده جمال الدين الأفغانى وقد وقف لويس عوض موقف المعاكسة فاتهم جمال الدين الأفغانى بالولاء للغرب بينما وصف المعلم يعقوب بأنه وطنى حر ، وكان المعلم يعقوب قد قدم نفسه إلى الفرنسيين وأعلن استعداده لخدمتهم وقد وجد فيه المحتلون الفرنسيون عنصراً أساسياً ساعدهم فى تثبيت احتلالهم للبلاد بسبب معرفته بمصر وأهلها ، فهو يعرف خريطة البلاد وطابع السكان والواقع الاقتصادى معرفة كاملة بحكم اشتغاله بالأمور الإدارية فى خدمة المماليك ، وحجة لويس عوض أن المعلم يعقوب كان يعمل مع الحملة الفرنسية من أجل تحرير مصر من العثمانيين والمماليك وهذ الخطأ وقع فيه شفيق غربال .

وكان المعلم يعقوب قد صاحب القائد الفرنسى (ديزيه) فى حملته على الصعيد وكان أهل الصعيد يسمون (ديزيه) جيش المعلم يعقوب ، وقد دان المؤرخون الأقباط المعاصرون المعلم يعقوب باستثناء لويس عوض ، وكان قد قام يعقوب فى حملة الصعيد بعمليات إبادة واسعة وقاد مذبحة قاسية ضد أبناء مصر من أهل الصعيد خاصة العرب الذين جاءوا إلى الجهاد مع أشقّائهم فى صعيد مصر عن طريق القصير ، الواقعة على البحر الأحمر وافدين من مكة لمساعدة إخوانهم فى مصر ضد العدوان الفرنسى وقد حارب هؤلاء العرب القادمون من الجزيرة العربية بقوة وبسالة إلى جانب الفلاحين من أبناء مصر .

ويعتبر المؤرخون (المعلم يعقوب) مسئولاً عن مذبحة الصعيد الذى انتهت بمقتل الآلاف وإبادة قرى بأكملها وإحراق الأراضى والمواشى ، كما شارك فى إخماد ثورة القاهرة الثانية [إبريل ١٨٠٠] حيث أحرق الفرنسيون بمساعدة المعلم يعقوب أحياء بأكملها ومنها حى بولاق .

ولقد كانت هذه الصفحات التاريخية كافية لإدانة المعلم يعقوب بعد أن وقف إلى جانب الفرنسيين ضد شعبه وأنشأ فيلقاً عسكرياً خاصاً للحرب إلى جانب المحتلين .

ولما فشلت الحملة الفرنسية وتم توقيع معاهدة الجلاء عن مصر (يونيو ١٨٠١) وتضمنت نصاً يتيح لأى مصرى أن يرافق الجيش الفرنسى فى الجلاء دون أن تصادر أملاكه، وسافر المعلم يعقوب على السفينة (لاباس) متجهاً إلى فرنسا كأحد الفرنسيين بعد أن أنعموا عليه بسيف وجعلوه مستشاراً لهم ولقب جنرال .

ومات المعلم يعقوب فى البارجة فى ١٦ / ٨ / ١٨٠١ ولم تلق جثته فى البحر ، بل وضعت فى برميل من النبيذ حيث دفن فى مرسيليا .

هذه هى حياة المعلم يعقوب الذى وصفه لويس عوض بأنه بطل دعا إلى حماية الاستقلال المصرى من الأتراك ، وإنقاذ مصر من العثمانيين بمساعدة الفرنسيين ، أو ما أسماه لويس عوض مشروع الاستقلال الأول فى مصر .

ويعد المعلم يعقوب فى عصرنا الحالى أشبه بسعد حداد فى لبنان ، أو على بك الكبير فى أيام حكم المماليك .

ويؤكد المؤرخون أن يعقوب لو كان صادق الوطنية لتحالف مع القوى الوطنية فى الداخل ولم يربط مصيره بحكم مصالحه مع الغازى الفرنسى إلى الحد الذى أوصى فيه بدفنه مع صديقه (ديسيه) القائد الفرنسى فى قبر واحد بعد أن ربطتهما صداقة وطيدة عندما حاربا سوياً ضد المصريين فأهداه (ديسيه) سيفاً تذكارياً .

وقد يتعمد لويس عوض إغفال الإشارة إلى مذكرتى (لاسكاريس) المرفوعين إلى بونابرت وتاليران واللتين نسبهما لويس إلى يعقوب لغرض فى نفسه فانقلب على يديه إلى صاحب مشروع استقلال مصر .

ويتساءل الباحثون : هل الدفاع عن الجنرال يعقوب عميل الحملة الفرنسية ، والاحتفاء الخاص بالوفد الريادى (كريستوفر سكيف) مؤسس إخوان الحرية ـ الذى أهداه الدكتور ديوانه (بلوتو لاند) ـ هما جسر التواصل الحكيم بين الشرق والغرب ؟ .

ويتحدث أحد الباحثين عن عمل لويس عوض فى مجال تزييف التاريخ يقول : إن الذين يرصدون تطور الاهتمامات الفكرية للدكتور لويس عوض يخبرهم أن الرجل الذى أعلن إفلاس جيله بعد هزيمة ١٩٦٧ وتحوله باعترافه إلى مجرد شبح من أشباح الماضى ، فى الوقت الذى كف فيه عن ممارسة اهتماماته الأصلية ، وهى اطلاع قراء الصحف المصرية على الفنون والآداب الغربية تفرغ لكتابة التاريخ وفى المجلدات التى صدرها عن تاريخ مصر الحديث لم تسلم أى قيمة من القيم التى تكون ضمير الأمة ولا حقيقة من حقائق تاريخها من التجريح ، فاستقلال مصر برأيه هو استقلالها عن تاريخها الإسلامى ومحيطها العربى ورائد هذا الاستقلال هو المعلم يعقوب الذى خان مصر بأقباطها ومسلميها عندما انضم إلى الحملة الفرنسية وأصبح جنرالاً فى جيش احتلالها .

والثورة العرابية فى رأيه قد فشلت لأنها تمسكت بقيم الشعب البالية وتراثه الذى هو هراء ولم يقبل قيم الحضارة الغربية وكل الأحزاب والمنظمات الوطنية التى أدركت دور الإسلام فى التحرر الوطنى والنهضة الحضارية من الحزب الوطنى (حزب مصطفى كامل) إلى الإخوان المسلمين ومصر الفتاة والضباط الأحرار هى بنظر الدكتور لويس أحزاب ثيوقراطية رجعية .

أما الوطنيون التقدميون فهم العلمانيون أنصار التغريب الذين اختاروا الاستعمار الإنجليزى المتحضر بدلاً من الجامعة الإسلامية الرجعية الجاهلية (!) والمؤرخ الوطنى عبد الرحمن الرافعى غير مقبولة شهادته عن لويس عوض لأنه هو واللورد كرومر على قدم المساواة ، أما زعماء مصر وأبطالها من محمد على حتى جمال عبد الناصر فهم والمعلم يعقوب الذى سماه الجبرتى : (يعقوب اللعين) فى سلة واحدة يسميهم الدكتور لويس أبناء الشعب العظام ، بمثل هذه الآراء يشهد تاريخنا الحديث ميلاد الجبرتى الجديد أ هـ .

***

وسقطت دعاوى الدكتور لويس

ترى ما الرأى لو أن باحثاً جاء بعد قرن من الزمان : فنظر فى التقارير الأمنية عن الدكتور لويس عوض فوجد أنها خليط شيوعى أمريكى فاتهمه بالذبذبة والتلون ، ونظر فى تراثه الفكرى فوجد فيه ريح الطائفية فرماه بالباطنية والنفاق، وفى تراثه السياسى فوجده متصلاً بأمريكا وانجلترا فدمغه بالعمالة وكتب عنه فتحدث عن (أسطورة لويس عوض) وأن له دوراً كان يؤديه لحساب مجهول وأن له ماضياً مريباً وتعاوناً كاملاً مع جهة ما وأنه مزدوج الشخصية أو مثلثها أو مربعها حسب الظروف ، وأن مواقفه وتحركاته جملة من المتناقضات ، كل ذلك بوثائق أمريكية وانجليزية وفرنسية .

لقد جعل من يعقوب الذى لحق بنابليون وخدمه وحارب معه ضد مصر بطلاً قومياً وجعل من جمال الدين الإيرانى الغامض ومزق تلابيبه تحريقاً ليجعل منه عميلاً مأجوراً .. ترى ما الرأى ؟ . [شاكر مصطفى]

* * *

سقطت أخطر دعاوى الدكتور لويس عوض

لماذا لا نقتدى باللغة اللاتينية التى انحلت إلى لغات محلية ؟

قال : إن انحلال اللغة اللاتينية دليل على وجود فوارق عميقة الجذور بين الشعوب التى كانت تتعلم اللاتينية فى نفس الوقت الذى يقوم فى استمرار اللغة العربية حتى اليوم لساناً للعرب جميعاً ، وذلك دليل على أن هناك آصرة قومية متينة السبب تربط بين الشعوب العربية جميعاً ، والدليل على ذلك أن اللغة العربية ما زالت أقوى من اللهجات المحلية وليس العكس بالرغم من الجهود الخارقة التى بذلها المستعمرون ودعاة الانفصال فى سبيل إحياء هذه اللهجات على حساب اللغة العربية .

نعم يا دكتور لويس : هناك آصرة أقوى من كل الأواصر التى جمعت الأمم على لغة ، تلك هى آصرة الإسلام والقرآن التى لن تحقق لأصحاب المطامع ما يرغبون إليه ، لقد خدعه

الذين لقنوه تلك الأكذوبة ولو كان عارفاً بتراث بلده وأمته كما عرفه أمثال مكرم عبيد فى مصر وميشيل عفلق فى الشام لما وقع فى هذا المأزق .

* * *

أما أخطر مؤامرات لويس عوض فتلك هى تلقين شباب الجامعة حين عمل فيها بعض السموم الناقعات وذلك باعترافه هو :

يقول : كنت ألهب فى تلاميذى الظمأ إلى المعرفة وألهب فيهم حب الحرية ولا سيما حرية الفكر وأحطم أمامهم المقدسات المزيفة القائمة على العصبيات أو وليدة الخوف أو التقليد وكنت أفجر فيهم ملكة الابتكار ، وعلمتهم كيف يجرءون على التخيل من خلال تعريفهم بالموسيقى الكلاسيكية ، تلك كانت مسئوليتى .

هذا ما كان لويس عوض يقوله لتلاميذه [كما ورد فى مقدمة رواية العنقاء] معنى ما قاله لويس عوض هو إخراج الشباب من مفاهيمهم الأصيلة وقيمهم التى كونها لهم الدين فى سبيل أن يدفعهم إلى الإلحاد والإباحة .

لقد كانت مسئوليته مضللة خادعة ، ذلك أن الرائد لا يكذب أهله .

* * *

تبين أن كل كاتب من كتاب العصر الذين درسوا الفكر الغربى قد اعتنق نظرية من النظريات ومضى يعرض الفكر الإسلامى عليها دون تقدير للفوارق العميقة بين الفكرين .

أما لويس عوض فقد شهد مؤرخوه أنه اعتمد فى كتاباته على نظرية المنهج التاريخى للنقد الأدبى الذى يرى (الإبداع) محصلة للتيارات السائدة فى زمنه (السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية) ، فاعتمد لويس فن الشعر لهوراس وبرثيموس طليقاً لشلى حيث يعتبر الشاعر أو الكاتب هو المجتمع أو بعضه .

وحين يعتنق لويس عوض نظرية هوراس فى اللغة : هذه النظرية التى وضعها هوراس فى مجال لغته يخطىء خطأً كبيراً حين يطبقها على العربية لأنه يقف أمام لغة لها تاريخ ومضمون ووجهة تختلف عن لغة هوراس ، ولها ارتباط بالقرآن الكريم وبثقافة وعقيدة ألف مليون مسلم .

ونحن لا تخدعنا مقولة هوراس حين ترى أن اللغة عبارة عن غابة من الأشجار تتساقط أوراقها كلما انسلخ عام ثم تتجدد الخضرة عندما يأتى الربيع ، وبذلك يعطى (هوراس) لكل جيل رخصة سك ما يشاء من الألفاظ والتجارب المغايرة للماضى والمطبوعة بطابع العصر ، ومن هنا جاءت فكرة تجديد اللغة التى دفعت لويس عوض إلى الانزلاق فى موقف خطير إزاء اللغة العربية جاهلاً أو متجاهلاً مقدرة اللغة العربية على العطاء على نحو يختلف عن اللغات الأوربية التى كانت فى الأصل (عاميات) للغة اللاتينية ثم استقلت عنها ثم أصبحت بمضى الزمن فى حاجة إلى إسقاط وتجديد .

ولعل أحقاد لويس عوض على اللغة العربية الفصحى فى (إطاراتها تحمل رسالة القرآن الكريم) هى التى دفعته إلى تبنى مؤامرة المستشرقين وخصوم الإسلام واللغة العربية فى الدعوة إلى (تجديدها) على النحو الذى وصلت فيه اللغة اللاتينية إلى المتحف وأصبحت تقرأ بواسطة قاموس .

ولعل كراهية لويس عوض للفصحى : لغة القرآن ، هى التى دفعته إلى البحث عن مذاهب تهاجم ثوابت اللغة فى الغرب ليطبقها على العربية بل لعلها هى التى دفعته إلى وضع مقدمة ديوانه (الذى دعا فيه إلى تحطيم قاعدة اللغة العربية وتدمير عمود الشعر) وإلى الهجوم على التراث الشعرى العربى وإعلاء شأن العامية واللهجة الدارجة هبوطاً من البيان العربى المألوف .

ولعل هذا هو ما دفعه إلى كتابة القصة بالعامية كما دفعه إلى إحياء تراث الأساطير اليونانية وترجمته إلى اللغة العربية ثم وقوفه فى صف الحركة المنحرفة إلى الشعر الحر وتشجيع أهلها ودعوتهم إلى التماس الكتاب المقدس مصدراً لرؤاهم وقصصهم كما عمل مع صلاح عبد الصبور وغيره وجعل من ساحة الأهرام منبراً لكل هؤلاء المنحرفين .

القيم الدينية

وصف لويس عوض القيم الدينية بأنها قيم مظلمة تشوه نفوس النشء وهى قيم مزيفة تعادى التقدم والحضارة وهى قيم ناسفة للحرية مهدرة لحقوق الإنسان ومهدرة لكل شعور بالأخوة الوطنية والإنسانية ، وقد أطلق هذه الأوصاف دون أن يتفضل ببيان القيم الجامدة

المظلمة التى هاجمها ، ومن جهة أخرى أورد إشارات سريعة مبهمة للقيم المستنيرة العصرية دون أن يبين ما يمكن أن تؤدى إليه وليس هذا من المنهج العلمى الموضوعى فى شيء .

وكان قد جرب مرة المنهج العلمى الدقيق فتصدى له أكفاء زيفوا له كل قول وأقحموا له كل رأى فأطلق عبارته التى تحمل مشاعر الكراهية لقيمنا العليا وأسماها (الجامدة المظلمة) : يقول الأستاذ أحمد عبد الرحمن إبراهيم : نحن لا ننتظر منه أن يعلمنا قيمنا ونحن كذلك لا ننتظر أن يفيدنا بشيء صحيح عن قيم العصر (المنيرة المرنة) وإنما كنا نتمنى أن يصرح ويحدد ، كنا نتمنى أن يفتح نقاشاً واسعاً ولكنه أبى أن يتعاطى الفكر والعلم ولجأ إلى الالتواء والتهويم .

* * *

وضحت من خلال كتابات الباحثين عن لويس عوض عدة حقائق :

أولاً : أنه كان يغلب عواطفه وأن أحكامه وأهدافه ودوافعه كانت تنطلق من مشاعره وأن مسألة العقلانية هذه ما هى إلا إطار خادع ودعوى مدعاة .

ثانياً : الولاء للغرب ممثلاً فى التبعية لفكره ومفاهيمه خاصة ما يدعو إلى هدم الوحدة الإسلامية والرابطة العربية وإبقاء مصر فى سجن الفرعونية والإقليمية .

ثالثاً : إنه لم يكن متميزاً فى أى فن من الفنون التى عالجها وإنما كان يحمل مجموعة من الأهواء .

رابعاً : إنه يدخل أساطير اليونان وزيفهم وإباحيتهم ممثلة فى الروايات الإغريقية القديمة لترجمتها إلى اللغة العربية (وإحياء الهلينية) .

خامساً : إنه يدعو إلى تحطيم عمود الشعر والغض من شأن أحمد شوقى والخليل بن أحمد .

سادساً : إنه يفتح باب الانتقاص لكل الشخصيات ذات الشهرة المدوية على مدى القرون عن طريق التشكيك فى آثارهم .

سابعاً : احتقار التراث العربى الإسلامي جميعه والغض من شأنه وإحياء تراث اليونان والمجوس وكل الملل التى سبقت الإسلام (الفرعونية والفينيقية والفارسية) .

ثامناً : تبعيته على هوى المستشرقين وخصوم الإسلام فى كراهية الدولة العثمانية وإثارة الأحقاد نحو اللغة العربية وعمود الشعر (يقول يوسف جوهر إنه كان يدعونا إلى الاستخفاف بكل الأسماء اللامعة أو القيم الثابتة) .

تاسعاً : محاربة عروبة مصر المسلمة وإعلاء شأن المعلم يعقوب الخائن والحملة المسعورة على جمال الدين الأفغانى .

عاشراً : الدعوة إلى العلمانية تحت اسم النزعة الإنسانية بوصفها مصدر الفلسفة الإنسانية والفكر الحر والنزعة الإنسانية التى يدعو إليها لويس عوض هى صلب مفهوم الماسونية التى تتنكر لكل دين ولكل قومية والتى يحاول أن تصهر البشرية كلها فى وحدة تكون الصهيونية العالمية هى قائدتها ورائدتها .

وقد يتساءل الباحثون : هل كان لويس عوض ماركسياً أم ليبرالياً أم شعوبياً كبيراً استغل كل مفاهيم هذه المذاهب وأذاعها من أجل أن يدنس الثقافة العربية الإسلامية ويصبغها بصبغة الوثنية والإباحية والإلحاد ، وقد فتحت له الصحافة الطريق إلى إذاعة الفكر الماسونى ، الذى كان فى ظاهره علمانياً واشتراكياً وفى باطنه هداماً لكل قيم العقيدة والأخلاق والقيم .

وكان تناقضه واضحاً فى دعوى الالتزام بالعقل مع عرقيته المتعصبة ومغالطاته التاريخية وتزييفه وقائع التاريخ وإعلاء شأن خائن كبير مثل المعلم يعقوب .

وكانت دعوته إلى الفرعونية بمثابة غلاف رقيق للدعوة إلى المسيحية فى محاولة لابتعاث العادات والتقاليد الشعبية القديمة التى عرفتها مصر فى فترات الضعف والتخلف وقبل أن ينشر الإسلام قيمه ومفاهيمه وعقيدته التوحيدية الخالصة .

ومنذ ذلك ربط رأيه بالهوى العرقى ، فالعقاد عنده كان عملاقاً ، فلما كتب العبقريات الإسلامية فقد أهميته الأدبية ، أما عندما كان تابعاً للفكر الغربى فقد كان معجباً به .

* * *

هدم الأصالة

يمكن القول بأن كل ما قام به لويس عوض خلال حياته كلها هو العمل على هدم الأصالة ، وقد جعل الأدب منطلقه ففتح الباب واسعاً أمام إحياء أساطير اليونان والرومان وفى مقدمتها أسطورة بروميثوس وأسطورة تانتالوس وأسطورة المارد أطلس فى محاولة لإدخال مفاهيم مضللة وكيف سرق بروميثوس النار من الآلهة ، والإله المقدس فى كل الآداب والديانات القديمة .

هذا فى القديم أما فى الحديث فقد أولى اهتمامه بالبنيوية واللامعقول والوجودية والتجريب والاهتمام بالمسرح الأوربى على أوسع نطاق فى محاولة أسماها « تحرير الأدب من الأحكام الأخلاقية القديمة المتزمتة » .

وكان هيكل قد فتح له أبواب الأهرام وأولاه بالصفحة الأدبية لإعداد كوادر تحتل الآن مقاعدها مشاركة فى الحملة على الإسلام وشرائعه وفى مقدمة أتباعه صلاح عبد الصبور وغالى شكرى فى دعوة عريضة إلى ما أسماه كسر رقبة اللغة العربية والبلاغة العربية وما تزال اللغة العربية عالية الذرى لم يستطع كل هذا العبث أن ينال منها لأنها لغة القرآن .

وقد فتح لويس الباب أمام مسرحيات اليونان وأغلق الباب أمام الشعر العمودى .

ومضى لويس يقع فى الأخطاء ويسقط سقطاته حتى سقط سقطته الكبرى مع أبى العلاء ، فاحتاج إلى أكثر من ٣٣ أسبوعاً من مجلة الرسالة للرد عليه كما فعل محمود محمد شاكر فقد حاول أن يثبت أن ثقافة أبى العلاء وتفوقه يرجعان إلى (نصارى دير الفاروس) وكانت سقطته حين استبدل كلمة الصليان بكلمة الصلبان وهى تعنى نوعاً من العشب أو الشجر ترعاه الإبل فى بيت من الشعر لأبى العلاء ليثبت أن أبا العلاء ابن للثقافة النصرانية

صليب عمره الهجر نهاراً ثم باتت تغص بالصليان

وقد شجعه هيكل على الكتابة رغماً عن أنف ملايين المسلمين فى مصر والعالم مساندة للشيوعيين والعلمانيين .

وفى الأهرام وجد فرصته لإعلان كل سمومه مما أسماه جلال أمين (هذه الجرأة على الحق) .

وقد واجهت لويس ردود الفعل التى أذهلته فقد ظن أنه فى عصر طه حسين وعلى عبد الرازق ونسى أن الصحوة الإسلامية قد كشفت الحقائق ، وكان انتشار الحجاب والنقاب مما أصاب لويس عوض بالذهول فطالب المحجبات أن يلزمن بيوتهن ولا يغادرنها وقال فى دهشة : من الذى يتصور أننا بعد مائة سنة من قاسم أمين نرى هذا العدد الرهيب من النساء المحجبات فى مصر .

وعجز لويس عوض عن إجبار المثقف العربى والمسلم على اعتناق العلمانية أو الانصهار فى مدنية العالم الغربى الصليبى على أساس أن عملية الانتقاء عند الغير غير ممكنة لأن روح الحضارة الصناعية تحمل سمومها فى داخلها ، لقد مضى لويس عوض فى استخدام المادة المقدمة إليه من المراكز والمؤسسات الغربية وفى مقدمتها « التقارير » التى كتبها خصوم الإسلام عن الأفغانى واعتمد عليها فى بحثه المسموم ، وقد رد عليه كثيرون يفندون أخطاءه سواء فى (إعلاء) يعقوب بالباطل أو هدم الأفغانى بغير حق ، ولقد بلغ غاية الجرأة حين قدم يعقوب كرائد وطنى يضاهى عمر مكرم .

ولقد كانت الأفكار الصهيونية واضحة فى فكر لويس عوض وتوجيهاته وله موقعة من كامب ديفيد والاعتراف بإسرائيل والتعامل معها على أنها قضية إنسانية لشعب مضطهد على نحو ما تروج الدعاية الصهيونية ، وسرعان ما تبين للدكتور لويس ضوء الحقيقة مما أسماه هو ـ وزكى نجيب محمود والعلمانيون ـ العودة إلى القديم أو الانبعاث السلبى وظهر أن الإسلام هو وحده القادر على إقامة الوحدة الجامعة للشعوب التى تستظل به ويعتنقه وليس الهومنيزم أو ما يسمى كذباً الفلسفة الإنسانية والفكر الحر .

ومن هنا كانت أخطاؤه حول ما سماه تلاقح الثقافات أو حوار الحضارات من خلال الاشتراكية والديمقراطية أو من خلال المسرح اليونانى (أجا منون وأنطونيوس كليوباترا وبرميثوس طليقاً) باعتبار أن اليونانيات هى الجذر البعيد لوحدة الفكر البشرى ذلك لأن لوحدة الفكر البشرى جذوراً أعمق وأعظم : هى الدين الحق الذى أنزل الله على أنبيائه منذ

نوح عليه السلام إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا الدين هو الإسلام الذى قدم للإنسانية ذلك التراث القديم من التوحيد واليقين والإيمان بالغيب والوحى والنبوات وليس أبداً ، تراث يونان الوثنى الذى يطلق عليه فى كتابات الباحثين (علم الأصنام) ولم تغن ترجمة النصوص المسرحية التى قام بها لويس عوض عن اليونان واللاتين شيئاً عن الهزيمة والانهيار ولم يقف عند اليونان بل تطرق إلى جميع النماذج الإباحية فى الفكر الغربى فترجمها وفى مقدمتها ما كتبه لورنس وما كتبه أوسكار وايلد وهما من أشد ما أفسد شباب الغرب .. ومضى لويس عوض فى هذا إلى أبعد حد حتى يمكن أن يطلق عليه أن هدفه ومثله الأعلى ورأس ماله كله يتمثل فى كلمتين :

إحيـاء الأسطـورة

فقد كانت محاولة لويس عوض تتميز بذلك الحرص الشديد على نقل سموم الأساطير والأدب الإغريقى إلى ساحة الفكر الإسلامى وأن يستعمل فى هذه المحاولة المسمومة غلمان المستشرقين : عبد المعطى حجازى وصلاح عبد الصبور مما كان يلقنهم هذه الشرائح من أساطير الأولين ، فقد كان لويس ينقلهم بين ديوتيرس وباخوس إله الخمر والنشوة والعواطف الملتهبة وإلى ابولون إله الحكمة والمعرفة ، يقول فى وصفهم أحمد عبد المعطى حجازى: تراهم فى النشوة كأنك ترى أبا نواس ، وفى الحكمة كأنك ترى المعرى ومن هؤلاء وفى مقدمتهم لويس عوض ، وهذا هو مفتاح شخصيته وسر تمزقه البطولى ـ كما يقولون ـ بين الطبيعة والثقافة وبين الفكر والفن وكما أدخل لويس عوض مفاهيم مسمومة ، فقد أجرى مراجعة شاملة للمعتقدات الشائعة عن أخلاقيات الجنس بالدعوة إلى تخلص الإنسان المتحضر من احتقاره الموروث للجسد فيستعيد فطرته النقية وأن يعود للحياة البدائية .

(وهو يعنى بهذا العودة إلى حياة الحيوان والشهوة)

وهو ما جاءت الأديان لإزالته وإشاعة روح الإيمان والعفاف والتعامل فى حدود القيم والأخلاق .. وإلا فمتى كان الإنسان يحتقر الجسد إلا فى شرائع الرهبانية ومتى كان يكد ويقهر وجوده والدين يعطيه فسحة الحياة ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده**

والطيبات من الرزق ﴾ [سورة الأعراف : ٣٢] .

وهكذا يهدم لويس القيم الراسخة ويغير عقول الشباب .

لقد كان شعار الدكتور لويس الخالد : **هو الذوبان فى الحضارة الغربية وتحطيم البلاغة العربية وكسر رقبة اللغة العربية وترجمة القرآن الكريم إلى العامية المصرية** وترديد أن الشعراء العرب المصريين (المستعربين) كما أطلق عليهم لم يطرحوا إبداعاً متعدداً منذ الفتح العربى وتلك دعوى ظالمة إذا كان يعنى ما يقول وإلا فهو جاهل لهذا التراث ، لم يدرس جوانبه ويعرف معطياته التى وصلت إلى الغرب الذى يتعبد له .

وقد رد على أفكار لويس عوض كثيرون :

- رد على قضية العامية : **الأستاذ محمود محمد شاكر**
- رد على كتابه عن الأفغانى : **الأستاذ محمد عمارة**
- رد على رأيه فى ابن خلدون : **الأستاذ أحمد رشدى صالح**
- رد على المعلم يعقوب : **الأستاذ أحمد حسين الصاوى وجلال كشك**
- رد على فقه اللغة العربية : **الأستاذ البدراوى زهران وأنور الجندى**

كان اسم لويس عوض تمجيداً للويس التاسع ملك فرنسا الذى هزم فى الحروب الصليبية وسجن فى دار ابن لقمان فى المنصورة .

كانت مفاهيمه الأدبية تحمل فى طياتها هدفاً سياسياً ولم تكن عملا أدبياً خالصاً .

العلمانية بين تشاؤم الحكيم وتفاؤل لويس عوض

كتب الدكتور أحمد عبد الرحمن هذه المقارنة بين توفيق الحكيم ولويس عوض :

قال : مات الحكيم وهو متشائم خائف على مستقبل العلمانية ، وقد كشف عن أسباب تشاؤمه وخوفه في الرسالة التى بعث بها إلى الدكتور لويس عوض (الأهرام ١٩٨٧/٩/٥) ومن المفيد أن تعرف مفهوم (الحكيم) للعلمانية قبل أن نبحث فى أسباب خوفه ومسوغات تشاؤمه .

يقول الحكيم إن العلمانية هى حرية الفكر وهو لا يزيد على ذلك شيئاً ، والحق أن ثمة أنظمة علمانية لا تسمح بحرية الفكر كالفاشية والنازية والشيوعية وغيرها من النظم الشمولية ، وهناك النظام الإسلامى وهو غير علمانى ومع ذلك فهو يسمح بالفكر الحر بل يوجبه ، ضمن نطاق محدد ، كما أن عقيدة الإسلام تقوم فى الأصل على الفكر الحر لا على الإكراه ، إن العلمانية فلسفة تقتضى الحياة الإنسانية على أساس من الخبرة البشرية لا من كتاب سماوى ، والخبرة البشرية قد تكون خاطئة أو قاصرة ، عفا عليها الزمن ومع ذلك تفرضها القوة الغاشمة على الشعوب ، وتمنع كل خبرة أخرى من منافستها فهى تتحرر من الكتب السماوية حقاً ، لكنها تكبل نفسها بكتب البشر من أمثال ماركس ، ولينين ، وهتلر ، وماو وقد تتخون من حبائل الكتب البشرية لكنها تقع فريسة لاستبداد الأهواء والغرائز ، والعلمانية تسمح للناس بالإيمان بإله وتسمح لهم على مضض بأن يعبدوه لكنها لا تسمح لهم بتنظيم حياتهم طبقاً لوحى هذا الإله إلى رسله ، ومن هنا وجدنا ثورة ١٩٥٢ توافق وتشجع كل من رضى بالإسلام المحمود الجزئى ، وتقاتل كل من أصر على مبدأ الإسلام الشمولى فهى علمانية وكل من وافقها على التجزئ علمانى مثلها ، سواء شعر بذلك أم لم يشعر .

وقد كان الحكيم مؤمناً بالإسلام الجزئي الذى يوافق العلمانية ويوافق الثورة ، وقد عاش جو الثورة ـ الذى وصفه بأنه خانق للفكر الحر ـ أربعة وثلاثين عاماً ، ورأى الأحرار على مشانق ناصر ولم يعد إليه الوعى أبداً وظواهر سلوكه تشير إلى أنه رضى بذلك ، فالرجل لم تعرف عنه كلمة نقد لناصر ـ فى حياته ـ ولا احتجاج أو مجرد اعتكاف أو صمت، ربما لأن الذين شنقوا كانوا من أنصار الإسلام الشامل الذى يتناقض مع العلمانية.

أما أسباب خوف الحكيم على العلمانية فأولها ما أسماه بالغوغائية وهى عنده بمعنى : الحكم على الأشخاص والأشياء بالإشاعة (بالشائعة) التى لا تعرف التفكير .

قال الحكيم : إن هذه الغوغائية متسلطة على الرأى العام المصرى وعلى الأقلام التى تعبر عنه خاصة فيما يخص الفكر والدين ، وفى هذا المناخ يستطيع الكتاب العلمانيون أن يعبروا عن آرائهم المجافية للدين فى حرية .

ويذكر الحكيم ما حدث له عند صدور كتابه (عودة الوعى) إذ اتهمه الكتاب بالغوغائية بأنه يريد القضاء على ثورة ١٩٥٢ .

والحق أن الحكيم قد قذف الثورة بكل الأوحال ، فى ذلك الكتاب ولهذا تفسير يزيل التناقض مع موقفه المؤيد للثورة :

* اتهم الحكيم الثورة بخنق الحريات ونسف الديمقراطية وسجن الشعب .

* وبالضحك على ذقون الشعب إذ ألهته بالأهلى والزمالك ، لكى ينسى الحياة الحزبية الديمقراطية .

* وبأنها ألهته أيضاً بأم كلثوم ليتعلق بها عوضاً عن التعلق بالزعماء .

واتهم عبد الناصر بأنه تذرع بالقومية العربية لدعم زعامته خوفاً من أن تتنبه مصر القوية إلى خطره عليها فتطيح به .

* واتهم السادات بأنه خاف من اليسار ومن السوفيت فلجأ إلى تقوية رجال الدين ضدهم .

وصفوة القول إذن أن ناصر والسادات بحسب اتهامات الحكيم لم يفكرا فى أى شيء سوى الحفاظ على الزعامات الشخصية دون اعتبار لمصالح الشعب المسكين بل على حساب الشعب ومصالحه وكرامته .

وهكذا استدار الحكيم ١٨٠ درجة كما يقال ليكيل اللكمات إلى ناصر والثورة فذعر الناصريون على الخصوص (وقد قال السادات فى ناصر أكثر مما قاله الحكيم فى البحث عن الذات) .

فالغوغائية إذن مجرد شتيمة مقذعة من كاتب حانق على نقاده لا أكثر ولا أقل ربما لأنه لم يتعود قسوة النقد وتجاوزاته وتبعاً لهذا يمكن أن يقول إن نصيحة الحكيم للدكتور لويس عوض بوصفه كاتباً علمانياً ، بأن لا يقترب من مسائل الفكر والدين والحاضر والمستقبل خوفاً عليه من كتاب الرأى العام ـ الغوغائية ـ ليس لها ما يسوغها وقد كان الدكتور لويس عوض على حق حين عبر عن تفاؤله بشأن المستقبل الراسخ للفلسفة العلمانية والقوانين الوضعية فى مصر .

وهناك حقائق أخرى تدعم تفاؤل الدكتور لويس ، فالإسلاميون من أنصار الإسلام الشامل وهم الخصم اللدود للعلمانية فى مصر يتعبدون بآداب الإسلام فى الحوار والقرآن يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ [سورة الحجرات : ٦] فهذا ضمان ضد الغوغائية التى أشار إليها الحكيم والتى تبنى الاتهامات على الشائعات .

ولقد عرفت مصر فى نهاية القرن الماضى مطلع هذا القرن وإلى منتصفه كّتاباً علمانيين أعلنوا إلحادهم بصراحة ، وعاشوا آمنين وادعين حتى ماتوا ولا يزال لهم أتباع ومريدون إلى اليوم يضعونهم فى مصاف العباقرة والرواد وبوسع العلمانيين اليوم أن يمضوا فى الشوط إلى نهايته كما فعل روادهم ولن يحجر عليهم أحد .

وإذا كان عندنا كتاب يرفضون العلمانية ومن ورائهم الأغلبية الساحقة من أبناء هذه الأمة فعندنا أيضاً جمهور للعلمانية وللعلمانيين ميزة كبرى ، فالصحف الحكومية (القومية) تفتح لهم أبوابها وتوصدها فى وجوه الإسلاميين من ذلك الطراز الكريه الذى يريد للإسلام أن يكون نظاماً شاملاً للحياة ولقد رأينا كيف أتاحت للدكتور فؤاد زكريا والدكتور فرج فودة والدكتور لويس عوض نشر آرائهم ومحاضراتهم وكتبهم .. وأسبغت عليهم الحماية ضد النقد العلمى الموضوعى الذى كتبه الإسلاميون حتى سمعت نبرة الغضب فى خطاب الإمام الأكبر إلى ثروت أباظة وبوسع أى كاتب مبتدئ أن يثب بسرعة إلى أعلى الدرجات إذا هو أجاد السباب والتشويه لأنصار الإسلام الشامل وربما منحوه لقب (مفكر حر) بعد بضع مقالات ، وقد أشار الحكيم نفسه إلى هذا حين قال إنه لا خوف على العلمانيين من السلطة بل من الغوغائية .

أما مستقبل العلمانية والعلمانيين فى الشارع المصرى فمسألة أخرى ، وفى الحقل الثقافى والسياسى مؤشرات ترجح تشاؤم الحكيم على تفاؤل الدكتور لويس عوض .

فقد رأينا كيف فاز التحالف الإسلامى فى الانتخابات الماضية بنسبة ضخمة من أصوات المصريين على الرغم من العقبات المصطنعة التى وضعتها الحكومة فى وجهه ورأينا رموز العلمانية كالدكتور فرج فودة يسقط فى الانتخابات بصورة مهينة ، وفى الوقت نفسه

يحقق غريمه اللدود الشيخ صلاح أبو إسماعيل نصراً مبيناً بكل المقاييس ، ورأينا الشيخ البدرى يزيح وزيراً فى الحكومة خارج البرلمان لتتكاثر اللحى والعمائم تحت القبة بصورة غير مألوفة .

وفى جنوب الوادى مؤشرات أشد وضوحاً فقد فازت الجبهة الإسلامية بكل المقاعد المخصصة للخريجين أى الطبقة المثقفة على الرغم من أن حزبى الأمة والاتحادى لم يتنصلا الإسلام وتكتسح الجبهة كل الأحزاب فى الانتخابات الطلابية فى الجامعة ونحن نعلم أن الجبهة هى الجناح الأيمن للإسلام الشامل فى مصر ، والسودان هى الدولة الإسلامية الوحيدة التى أجرت انتخابات حرة نزيهة لم يطعن فيها فائز أو مهزوم ، وقد أشار الحكيم إلى موقف المنتفعين من النزاع بينه وبين رجال الدين ، وكيف حوصر الحكيم بالرفض الحاسم لكل آرائه التى جافت نصوص الكتاب والسنة الصحيحة ، نحن نعلم أن الأحزاب المصرية كلها أيدت تطبيق الشريعة بما فى ذلك حزب التجمع اليسارى لأن معارضة الشريعة علناً معناها الانتحار الشعبى ، لكن الجماهير المسلمة أدركت أن اليسار لا يمكن أن يؤيد الشريعة عن إيمان ولذلك حجبت عنه أصواتها ولم تنطل عليها الخدعة .

ثم إننا رأينا شيوخ العلمانيين يخالفون طبائع الشيخوخة ويصوبون سيلاً من السباب المقزع إلى الشباب المسلم والفتيات المسلمات حتى اتهموهم بالردة ـ الردة عن العلمانية ، طبعاً ـ وهم معذورون دون شك ، فقد أفنوا أعمارهم فى الترويج للعلمانية ولكن ما إن صانت الحكومة حرية الكلمة حتى اكتشفوا أن رصيدهم فى بنك الشعب شديد التواضع .

إن هجوم الحكيم العنيف على الثورة فى الآخر يمكن أن يفهم تماماً ويفسر تماماً فى ضوء علمانيته التى تعنى عنده حرية الفكر لكن تأييده الأول وتعاونه مع ناصر ثم السادات هو المسلك غير المفهوم لصورة مذهبية وقد يكون لدى العلمانيين من تلاميذه تفسير وقد يكون لدى الناصريين تفسير آخر .

[جريدة النور ـ ٢ ديسمبر ١٩٨٧]

* * *

هل كانت مقدمة للتنظير اللغوى
أم لتدمير اللغة العربية

يقول الدكتور عبد العزيز المقالح :

ما الذى يريد أن يصل إليه لويس عوض من وراء بحثه المرهق والشاق عن جمال الدين الأفغانى ، وما الغاية الوطنية والاجتماعية التى سيخرج بها من خلال بحثه الجليل ثم إذا كان لويس عوض قد أخذ دليله عن تحرير الأفغانى دينياً من تقارير جواسيس الإنجليز لا من كتابات الأفغانى نفسه ، ولا من آثاره وأخباره وأساليب حياته ، إذا كان قد فعل ذلك فيما يتعلق بالتحرر الدينى فهل أخذ أدلته القاطعة الأخرى عن تبعية الأفغانى وبهائيته عن تقارير جواسيس الإنجليز أيضاً أم عن الكتب الصادرة عن جامعات من الدرجة الأولى وما هى هذه الجامعات إن لم تكن جامعات الإنجليز لا من كتابات الأفغانى نفسه ولا من آثاره وأخباره .

يستطيع من يتابع واقع الفكر الحديث فى الوطن العربى أن يشهد نشاطاً محموماً من جانب اليمين الفكرى فى تشويه المنطلقات الإصلاحية المحدودة وفى الدعوة إلى هدم أقطاب الفكر الإحيائى أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى وأضرابهم من رجال التنوير الدينى .

وعلى من يدعى الانتماء إلى اليسار الفكرى فى مثل هذا الواقع ومن يعلن دائماً - كما يفعل الدكتور لويس عوض - أنه مستهدف من الرجعية ومعرض للقمع ، أقول على هؤلاء أن يقفوا فى صف تلك المنطلقات الإصلاحية المحدودة وأن لا ينفقوا وقتاً طويلاً فى بحث مستمر واطلاع استمر سنوات كما فعل الدكتور لويس أيضاً ليثبت بالدليل القاطع عدداً من الحقائق المهمة عن جمال الدين الأفغانى ومن هذه الحقائق :

أنه إيرانى وليس أفغانياً وأنه أخفى جنسيته الأصلية حتى لا يرتبط اسمه بالشيعة وهم أقلية فى العالم الإسلامى وحتى لا يفقد حرية الحركة فى كل البلاد السنية من أفغانستان إلى مصر إلى تركيا ، وليست هذه هى أهم الحقائق التى توصل إليها لويس عوض بشأن جمال الدين الأفغانى وإنما أهم تلك الحقائق : أن الأفغانى فى نشأته الأولى لم يكن شيعياً قط بل اثني عشرياً ثم بهائياً يا لعظمة النتيجة التى سوف تتعاظم وتزيد عندما يضيف الباحث المطلع على كتب صادرة من جامعات من الدرجة الأولى قوله : (والغريب

فى الأمر أن تقارير جواسيس الإنجليز كانت تصفه بأنه متحرر دينياً [مجلة المستقبل العدد ٢٧٥] .

ما الذى يريد أن يصل إليه لويس عوض ؟

وخلاصة القول عن هذا الدليل أن التطرف اليسارى لا يخدم سوى التطرف الموازى له : تطرف اليمين وأن الجهد الذى أنفقه الدكتور لويس عوض قد أفاد خصومه من حيث يدرى أو لا يدرى ، ولا أحب أن أجارى خصومه أو أسقط فى مستنقع الترويج للاتهامات السخيفة التى تطارد لويس عوض منذ ثلاثين عاماً وتتهمه بأنه (صبى المبشرين) وأكره أن أقول بأنه كان يقدر (التحرر الفكرى) للأفغانى فإنه قد كان ينكر منه أنه (كان يؤمن بأن الإسلام نقطة تجمع سياسى ينبغى أن تلتف حولها الشعوب الإسلامية للتخلص من الاستعمار الأوربى) وليس فى هذا الشىء ما يعيب جمال الدين الأفغانى (أو مريديه) .. إننى أرفض تهم التكفير وتهم التخوين لكننى لا أستطيع أن أغفل خطر الوقوف المتزايد فى أقصى اليسار ، وما قد يجره هذا الموقف من خطر الاتجاه نحو أقصى اليمين .

* * *

ويقول الدكتور المقالح فى كتابه عن اللغة العربية : من الملاحظ أن المؤلف لا يميل فى افتراضاته التى يعتمد فى تكوينها على افتراضات علماء (اللغة الأوربيين المعاصرين) إلى إثبات أية أسبقية للغة العربية أو السامية التى تفرعت عنها العربية وهو يرى أن العرب لم يكن لهم على مسرح التاريخ أى أثر مادى أو لغوى قبل القرن التاسع قبل الميلاد وهو يقول: (ومهما افترضنا للعرب وجوداً فى المنطقة قبل ذلك فهو لن يتجاوز بضعة قرون ترجع بهم إلى ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد أو ١٣٠٠ ق م . فلو كان لهم وجود باسمهم المعروف أيام الصراع العظيم بين المصريين والحيثيين ١٥٥٥ ق.م ، أو بين المصريين و الميثانى ١٤٥٠ ق.م فى العراق أو بين المصريين وبنى إسرائيل ١٢٢٣ ق. م ، أو لورد ذكرهم فى النقوش القديمة فى أية من مناطق الشرق القديم .

ولويس عوض يبدأ هجومه الذكى المنطلق من أقصى اليسار على اللغة العربية وعلى أقدميتها فى الظهور ، يبدأه من هذا التشكيك فى أقدمية ظهور العرب بظهور هذه التسمية ، أقول إنه بالرغم من هذه البداية المغلوطة فإن الذى أوقع الدكتور لويس فى الخطأ الفادح هو

حرصه الواضح على الانطلاق من أقصى اليسار وهو الأمر الذى وضعه دون أن يشعر فى أقصى اليمين سواء فى قضية العرب أو العربية وهو موضوع بحثه فى كتابه هذا أن موقف لويس عوض من العرب ومن عروبة مصر بخاصة لا يحتاج إلى تعريف ، وقد وضعه هذا الموقف منذ فترة طويلة فى صف أكثر الجماعات فى مصر تعصباً ورجعية .

وعجيب أمر عالم جليل [1] ينفق السنوات الطوال من عمره فى سبيل تحقيق نتائج لا يستفيد منها إلا أقلية إقليمية أو رجعية أو معادية للتطور والتفكير الحر .

وقد تساءلت بعد الانتهاء من قراءة كتاب الدكتور لويس عوض عن الهدف الإنسانى أو القومى أو الإقليمى الذى توخاه من وراء ذلك الجهد العظيم والبحث الشاق فى جذور اللغات المعروفة فى العالم .

وقد تبادر إلى ذهنى أن الهدف هو محاولة إثبات خطأ القول بالنقاء اللغوى ، وفى ظنى أنه لو كان قد هدف إلى شىء من ذلك لكان قد حمى نفسه من الاتهامات الثقيلة ولما تعرض كتابه لما يتعرض له من حملات التشويه والتجريم .

* * *

وبعد سنوات من البحث والجهد من قبل الدكتور قاداه إلى هذه النتيجة التى توصل إليها بشأن جمال الدين الأفغانى فقد أعطى اليمين الدليل الذى كان يبحث عنه أو التشكيك فى وجوده ، لا حباً فى الوصول إلى الحقيقة المجردة والإيمان بنزاهة البحث ،

---

(١) كانت محاولة لويس عوض ومن وراءه ومن معه إحداث ثغرة فى الفكر العربى الإسلامى من أجل الوصول إلى قبول التبعية الغربية ومفاهيم الفكر الغربى المختلفة مع الفكر الإسلامى خاصة الاشتراكية والعلمانية .

ولكن بالرغم من كل ما كتبه لويس عوض من تراث ضخم قوامه ترجمة الفكر اليونانى والفكر الغربى ولكنه لم يستطع أن يصل إلى أى عقل أو وجدان مصرى نتيجة لطابع الاستعلاء والكبر الذى علا نفس هذا الكاتب وكانت التبعية إلى الذين صدروه لأنهم عجزوا عن فهم تفسير الأمة .

فهل يقبل تفسير الأمة أن تضع يعقوب الخائن فى مقام عمر الفاروق ، ومن هنا جاء كتابه عن تاريخ الفكر الإسلامى الحديث مسموماً ومرفوضًا حيث لم يعرف الناس ما يسمى بالفكر المصرى (وإنما الفكر العربى الإسلامى) وقد كان وصف غالى شكرى له بأنه المشروع الذى مات قبل أن يولد صحيحاً إلى حد ما ، وقد كانت كل محاولات لويس عوض فاشلة وقد عم الفشل مخططه كله وحلقات عمله كلها وما يسمى مشروع

وإنما لأن الدكتور يقع تحت سيطرة عقدة الخوف من العرب ، ومن كل ما هو عربى ، وهذه العقدة تجعله يهدر طاقته الفكرية العظيمة فى خدمة الأفكار المتخلفة والمتراجعة ومن يريد أن يقف فى وجه النقاء السلالى ، وفى وجه النقاء اللغوى ، لا يمكن أن يتعصب للهجة من اللهجات أو لغة من اللغات حتى لا يقع فيما يذكره أو يحذر منه .

ووقع الدكتور فيما أنكره فى أكثر من مكان من كتابه وتحولت دراسته التحليلية العميقة من دراسة للتشابه العام بين اللغات إلى محاولة هجوم مباشر أو غير مباشر على اللغة العربية وإبراز اللغة المصرية القديمة ، وهو ما أساء إلى كتابه الجديد المهم وغير المسبوق .

ويضع المؤلف عند أحد مداخل كتابه هذا الشرط : (أن لا ندخل فى هذا البحث ونحن نحمل معتقدات جاهزة قد تكون عقبة فى طريقنا إلى بلوغ الحقيقة أو بعضها)

والمؤلف الذى يضع هذا الشرط يبدو أنه قد نسيه أو تجاهله ودخل إلى بعض فصول بحثه وهو يحمل أكثر من معتقد جاهز ، من هذه المعتقدات : كراهيته غير المبررة للعرب واللغة العربية واعتقاده أن اللغة المصرية القديمة التى اندثرت ولم يبق منها إلا مفردات معدودة ، اعتقاده أنها اللغة الأصل وقد ظهر الكتاب ، وكأنه بسبب وبدون سبب يحاول تجريد اللغة العربية من كل مميزاتها التاريخية والمعاصرة ، وبدت فى معظم الفصول وكأنها عالة على المصرية القديمة ، وإذا كان ذلك صحيحاً وهو جزء مما يعتقده الدكتور لويس فإن ذلك أدعى إلى احترام اللغة العربية من جانبه وإلى تقدير العلاقة الحميمة بين اللغتين المصرية والعربية وتقدير الوشائج القوية بين العرب القدماء والمصريين القدماء وهى وشائج ابتدأت قبل الإسلام بقرون ، ثم تعمقت وتضاعفت بعد ظهور الإسلام ، وصارت مصر الإسلامية بعد قرن أكثر عربية من جزيرة العرب نفسها ، وأصبحت اللغة العربية هى لغة المسجد والكنيسة ولغة الريف والمدينة فى كل مصر ، ولم يحدث هذا بسبب إحساس المصريين بأن العربية هى اللغة المناسبة ، وإنما حدث ذلك لأن المصريين عرب وتربطهم بإخوانهم فى الجزيرة العربية والشام أواصر القربى والمصالح من روابط الجوار ومن العلاقات التاريخية المشتركة ، ما يجعل كل محاولة للتشكيك إفساداً للحقيقة فى حد ذاتها قبل أن يكون إساءة إلى البحث العلمى والعلماء .

وقد أدركت من أول قراءة كتاب الدكتور (مقدمة فى فقه اللغة العربية) أنى وصلت إلى حد فهم هدف الدكتور من وراء تأليفه الكتاب ، وأعترف بأنى لم أعثر على الفهم التام لهدف الدكتور لو لم أكن قد قرأت بعض نماذج مشابهة من كتاباته السابقة التى تعتبر بمثابة التمهيد للكتاب ، تلك الكتابات سواء ما كان يتعلق منها بالعامية المصرية أو بالقضايا الأدبية والفكرية المرتبطةبعلاقة مصر بالأدب العربى ، والأبحاث تدل على أن الكتاب بجهد استغرق سنوات طويلة من حياة المؤلف وجاء متسعاً مع أفكاره التى ظهرت فى أواخر ثلاثينيات هذا القرن وفى أوائل أربعينياته وهى أفكار تناصب اللغة العربية العداء وقد ظهرت بوادر هذه الأفكار كنظرية وتطبيق على مستوى ضيق الحدود فى ديوانه الشعرى اليتيم (بلوتولاند) وفى كتابه (مذكرات طالب بعثة) وهى خليط من الرواية والسيرة الذاتية وأدب الرحلات .

وهذ الكتاب مع الديوان هما كل ما كتب لويس عوض بالعامية المصرية التى نادى بها لغة رسمية وشعبية للمصريين وظنها اللغة القادرة على إنجاب العمالقة بعد أن عجزت مصر باللغة العربية الفصحى أن تنجب شاعراً واحداً له خطره وقيمته التاريخية وذلك لأن المصريين على حد تعبيره لم يتمثلوا اللغة العربية القرشية كما يتمثل الكائن العضوى غذاءه .

وحين نقرأ هذا الكلام الذى كتبه ربما فى أواخر الثلاثينيات أو فى أوائل الأربعينيات ندرك عمق الجفوة بينه وبين اللغة العربية الفصحى وبينه وبين العرب الذين يسميهم هنا بالسادة أصحاب اللغة ، وندرك أيضاً محاولته المبكرة فى التفريق بين اللغة الفصحى من جهة وبين مستواها العامى(اللهجة) واعتباره المستوى الفصيح من اللغة العربية لغة السادة ولغة عربية مستوردة ، بينما المستوى العامى لغة مصرية أو لهجة مصرية وثيقة الصلة باللغة المصرية القديمة .

وهذا الوهم لم يلبث أن نما وتشعب وسار مقدمة فى فقه اللغة العربية .

وقد وقع الدكتور لويس فى كتاباته السابقة فى خطأ تاريخى وهو خطأ لا يقف عند حدود اللغة ذاتها بل يتعداها إلى المجال القومى والوطنى بدلاً من أن يعترف بالخطأ ويتنبه

للمخاطر التى لابد أن تعود إليها آراؤه اللغويةإذا به يعكف على تبرير ما كان قد ذهب إليه مستخدماً كل ما يملكه من مهارة فى البحث العلمى ، وقد حاول أن يتجنب الملاحظات القائمة على القدح والتجريح وأن يستعيض عن ذلك بالمنهجية والتحليل ، لكن ذلك الهدف المسبق والمبيت القائم على الخطأ بقى واضحاً ولم تستطع المنهجية أن تخرج به من دائرة التبرير للحالة السلبية التى تمثلت فى تلك البدايات المزاجية من كراهية لامبرر لها ومن مزاعم لا سند لها .

والغريب فى الأمر أن عدداً غير قليل من الذين اشتهروا بعدائهم للغة العربية قد توقفوا عند مرحلة معينة من العداء أو تراجعوا عن عدائهم نهائياً ما عدا الدكتور لويس الذى استمرعداؤه للغة العربية كل هذا الزمن الطويل وكأنه فى كتابه الأخير فى فقه اللغة يحاول تجسيد هذا العداء وتبريره عاطفياً وإقليمياً فى فصل بعنوان : « ماتت اللغة العربية عاشت اللغة المصرية » .

ولعل هذه المحاولة الطائشة أو بالأصح هذ التعصب المقيت هو بعض ما ينقص من قيمة هذه الدراسة العلمية الدقيقة ، وبعض ما ينقص من هذا الجهد الخارق الذى بذله مؤلفها فى مجال المقارنة وفى مجال التتبع التاريخى ولو سلمت هذه الدراسة من العيوب ومن عيب التعصب بخاصة لكان لها مكان مرموق .

ولا أدرى كيف جاز لعالم جليل يمتلك هذا القدر من المعرفة أن يجعل العامية العربية المصرية هى الأصل وأن اللغة العربية وبقية اللغات فى العالم هى فروع لهذا الجذر المصرى الضارب فى أعماق التاريخ المعلوم والمدون ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد .

[الخليج الثقافى ١٢ مارس ١٩٨٤] .

نجيب محفوظ

إن استغلال القصة فى عمل تغريبى سياسى خطير على النحو الذى قام به الأهرام في احتضان نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس من أجل تركيز معانى الجنس والإباحة والإلحاد هو عمل خطير أشد الخطر لا يعرف مداه إلا بدراسة النتائج التى وصل إليها أمر قصة مثل (أولاد حارتنا) التى نشرها الأهرام يومياً لمدة ثلاثة شهور بالرغم من جميع صيحات الباحثين والعلماء عن مدى ما تحمله هذه القصة من مخالفات واسعة وعميقة للتاريخ والدين والكتب المقدسة وقد جاء ذلك فى سبيل إرضاء التيار الماركسى الذى كان يفرض سيطرته على الثقافة بصفة عامة فى هذا الوقت ، لقد تناولت قصة (أولاد حارتنا) نصًا دينياً يرتبط بالقرآن والإسلام فى محاولة لوضعه فى صورة قصة ساخرة بالألوهية والأديان والأنبياء وكان الهدف منها تقديم الماركسية كمنهج بديل للأديان .

وكان المدخل إلى تمرير هذه القصة تلك الدعوى المدعاة من أن القصاص له بحكم عمله الفنى أن يتجاوز الحقائق التاريخية من ناحية وأن تكون القصة والفن خارجين عن دائرة المساءلة أو الالتزام بالحقيقة .

والواقع أن الفكر الإسلامى الذى يعتبر الأدب جزءاً منه لا يقر هذا المفهوم ويرى « الالتزام الأخلاقى » أساساً للعمل الفنى وكذلك يرى أن الحقائق التاريخية لا يمكن أن يطويها أى عمل فنى أو يعبث بها .

وما يقوله الأدباء والمفكرون فى عالمنا عن حرية الفكر والفن مسألة مرفوضة تماماً وأن جميع الفنون كما أن جميع العلوم والدراسات محكومة أساساً بالأصول الإسلامية للكتابة والنقد والتاريخ .

ولذلك فإن محاولة تبرير قصة تتعرض للأنبياء والرسالات السماوية على النحو الذى فعله نجيب محفوظ هى محاولة غير مقبولة مهما دافع عنها أمثال عبد المعطى حجازى وغالى شكرى وغيرهما .

وليس صحيحاً أن الالتزام الإسلامى مقرر فى مجال القصة أو تاريخ الأديان أو غيره فحسب من الدراسات الاجتماعية ولكنه مقرر أيضاً فى مجال الأدب والشعر والقصة وكل

ما يتصل بذلك من فنون وآداب وذلك في حدود الالتزام الأخلاقي .

وإن الذين عارضوا نجيب محفوظ كانوا يعلمون أن ما كتبه ليس كتاباً في الفقه ولا في العقيدة ولكنه كان عملاً أدبياً خالصاً يخضع للمسئولية والالتزام الأخلاقي والحقائق التاريخية .

أما قضية (أولاد حارتنا) فهي عمل أدبي أريد به خدمة هدف سياسي اختير له كاتب له تطلعات ماركسية أو يسارية سبقت هذا العمل بوقت طويل فقد كتب نجيب محفوظ في المجلة الجديدة التي كان يصـــدرها سلامة موسى (أكتوبر ١٩٣٠) عن عالم جديد يقوم على احتضار معتقدات وتولد معتقدات بما يوحي بأن الشيوعية سوف تقضي على الأديان وتقيم العدل في العالم .

وهذا المعنى هو الذي رسمته قصة (أولاد حارتنا) ووصلت إليه في نهاية المطاف .

نعم لقد حدد نجيب محفوظ موقفه من الدين ومن الإسلام بالذات منذ وقت باكر وفي تقديره حسبما وجهه أستاذه سلامة موسى بأن مهمة الدين قد انتهت وأن العالم يعيش ديناً جديداً هو الاشتراكية ومن خلال هذا كانت نظرته إلى الشخصيات المختلفة خاصة رجل الدين والمتصوفة وغيرهم وهي نظرة يعلوها طابع السخرية والاستخفاف .

وإن الحديث عما يسمونه المعاني الروحية يعطي مفهومًا واضحاً هو أن الدين هو اللاهوت بمفهوم الفكر الغربي وليس بمفهوم الإسلام بوصفه جامعاً بين الروح والمادة والعقل والقلب وأنه نظام حياة ومنهج مجتمع .

ولقد كانت وجهة نجيب محفوظ في أول الأمر : فرعونية ثم ماركسية (رادوبيس ـــ كفاح طيبة ـــ عبث الأقدار) .

(وعبارة القيم الروحية هي في الأصل عبارة ماركسية كانت شائعة في هذه المرحلة ولكنها لا تمثل الدين بمفهومه الحقيقي .

ومن هنا فإن ما يوصف بأنه دراسة عن الإسلام والروحية في أدب نجيب محفوظ إنما يعني هذا المفهوم :

إن نقطة الانطلاق الحقيقية في قصة نجيب محفوظ يجب ألا تغيب عنا وهي ما أوحاه إليه الكاهن الأكبر سلامة موسى حيث فتح له أبواب المجلة الجديدة فكتب فيها مقالاً يمكن أن يسمى خطة عمل .

وعبارة (عبث الأقدار) توحى بمقدار إيمان المسلم نجيب محفوظ بالقدر الذى هو جزء من إيمان المسلم أساساً .

وقد سجلت قصة (عبث الأقـدار) الاعتراف بأن الأقدار عابثـة وقضية (العبث) تداولتها الكتابات من بعد وكان علامة على وجهة سارتر.

أما روايات نجيب محفوظ ـــ فيما عدا قصة (أولاد حارتنا ـــ فهى فى تقدير أكثر الناس تقديراً له ما قاله خليل عبد الكريم (إن روايات نجيب محفوظ حفلت بحشد هائل من البغايا والراقصات والقوادين والديوثيين واللصوص والنشالين والفتوات وصانعى العاهات والمرتشين والملحدين (الأهالى ٢٦/١٠/١٩٨٨) .

وفى ضوء هـذا يمكن الحكم على أدب نجيب محفوظ فى ضـوء الأدب المكشوف والجنس .

يقول أحمد عباس صالح : إن أغلب شخصيات نجيب محفوظ تمثل الإحباط وأنه عدمياً فى بعض الأحيان حيث لم يضع صورة مثالية لما يتمناه لهذا المجتمع .

يقول نجيب محفوظ فى مقاله التاريخى (احتضار معتقدات وتولد معتقدات) نحن نشاهد فى عصرنا هذا أن جميع المعتقدات القديمة التى اطمأنت لها النفوس أجيالاً طويلة أخذت تتزعزع رويداً رويداً وتتزحزح عن مكانتها الأولى شيئاً فشيئاً .

وقد ظلت المدنيات قوية الدعائم متينة البنيان لأن المعتقدات التى تأسست عليها كانت متـأصلة فى النفـوس وفى مـأمن من البـحث والنقـد اللذين يولدان الشك والريبـة ، هذه المعتقـدات قد تضـمنت أخطاء وخرافات لا يقبلها العقل بحال من الأحـوال وإن اطمأنت إليها المشاعر فى أغلب الأحوال وإذا خالط الشك النفوس فى معتقد ما وكان هذا المعتقد أساساً لمدنية ، فقد آن الأوان لانهيارهما معاً (العقائد والمدنية) .

ونحن نشـاهد فى عصـرنا فتـرة بين اعتـقـادات ومعـتنقـات تحتـضـر وتفنى وبين آراء ومذاهب أخرى لم تستقر استقراراً تاماً وتأخذ مكانها فى النفوس .

نحن لا نبتئس لقرب زوال المعتقدات البالية ولا ندعو المفكرين إلى الكف عن بحثها ونقدها لتحتفظ بما لها من القداسة والمهابة ذلك لأننا نعتقد أن هذا الاضطراب نتيجة لا مفر عنها تحدثها الطبيعة لتقدم العمران .

فالعقل يهدم المعتقدات القديمة لأنه أصبح لا يسيغها أو لأنه ارتقى لدرجة أصبح نقده لهذه المعتقدات ضرورة لازمة لا دخل فيها للاختبار .

وأنه لما أخذت هذه الاعتقادات القديمة فى الفناء وأخذ العقل يسلط نوره عليها فيظهر من عيوبها ويكشف من سوءاتها التى عاشت ورسخت فى النفوس أجيالاً كحقائق لا مراء فيها ولا جدال .

ونتيجة لذلك أصبحت بين أيدينا مجموعة وافرة من الكتب والقصص ينصب قراؤها على الشك فى الماضى بآرائه ومعتقداته أو يدعو لمذهب جديد كالاشتراكية والعالمية وغيرها .

والذى يلاحظ أن جميع الأديان الجديدة ترمى إلى اتحاد العالم وإزالة الفروق الوطنية .

ولو أردنا أن نتنبأ بالمذهب الذى سوف يكون له الفوز من هذه المذاهب لقلنا أو لأجبنا بأنه مذهب الاشتراكية ذلك لأنها تستهوى بعودها أفئدة الساخطين والمتذمرين والفقراء وهم السواد الأعظم من سكان العالم ولأنها تسد النقص الملموس الناتج عن التقدم العلمى وظهور المخترعات والآلات ولأنها وسط بين نظامين يتأفف منهما المتدينون وهما الشيوعية والفردية وقد أخذت منهما حسناتهما ونفضت عنها نقائصهما الظاهرة.

وهناك أسباب كثيرة تجعلنا نوقن بأن المستقبل للاشتراكية وليست الاشتراكية نهاية ما يمكن أن يتطور إليه النظام الاجتماعى وإذا خاب أملنا فى الاشتراكية بعض الحين فليس معنى ذلك الرجوع إلى حالتنا الأولى وإنما يجعلنا نزداد إيماناً بالتطور الذى هو الخالق الوحيد للاشتراكية وغيرها من الآراء والعقائد » . أ . هـ .

وتعطى هذه النصوص المركزة الوجهة الحقيقية لنجيب محفوظ فى هذه الفترة السابقة والتى تكشف عن خلاصة ما كان يوصى به سلامة موسى تلاميذه فى جمعية الشبان المسيحيين وفى كتاباته فى المجلة الجديدة وغيرها .

وهى تؤكد أن نجيب محفوظ عام ١٩٥٩ فى رواية أولاد حارتنا كان يحول أفكاره قبل ثلاثين عاماً ١٩٣٠ فى المجلة الجديدة إلى حقيقة واقعة .

وإن كانت الحقائق قد جاءت مسرعة يوم أعطيت أولاد حارتنا جائزة نوبل بسقوط هذا الصرح الماركسى الشيوعى الاشتراكى حين سقطت الدولة التى خدعوا بها السذج الأغرار سبعين عاماً كاملة .

يقول الأستاذ رائد عطار (المسمى مصطفى عدنان فى كتاباته فى جريدة النور) :
نحن نؤكد لنجيب محفوظ بعد فحص النص ، النص الذى أمامنا لأولاد حارتنا أنه حين كتبه كان يكتبه خدمة للشيوعية .

ويؤكد هذا كيف انتصر الشيوعى الملحد (فى آخر رواية أولاد حارتنا) الذى قتل (الجبلاوى) المتمثل فى الرواية كالآلهة ، ولنرجع إلى الحلقة النهائية للرواية التى تكشف بلا أية أردية الهدف من الرواية حيث يقول نجيب محفوظ إن هذا الشيوعى الملحد (الذى قتل ....) هو المصلح الأخير للبشرية وهو الأمل الذى سيقود العالم إلى يوم الخلاص .

فعلى طول ٩٦ حلقة انتهى نجيب إلى أن الوصايا العشر والتوراة والانجيل والقرآن هى بنص كلماته أحلام ضائعة قد تصلح ألحاناً للرباب ولا للمعاملة فى هذه الحياة (الفصل ١١٤) .

وإن الحكام المستبدين هم الذين يوحون إلى شعراء المقاهى أن يبعثوا بقصة الله (جل فى علاه) وبخاصة مقتله بين الشيوعيين الملحدين الذين يهادنهم الحاكم خوفاً مما لديهم من السحر ، إن هذا الشيوعى الملحد قاتل الله (جل شأنه) هو المصلح الأخير وهو الأمل الذى يقود الناس إلى يوم الخلاص رغم فشل شرائع السماء المنزلة .

هذه الجائزة منحت لهذا الفكر الذى رفعه عالياً نجيب محفوظ فى خدمة روايته بعد أن كفر الشيوعيون فى بلادهم بشيوعيتهم وإن انهيار العقيدة نفسها داخل هؤلاء القادة والقيادات الشيوعية لأن الانتماء للأحزاب الحاكمة لا يمثل بالضرورة كامل الولاء لها .

وإن أولاد حارتنا تلك ترجمت قول كارل ماركس : أن الدين هو آفة الإنسان المقهور وأنه أفيون الشعوب .

هذا الشيوعى هو المخلص كما قلت لنا قبل ٢٩ عاماً من اليوم فى أولاد حارتنا وفى أوج حكم الاستبداد الناصرى فى مصر وعند بدء غزو الشيوعية لقمم الحكم فيها .

ويستطرد فيقول :

لذا فنحن نحزن حقاً لأن أولاد حارتنا حاولت أن تحقق هدف البروتوكول الرائع لحكماء صهيون الذى يقول :

« يتحتم علينا أن ننتزع فكرة الله وعندها يصبح المجتمع منحلاً وخالياً من الدين »

ويقول محمد عبد العليم : لعل سبب إعلاء نجيب محفوظ لليهودية فى الحلقة التى نشرها يوم ١٩٥٩/١٠/٢٥ بأنها القادرة على تنظيم حياة الشعوب دون شرائع الديانات الأخرى ، أنها الشيوعية التى ستخلص بها أولاد حارتنا العالم من بؤسه .

ويقول : سوف يتيقن الجميع أن انتظارنا ليوم الخلاص الذى وعدتنا به (أولاد حارتنا) فى الحلقات الأخيرة على يد الشيوعى الملحد الذى قتل (الجبلاوى) أن هذا الانتظار سوف يمتد إلى الأبد لأن الجنة التى وعدت بها الشيوعية البشر لن تتحقق وها هم بعد ٢٥ عاماً على دولة أنبياء الشيوعية يعترفون بأنهم يواجهون فى معقلها كارثة القمح وفى سائر الدول بلا حرج الشىء نفسه عمن خانوا قيم السيد المسيح .

إن انهيار الاقتصاد وسقوط هو ماو تانج فى الصين والغزو السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا وثورات الشعوب الشيوعية ترد على مقولة نجيب محفوظ آخر سطور أولاد حارتنا يوم فوزها ، وكل هذا الفشل جرى لتجربة تطلبت فى روسيا وحدها إعدام ١٦ مليون شخص من عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٣٦ غير ١,٤ مليون صرعتهم المعتقلات .

وواضح تماماً أن هذه الرواية تنتهى بإعلاء فكرة فشل جميع الديانات المنزلة ومقتل فكرة أن الله ـ تبارك وتعالى ـ موجود وأن الحل الأمثل الذى تنتظره الشعوب الآن هو استيلاء الشيوعى الملحد على مقاليد الأمور لإصلاح العالم .

ومن المعروف أن إذاعة إسرائيل سبقت إذاعات العالم بنبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل وقدمته فى صدر نشراتها بتعليقات حماسية للمفكرين الإسرائيليين .

ومن نص أولاد حارتنا : أن هناك تأثيراً لصالح اليهودية ضد المسيحية والإسلام حيث يرى الكاتب أنه لو سلمت مقاليد تنظيم العالم لآل جبل (اليهود) لما استمرت المظالم .

وقالت بعض المحاولات الإسرائيلية إن ملامح الشخصية اليهودية بارزة فى معظم أعمال الكاتب المصرى .

ويركز الباحث على أن جائزة نوبل رصدها يهودى هو (نوبل) وقررتها لجنة من اليهود وأن الرواية تناولت الله تبارك وتعالى جل فى علاه والرسل والأنبياء ومثلتهم بأشخاص فى الحارة ، وتقول الحيثيات الرسمية للجائزة : إن موضوع الرواية غير العادية (أولاد

حارتنا)هو البحث الأزلى للإنسان عن القيم الروحية فآدم وحواء وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء والرسل بالإضافة إلى العالم المحدث يظهرون في تخف طفيف وعندما خرج ممثل نوبل ليعلن الفوز العظيم تحدث عن نوايا بريئة .

أما العكس هناك نوايا خبيثة أن تفجر فى طول العالم الإسلامى والمسيحى وعرضه قصة مستفزة لجماهير المسلمين والمسيحيين كما يتعامل معها الذين يذودون عن عقائدهم وعن الأدب فى التحدث عن الله عز وجل وأنبيائه ورسله فى تصويرهم بغير تشويه .

وأشار الباحث (رائد عطار) إلى إصرار الأهرام عام ١٩٥٩ على نشر هذه الرواية يوميًا لمدة ثلاثة شهور وأن ذلك ما كان نابعاً من أنها تعبر عن فكر كاتبها وحده أم ناشرها أيضاً حيث التقى فكر نجيب محفوظ مع هوى وفكر هيكل ، أم أن فكرها نبتت فى الحوار الذى كان يدور كثيراً بينهما .

ولقد كان هيكل هو ناشر قصة أولاد حارتنا الذى أصر على استمرار نشرها رغم أنف رجال الدين وثورة القراء مسلمين ومسيحيين ولأول مرة ينشر مع القصة ٩٦ لوحة تصور الله والأنبياء ومن ورد ذكرهم منها بريشة الفنان حسين فوزى .

وقد جاءت أولاد حارتنا بتجسيد وتشخيص الله ورسله وأنبيائه خلافاً لما أجمع عليه رجال الدين واجتمعت عليه الآراء .

وقد صدرت الرواية فى الوقت الذى ألغيت فيه المحاكم الشرعية وأعلن عن تطوير الأزهر وأنها صدرت واتصالات مصر على قدم وساق كى تنتقل من معسكر الغرب إلى معسكر روسيا الملحدة .

ولابد أن هناك سبباً دعا لجنة نوبل المقدسة التى تحمل لواء الفكر الغربى مما دعاها إلى التنازل عن حربها المقدسة ضد الإلحاد والعسف الشيوعى لتمنح أولاد حارتنا جائزة نوبل .

ولقد ترجمت رواية أولاد حارتنا إلى مختلف اللغات وأطلق عليها فى الترجمة (قصة موت الإله) وقد قسمت الرواية إلى فصول بعدد سور القرآن (أى ١١٤) .

وقد تبين تعارضها مع الإسلام شكلاًوموضوعاً لما فيها من سخرية واستهزاء بالله تبارك وتعالى وبجميع الرسل الكرام وعلى رأسهم سيدنا محمد ﷺ .

وهكذ كانت القصة حين تخلت عن قيم الإسلام مجالاً لعمل تغريبى سياسى خطير

وقد أعطيت فرصة التمهيد للأفكار والقضايا المثارة حول الاشتراكية والتحول من النظام الغربى إلى النظام الماركسى واستخدام القصة والفن لخدمة الهدف وقد قام نجيب محفوظ بالدور التمهيدى لتقبل الإلحاد والماركسية وغيرها على النحو الذى قام به هيكل بتوجيه نجيب محفوظ إلى كتابة قصة فيها نقد للأديان وصولاً إلى انهيار الدين جملة وانتصار الماركسية .

ولقد جاءت دراسة علماء الدين واضحة من أن الروايةهجوم على عقيدة الألوهية ورفض للوحى كله وإنكار ساخر لنبوات موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ونزعة علمانية تجعل الدنيا أوهاماً ومهازل.

وقد ألمح نقاد القصة على أن قصص نجيب محفوظ تقوم على الحط من قدسية الدين وهيبته ومزج رموزه مع الخمر والجنس والنساء وبالذات احترام المومسات فلا تكاد تخلو قصة من قصصه من المومسات .

ولقد كانت القصة منذ اليوم الأول عملاً ماسونياً يجرى عن طريقه إعادة تشكيل عقلية الأمة على نحو مخالف لقيمها التى نشأت عليها فى أحضان الإسلام منذ خمسة عشر قرناً فهى أداة من أدوات مؤامرة تحطيم الثوابت على مراحل متوالية ، أوله التحرك من خلال مفهوم الجنس استمداداً من مفاهيم الماسونية (ثانياً) إخضاع الحقيقة التاريخية للصورة الفنية (ثالثاً) الوصـــول إلى مؤامرة الحداثة التى غيرت المحاولات تماماً وكشفت أبعاد المؤامرة ، وأخطر ما فى (فنية) كتابة القصة من مساوىء الفرصة المتاحة للكاتب أن يغير من الحقائق (الاجتماعية ـــ أو التاريخية) بحيث يكون مفهوم الدراما أكبر وأشد أهمية من الواقع .

وبذلك تستطيع القصة أن تعطى وضعاً كاذباً مخادعاً يتفق مع أهواء الكاتب أو الغاية التى وضعت القصة من أجلها أو رسمت لها ولا قيمة مطلقاً للحقائق التى تقوم على أساس الفطرة أو الواقع التاريخى .

ويبدو أن هذه القاعدة لديهم هى بمثابة فتح الباب أمام تحطيم الثوابت وتغليب الأهواء والانحراف بالفن كله ناحية الهدف الذى يرمى إلى إفساد حقائق الحياة والمجتمعات وتغليب عالم الخيال على عالم الواقع .

ولعل أخطر ما فى العمل القصصى أنه لا يملك قيماً ثابتة فهو أداة للتغرير بالأم على النحو الذى كتبت به (أولاد حارتنا) لتفسح مجالاً فكرياً فى مصر لمفاهيم الماركسية وموت الإله .

وذلك حسبما يقول نجيب محفوظ إن لكل رواية ظروف بيئة تؤثر فى إخراجها للقارىء وأن هذا لا يمنع أن تكون الفترة التى سادت فيها المبادىء الاشتراكية قد أثرت بعض الشىء فى كتابة الرواية .

ولقد كانت محاولات القصة والمسرح ولا تزال العمل على إدخال مفاهيم جديدة تقنع الناس بأن المجتمع فاسد والهدف هو إشاعة الاعتقاد وأن المجتمع لا يتحرج من الفحشاء وهى لم تعد إثماً كما كانت فى ثقافة الماضى (الأديان) ولقد صيرها التقدم العلمانى حقاً لكم تمارسونه فى البيت أو الشارع .

وقد حفلت قصص نجيب محفوظ التى تمثل تاريخ مصر بصور نساء غارقات فى الخيانة ، ومجتمعات تفوح منها رائحة الحشيش والإباحة ولقد أعجب الغربيون والمستشرقون بهذه الصور التى قدمها كثير من كتاب القصة وفى مقدمتهم يوسف السباعى ونجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس وتوفيق الحكيم ، وكانت هذه القصص لابد أن تترجم أو تحرز الجوائز لأنها تحقق هدفاً أساسياً هو تركيز صورة الإباحة فى المجتمع ، ومن هنا يفخر أحدهم بأن الغربيين ترجموا مؤلفاته إلى لغاتهم ، فيثير هذا فى نفوس الشباب المسلم الإعجاب ولو دروا لعلموا أنهم قالوا « هذه بضاعتنا ردت إلينا » .

أما الذين ترجموا فهم المستشرقون الذين يفاخرون بأن منهجهم فى الفن قد نقل إلى العربية وفرض على المسلمين ، وأن نصوصاً غربية فى الأسلوب وفى المضمون قد دخلت اللغة العربية وأن منهج الدراما الذى رفضه المسلمون حين ترجموا العلوم فى القرن الثالث الهجرى قد دخل أخيراً إلى الأدب العربى وكتبت به مسرحيات من خلال مضمون غربى ووافد ، وتوفيق الحكيم كان فى مقدمة هؤلاء ، فقد اعتمد على مضامين الفكر الغربى بما استمده من الأدب اليوناني والوثني ، وما نقله عن التوراة مثل كتاباته عن أهل الكهف وسليمان الحكيم وقد تجاهل تماماً وجهة نظر القرآن الكريم فى هذين الموضوعين واعتمد مقولة التوراة وأعمال كتاب الغرب ، ولقد كانت فنون الدراما والحبكة الفنية أساساً للكشف والإباحة وإثارة الغرائز ومصادمة مشاعر الجماهير .

والعلمانيون يريدون المسرح والفنون بعامة سواء أكانت مبتذلة أو هابطة أو داعرة لأنهم يريدون من وراء المسرح تحطيم المقاومة والعقيدة والأخلاق الإسلامية ولكن الإسلام يدعو إلى إعلاء الفنون وترقية الفكر والوجدان والسلوك والدفاع عن العدل والحق ، وأن الفنون إذا تخلت عن وظيفتها سقطت .

ومن هنا فإن القول بأن قصص نجيب محفوظ تمثل شرائح الطبقة الوسطى فى المجتمع المصرى ، هذا قول باطل لأن هذه الشرائح ليست الراقصات والغوانى ولكنها تمثل أنقى طبقات المجتمع إيماناً وخلقاً ، والمعتقد أن الصورة التى رسمها نجيب محفوظ فى قصصه لا تمثل المجتمع المصرى لأنها اختلطت بأمرين (الأول) تغليب طابع الجنس (الثانى) ما تفرضه فنية القصة من إخضاع الحقيقة للسيطرة الفنية لقد كانت محاربة الدين هى إبراز أهداف الفلسفة المادية والماركسية التى صنعها اليهود ووضعوا قوانينها فى فلسفة الماسونية ونظموا مخططها فى البروتوكولات .

ملحق : [مر نجيب محفوظ بمراحل : المرحلة التاريخية والواقعية والرمزية ثم التركيبة التى جمعت بين هذه العناصر ، وتمثل قصة (كفاح طيبة) ذلك الاتجاه الفرعونى الذى أثبته بعد نيل جائزة نوبل حين قال إنه ابن حضارتين : الحضارة الفرعونية والحضارة الإسلامية ، وكيف يمكن أن يتأتى له ذلك والفرعونية خمسة عشر قرناً فضلاً عن أن جميع معالمها الفكرية قد ضاعت وأن الذين دعوا إلى الفرعونية فى الثلاثينيات انهزموا جميعاً] .

أما قصة (عبث الأقدار) فهى علامة على الإلحاد الصريح ويعبر نجيب محفوظ بمقاله فى المجلة الجديدة عن سيادة الاشتراكية على العالم ، ويرى أن الاشتراكية هى المذهب الذى سيسود ، وربما ظن حين طلب إليه تشويه الأنبياء أن النبوءة قد صدقت ولكن الحقيقة لم تلبث أن تكشفت بعد قليل وسقطت (الاشتراكية الماركسية الشيوعية) جميعاً .

وإذا كان نجيب محفوظ قد أعجب بما أورده برجسون من القول بالثنائية بين الجسم والنفس وبين الجسد والشعور وبين الفكر والروح مما يعتبر الروح حرية والجسد قيداً وحيواناً وهوى .

وهذه هى مفاهيم المسيحية التى تختلف عن الفكر المادى الذى يغلب الجسد والمادة ويختلف عن الإسلام الذى يجمع بينهما فى تناسق رشيد .

يقول نجيب محفوظ : لعل الاضطراب الناشىء عن قراءة أدبى مصدره أن قلبى يجمع بين التطلع لله والإيمان بالعلم والإيثار للاشتراكية ومحاولة الجمع بين الله والاشتراكية مثار للظن بالإلحاد عند قوم وبالمحافظة عند آخرين ، ولو أن نجيب محفوظ أخذ مفهوم الإسلام الجامع بين الروح والمادة ، والقلب والعقل لوجد فى الإسلام إجابات مضيئة للعدل الاجتماعى لا يحتاج معها المسلم إلى الاشتراكية ويجد الله تبارك وتعالى فيها فوق الخلق كلهم جميعاً بالرحمة والعدل والناس فى الدنيا كلهم أكفاء على نحو ما صور ذلك أحمد شوقى .

الله فوق الخلق فيها وحده   والناس تحت لوائه أكفاء

ولكن تلقيه عن سلامة موسى المسيحى الاشتراكى أشربه مفهوم المسيحية بالعلاقة بين الروح والجسد وحال بينه وبين مفهوم الإسلام وقد كان المفهوم الذى عبرت عنه (سهير إسكندر) المسيحية من أن الكائن البشرى ذو طبيعتين متناقضتين متعاديتين إحداهما حيوانية جسدية هابطة والأخرى روحية سامية علوية هو مفهوم مسيحى أساساً وليس مفهوماً من مفاهيم الدين المنزل .

كذلك فإن مفهومه فى أن الطريق الناجية هى محاولة قهر الجانب المادى والغريزى فى اتجاه نحو الصوفية مفهوم فاسد ، وهكذا فإن مفهوم نجيب محفوظ للدين أساساً مضلل ومضطرب ومختلف عن مفهوم الإسلام الذى يقرر أن السمو الروحى لا يكون بقهر رغائب الإنسان الطبيعية وإنما يكون بأدائها وتهذيبها ، ومقولة نجيب محفوظ من حيث إن الإسلام دين يدعو إلى الاشتراكية هو مفهوم خاطىء ، فالإسلام يدعو إلى منظومة تجعل العدل الاجتماعى جزءاً منها وليس الاشتراكية التى عرفتها أوربا على إطلاقها ، وتختلف نظرة الإسلام للعلاقة بين المادة والروح اختلافاً جذرياً عن نظرية نجيب محفوظ وفيلسوفه برجسون من حيث رفض التعارض بينهما أو ترجيح أحدهما .

وقد أدى هذا إلى زعزعة عقيدة المسلمين بالإسلام لأنه يقيس الإسلام بالمسيحية على طريقة القياس الشمولى فالإسلام يرى أن الأشياء التى يدركها الحس هى أشياء مادية والناحية الروحية هى كونها مخلوقة لخالق ، ولم تقتصر تبعية نجيب محفوظ للاشتراكية

والماركسية وحدها بل إنه مغرق فى التبعية للوجودية والعبث ورواياته تؤكد أنه تأثر إلى حد كبير بهذه المقولات الوجودية الفرنسية وبآراء سارتر وبآراء البيركامو على وجه الخصوص فى إلحاحه على فكرة العبث كما تأثر بآرائه حول البطل المتمرد .

ورأى نجيب محفوظ فى رواية اللص والكلاب [تفرد الإنسان فى الكون وحده بلا معين] ، وهذا مطابق لرأى الوجودية الفرنسية التى تقول إن الله (جل فى علاه) قد ألقى بالإنسان فى هذا الكون ثم أهمله ، لذلك لم يعد فى حاجة إليه وعليه أن يحقق وجوده بمجهوده الخاص .

وأخطر من ذلك كله دعوة إلى طريق اللهو والطرب والجنس واحترام المومسات والإقبال على الحياة ، ولقد كان من أكبر أخطار الفكرالتغريبى والاتجاه الماسونى والماركسى والاستشراقى الدفاع عما يسمى (حرية الفن) واعتبار أن مصادرة العمل الفنى مهما كان متعارضاً مع العقيدة جريمة ترتكب ضد الحضارة وهى كلمات قديمة معروفة وضعها التلموديون على أقلام وألسنة كتابهم أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم : إن الحرية الفنية يجب أن تكون مصونة ومقدسة حتى لو استباح الفن تزييف تاريخ الأنبياء والحط من قدرهم وبزوغ فكرة قتل الإله وغير هذا مما يعرفه الفكر الغربى الذى كان يهاجم فى الأساس المسيحية ، واليهودية ، أما فى الفكر الإسلامى فالأمر يختلف اختلافاً عميقاً .

قال فيليب ستوارت مترجم أولاد حارتنا : إنها تتناول بجرأة المفهوم الحديث لموت الإله وإنها تمثل رؤية لوجهة نظر مسلم معاصر عن موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ووصفها بعض الباحثين بأنها فكر مضلل من الأدب المحرم شرعاً وإساءة بالغة للمقدسات الدينية ويمثل حرية العبث والهدم « طبق الأصل » .

* * *

ملحـــــق

(إحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ والمرأة المصرية)

يقول أحمد هاشم الشريف : إلى الأستاذ نجيب محفوظ :

إنك ظلمت المرأة المصرية الفقيرة والمكافحة فى الأحيـــاء الشعبية عندما قدمتها فى صورة (زنوبة) صبية العائلة فى (الثلاثية) وحميدة الساقطة فى أحضان الإنجليز فى زقاق المدق . ونفيسة البغى المسرفة فى بداية ونهاية . ونبوية الزوجة الخائنة فى اللص والكلاب .

إننى أخشى أن ينظر الناس إلى أدبك فى المستقبل باعتباره تاريخاً مصرياً ووثيقة اجتماعية فلا يجدون فى أغلب رواياتك صورة للمرأة المصرية غيرصورة غادة الكاميليا الخاطئة الفرنسية وقد انتقلت إلى أحيائنا الشعبية وتزداد خشيتى بعد حصولك على جائزة نوبل وترجمة رواياتك إلى شتى اللغات وبلوغك درجة العالمية فلا يعرف العالم عن المرأة المصرية غير الانحراف والخطيئة حتى بعد أن تغيرت ظروفها الاجتماعية فتتأكد الصورة الراسخة في الأذهان عند شعوب العالم والتي عرفها من حكايات ألف ليلة عندما كانت المرأة الشرقية جارية ومحظية ومصدراً للمتعة الجنسية ولا تنسى للمرأة المصرية ما قدمته من رصيد ضخم فى السينما عن انحراف المرأة وقد لا يعلم الكثيرون أنك قدمت للسينما العديد من القصص لأفلام منذ الأربعينيات من هـــذا القرن ـــ بعضها يصور جانب الشر فى المرأة مثل (ريا وسكينة) وبعضها الآخر مثل(شباب امرأة) يجعل المرأة لعبة للشيطان عندما تواتيها الفرصة لنوال حريتها وقد دافع إحسان عبد القدوس فى رواياته وفى أفلامه عن حرية الفتاة اللاهية بالحب فى الطبقة الارستقراطية وأنت ظلمت المرأة الفقيرة المكافحة فى الأحياء الشعبية ثمانى كاتبات فزن مثلك بجائزة نوبل آخرهن نادين جورديمر وطوفى مورلسون بسبب دفاعهن عن الرجل الأسود وثلاث رئيسات يحكمن الدول فى عالمنا الإسلامى وتنتظر مثلهن فى عالمنا العربى ولكن إعلامنا العربى وأدبنا العربى ما يزال أسيراً لخيانة المرأة ومكرها التي بدأت بها صفحات ألف ليلة لأن العرب لا يشاهدون المرأة أثناء النهار وإذا شاهدوها بالنهار تذكروها بالليل » . أ . هـ .



المؤامرة على الصحوة الإسلامية
فتح باب العلمانية والتغريب فى مختلف المجالات

كانت نكسة ١٩٦٧ ثم الصحوة الإسلامية ١٩٧٩ وشروق فجر القرن الخامس عشر الهجرى كلها علامات على تحول الفكر الإسلامى من عملية الرد على شبهات المستشرقين إلى بنـــاء مفاهيم وقيم إسـلامية أساسياً على النحـو الذى عـرف وأطلق عليه (تأصيل الفكر الإسلامى) والذى تبين فى قضايا (أسلمة العلوم والمناهج والمصطلحات) وفى ما كشفه العلم فى العقود الأخيرة من تأكيد للإعجاز القرآنى فى مجال العلوم التجريبية بعد أربعة عشر قرناً مما أثار ثائرة أعداء الإسلام وخصوم الشريعة الإسلامية فتدافعوا بقوة خارقة من أجل ضرب الإسلام وقيمه فى كل موضع وفى كل طريق واستعدوا على الإسلام كل العناصر الشيوعيين والهندوك والعلمانيين والملاحدة ودعاة الماسونية وبروتوكولات صهيون جميعاً فى حملة واحدة مشتركة لمواجهة الصحوة الإسلامية التى يظن الغرب أنها ترمى إلى القضاء على نفوذه .

ولم تكن الصحوة الإسلامية وحدها هى مصدر الحملة ولكن سقوط الشيوعية كان عاملاً خطيراً فى التركيز على اختراق الإسلام .

وهكذا تجمعت الخيوط المتفرقة المختلفة ـ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ـ من بقايا المذاهب العلمانية والإلحادية والإباحية المطاردة المنبوذة لتتكاثر تحت مظلة مقولة مضـللة هى « التنوير الظلامى » .

ووجدت فرصة لن تطول تفتح أمامها أبواب الصحف وتتاح لها السيطرة على بعض المجلات لتطرح سمومها ومقولاتها المضطربة الجامحة مغلفة فى سمت أهل العلم وذوى الرأى ليحملوا إلى الأمة الإسلامية ممثلة فى شبابها وأجيالها الجديدةخليطاً مضللاً من أوحال الفكر الغربى الذى يحمل معه الإغراء والخداع وفتح أبواب الانطلاق المضلل ليجعل من هذا الحشد الهائل صورة جديدة لضرب الأصالة الإسلامية وقد حملوها قبل ذلك باسم الاشتراكية وباسم القومية ومن خلال الحداثة والفرويدية والوجودية ولم تلبث أن بارت تجارتهم وتكشفت عوراتهم وسقطت المحاولتان قبل أن يحققا أى بارقة من ظل .

واليوم يعودون مرة أخرى باسم التنوير وباسم الحداثة وباسم العلمانية يعودون إلى أفق الإسلام الذى انكشفت له حقائق الأمور وانطلق نور الحق بين يديه ليرده عن ظلمات المقولات المضللة قديمها وحديثها سواء أكانت يونانية أم باطنية أم علمانية أو شعوبية .

إن قاعدة الثبات الإسلامية هى أهم ركائز الإسلام والفكر الإسلامى . هذه القاعدة المرتبطة بالمتغيرات غير منفصلة عنهـا والتى تؤكد الحقائق العليا التى قدمها الإسلام بوصفه (منهج حياة ونظام مجتمع) فاتحاً الباب واسعاً أمام تقبل التغيير والتطور فيما عدا هذه القيم الثوابت .

والإسلام على هذا الوضع مرن فسيح قادر على العطاء لايرد عنه من عطاء الحضارات والأمم إلا الشر والإثم والظلم والفاحشة ويتقبل كل ما يجده من عوامل الخير والتقدم والأصالة .

فكيف إذن يمكن أن يدعو داع بالباطل اليوم فى محاولة مضللة للتشكيك فى القيم الثوابت وفى مؤامرة ظالمة لتحويل هذه الثوابت إلى متغيرات .

هذه الثوابت التى عاشت خلال أربعة عشر قرناً كدعامة أصيلة ثابتة مكينة لإقامة المجتمع الإسلامى الصحيح وبناء الفكر الإسلامى السليم .

إن الذين يدعون إلى هدم قاعدة (الثوابت والمتغيرات) والذين يحملون معاول التشكيك فى أصالة القيم الإسلامية إنما يهدفون إلى هدم ثوابت الإسلام وقيمه الربانية الأصيلة التى جاءت لتقيم منهج الحياة الإنسانية حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

أما الحملة على الإسلام فإنها تأخذ فى هذه المرحلة (١٩٧٩) ـــ : مرحلة جديدة تتمثل فى زعامات تتوزع عليها فنون القول المضلل بعد أن سقطت الشيوعية وانهدمت محاولاتها الخطيرة وتبين أن الصراع بين المذهبين الغربيين سوف يسقطهما معاً :

١ ـــ مذهب الوجودية المستمد من الإلحاد الوثنى الإغريقى .

٢ ـــ ومذهب العلمانية التى تحاول أن تسيطر على العلوم الاجتماعية والإنسانية وتدمر وجود الإنسان الحقيقى .

ويبدو هذا واضحاً فى كتابات جورج قنواتى وعاطف العراقى ومراد وهبة التى تعمل على إحياء الفكر الباطنى القديم .

إن المحاولة تتركز فى الفلسفة اليونانية التى كان أول من فرضها فى الجامعة طه حسين

إنها هى ألعوبة كل العاملين فى حقل العلمانية والراغبين فى هدم الإسلام ، تراها واضحة فى كتابات أركون وكتابات أدونيس ومن قبلهما عبد الرحمن بدوى .

وتتركز اليوم الأضواء حول (ابن رشد) فالكل يتحدث عنه كآخر الفلاسفة الإسلاميين وقد جاء بعد الغزالى الذى حطم هذا الهدف قبل مائة عام من ظهور ابن رشد .

وكلهم من عبد الرحمن بدوى إلى جورج قنواتى إلى عاطف العراقى إلى مراد وهبة يتحدثون عن إعادة ابن رشد إلى الحياة لأنه يملك مفهوماً مضللاً اسمه (التأويل) يختلف عن مفهوم الإسلام لهذا المصطلح ويريدون عن طريق هذا المصطلح أن يأوّلوا كل شيء حتى الذات الإلهية وكل ما يتصل بالدين من وحى وغيب .

إنها محاولة إحياء الباطنية ، وهذا الاتجاه واضح فى كتابات أدونيس وأركون ولكنها أشد وضوحاً فى كتابات (سيد حسين نصر) فى كتابه ثلاثة حكماء مسلمين هؤلاء الحكماء هم ابن سينا والسهروردي وابن عربى وكلمة (حكماء) هذه توحى بتقدير كبير لمن حملوا لواء الفلسفة اليونانية أو الفكر الإشراقى ومفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد وأذاعوها بين المسلمين فى العصر الأول رغبة فى تدمير مفهوم التوحيد الخالص ، وقد رد عليهم علماء المسلمين الأصلاء فكشفوا زيفهم ودحضوا سمومهم .

وبعد أن انتهت تلك القضية فى عصرها وكشف الغزالى وابن تيمية وغيرهم عن حقيقة هذا التيار وظهرت فى السنوات الأخيرة وثائق جديدة تكشف عن أن ابن سينا والحلاج والفارابى وكتاب (رسائل إخوان الصفا) كانوا داخل مخطط التآمر الذى قام به القرامطة كيف يمكننا اليوم أن نقبل هذا الأمر .

إن ابن سينا عالم وطبيب ونحن نقبل منه هذا الجانب ولكن بالنسبة للفلسفة الباطنية المتخفية وراء النصوص والسطور فلا نقبلها ، ولطالما كشف علماء الإسلام الأبرار عن أن الفلسفة اليونانية وأتباعها الذين ساروا على خطاها لا يمثلون تياراً إسلامياً أصيلاً ، أما الذين يؤمنون بالإشراق ويوغلون فى التبعية للغنوصية فهم مرفوضون تماماً .

ولا ريب أن الدكتور سيد حسين نصر قد استطاع من خلال دراسته لهؤلاء الفلاسفة الذين أغربوا فى مفاهيم أرسطو وأفلوطون وأفلاطين وغيرهم لا يمثلون اتجاهاً إسلامياً صحيحاً ؛ وقد وصفهم علماء الإسلام بأنهم المشاءون المسلمون الذين تبعوا خط المشائين اليونان .

ولست أدرى كيف يمكن أن يكون هدف الصحوة فى نظر هؤلاء هو إحياء هذه الفلسفات بالذات التى تأثرت بالفلسفة اليونانية والفارسية والسريانية .

من خلال شخصيات موصومة لم تعرف الفهم الأصيل للإسلام وتأثرت بالوثنية وعلم الأصنام على النحو الذى تجده واضحاً فى كتابات ابن سينا والسهروردى وابن عربى والحلاج ، أو فى كتابات دعاة الفكر الإشراقى والتصوف الفلسفى ومفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد .

وقد كشف زيفهم علماء مسلمون أصلاء فى مقدمتهم الأئمة الشافعى والغزالى وابن تيمية وقد استطاعوا أن يحطموا هذه المؤامرة فى إبانها ولكن الاستشراق والتغريب قد أعاد اليوم إحياء هذه الدعوات .

هذا وفى هذا العصر قد أولع جماعة من المتأثرين بالدعوات والنحل المنحرفة التى لم يستقم لها مفهومها للتوحيد الخالص بالدعوة إلى هذه الفلسفات اليوم فى محاولة لخلق مفهوم غامض مريب يفصل بين حقيقة الإسلام وبين هذا التصور المستمد من الفيثاغورسية والأفلاطونية عند الإغريق والهرمسية أو فكر المدرسة الأفلاطونية الإشراقية والأفكار الزرادشتية فى الفكر الفارسى القديم .

وعلى هذا النحو ظهرت نظرية مثل (الإشراق للسهروردى أو وحدة الوجود لابن عربى أو الحلول أو الاتحاد) للحلاج .

وترتبط هذه المفاهيم بالغموض والرموز وما يتصل بتفجير اللغة العربية بمصطلحات غريبة عن يسر الإسلام واللغة العربية وما يتصل بذلك من القصص والخيال .

كل هذا تجرى محاولة إحيائه وإدخال مفهوم زائف يختلف أو يتعارض مع القرآن الكريم فى محاولة خطيرة لتدمير المفهوم الأصيل للقرآن والسنة والتراث الإسلامى الذى تقف منه كل هذه القوى موقف الحقد والكراهية والعمل على هدمه وتدميره .

ويكاد يكون (ابن سينا) هو القاسم المشترك الأعظم على كتابات إبراهيم مدكور والأب جورج قنواتى .

ويأتى ابن رشد فى المرحلة الثانية وفى كتابات مراد وهبة وعاطف العراقى وجورج قنواتى .

الأب جورج قنواتى وجماعته

"مراد وهبة وعاطف العراقى"

ما تزال الفلسفة المادية من أخطر الأسلحة التى تواجه الفكر الإسلامى والتى يروج لها كثير من أصحاب الأسماء اللامعة فى محاولة لاحتواء الشباب المسلم ويأتى الدكتور جورج قنواتى فى مقدمة العاملين لهذا الهدف فى جرأة شديدة فهو يتحسر على النهضة التى بدأها لطفى السيد وطه حسين علمانية متحررة ثم تبددت اليوم تحت أضواء الصحوة الإسلامية .

(إن هذا العمل الثورى الذى قام به كبار مفكرينا) أملاً أن يستمر هذا العمل رغم ظهور التيارات الرجعية التى تريد التخلى عن كل ما وصلت إليه ، وقد وصف ما يحدث بأنه نوع من الردة ويرى أن مصر محصنة من كل يريد طمس ثمار تحديثها منذ قرنين .

هذه هى القضية الكبرى التى تشغل المستشرقين والمبشرين ودعاة التغريب منذ ظهور فجر الصحوة الإسلامية .

ولقد كانت حركة الغزو الفكرى والتغريب تقوم على قاعدتى : الاستشراق والتبشير ولكن فى المراحل الأخيرة ظهرت عوامل أخرى أشد خطراً هى الإرساليات وفى مقدمتها إرسالية الدكتور جورج قنواتى (دير الدومنيكان) الذى يعمل لحساب الثقافة الفرنسية والذى يقصده بعض شبابنا المسلم فى البحث عن بعض المخطوطات أو الكتب النادرة فى مكتبة الدير فيلتقطهم الأب قنواتى وفى مقدمتهم الدكتور عاطف العراقى والدكتور مراد وهبة وهم يرددون كل ما يقوله الدكتور قنواتى متمثلاً فى عدد من الأكاذيب المضللة التى يروجون لها :

١ ـــ الغزو الفكرى أسطورة كبرى فلا خوف على شخصيتنا أو ثقافتنا العربية مما يسمونه الغزو الفكرى .

٢ ـــ تيار التنوير هو الأساس للحياة الحضارية الحقيقية .

٣ ـــ الدعوة إلى إحياء فكر ابن رشد .

٤ ــ الانفتاح على الثقافات الأوروبية .

٥ ــ مقاومة الهجوم على حضارة الغرب .

٦ ــ الدعوة إلى اعتناق الفكر الغربى الأوربى على اعتبار أنه أعظم صور الفكر .

والواقع أن هذه كلها سموم مضللة وأكاذيب خادعة .

فالغزو الفكرى والتغريب حقيقتان قائمتان لا يمكن إنكارهما إلا مضلل ؛ أما الخوف على شخصيتنا من الفكر الغربى فهذه حقيقة ، فقد أوصانا الإسلام بالحذر واليقظة ورسم لنا منهج التعامل مع الفكر البشرى دون السقوط فى دائرة الاحتواء أو التبعية .

ولا يزال الإسلام منذ يومه الأول مفتوحًا على الثقافات والحضارات فى دائرة قيمه الأساسية ومع الحذر من المفاهيم المسمومة التى تركتها الأديان والدعوات والنحل السابقة له والتى جاء الإسلام للقضاء عليها .

فالإسلام هو الدين الجامع بين قيم الروح والمادة والعقل والقلب والقادر على العطاء للإنسان من خلال التوحيد الخالص والإيمان بالبعث والغيب والجزاء الأخروى .

فليس المسلمون فى حاجة إلى منهج جديد يأتيهم من خارج دائرة الإسلام خاصة من تراث الوثنية التى حملت لواءها الأديان البشرية وخاصة الفكر اليونانى الذى يسمونه فى الأصل (علم الأصنام) .

فكيف يجىء اليوم من دعاة الفلسفة الوثنية والمادية من يدعون المسلم إلى إحياء هذه الفلسفة المضللة .

وكيف ينزعج هؤلاء الدعاة من المسلم إذا رجع إلى تراثه الإسلامى الأصيل بينما هم يدعونه إلى تراث قديم أنكرته الأديان المنزلة واختلطت مفاهيمه وقيمه بكل الوثنيات القديمة.

ثم هم يسمون هذا العمل تجديداً وتحديثاً .

لقد عرف المسلمون موقفهم منذ اليوم الأول لترجمة الفلسفة اليونانية وتصدى كبار علمائهم من الشافعى إلى الغزالى إلى ابن تيمية وغيرهم لكل هذه المفاهيم . وانتهى هذا الأمر فى القرن الرابع حيث عاد الفكر الإسلامى إلى أصالته وإلى مفهوم أهل السنة والجماعة .

ثم يجيء اليوم هذا الفريق المضلل ليدعو المسلمين من جديد إلى العودة لفكر القرن الثالث الهجرى (أى هذا الفكر الذى قدمته الترجمة من اليونانية ، فإذا جاء إمام جليل مثل الإمام الغـزالى ليدعو الناس إلى العـودة إلى التوحيد الخالص تواصلت الحملة عليه وهى ما تزال تتواصل حتى اليوم أى لمدة ألف سنة).

وفى العصر الحديث جاءت الفلسفة مع الجامعة ومع كتاب المارون وعلى رأسهم شبلى شميل بالدعوة إلى الدارونية وانفتح الطريق أمام الاستشراق حتى جاء اليوم جيل جديد من العرب الذين يحاولون أن يخدعونا عن المستشرقين من أمثال الأب قنواتى وعاطف العراقى ومراد وهبة ونحن لن ننخدع أبداً لأن ما يدعوننا إليه باطل ومضلل .

فكيف يدعوننا إلى أن نترك (تراثنا الإسلامى) ويصفونه بالجمود والرجعية وهم يدعوننا إلى إحياء تراث أقدم ، من مجموعة أديان ونحل مضللة ترادفت بها الأزمان حتى جاء اليهود فى العصر الحديث ليعيدوا إحياءه .

إننا يجب أن نكون من النصاحة واليقظة بحيث لا يخدعنا هؤلاء جميعاً فقد جاء الوقت الذى تحدد الموقف بيننا وبينهم ، عندما أعلن الشيخ مصطفى عبد الرازق أن معلم العرب هو (الإمام الشافعى) وليس (أرسطو) وأن الفلسفة الإسلامية تبدأ بهذا الإمام الجليل وكتابه المشهور (الرسالة) فلم يعد هناك من سبيل لتضليلنا عن الطريق الصحيح لست أدرى لماذا تكتل هؤلاء المضلون لدعوتنا إلى إحياء تراث الباطنية والوثنية والفكر اليونانى والفارسى والغنوصى هذا من الشرق وهذا من الغرب ، من أدونيس إلى أركون إلى عاطف العـراقى ومراد وهبة وكلهم يتحدثون عن شيء واحد هو (إحياء ابن رشد) مرة أخرى بدعوى أنه هو الذى أيقظ الفكر الغربى بعد صراعه مع الكنيسة .

ذلك أن تجربة ابن رشد فى الغرب لا تصلح لعالم الإسلام اليوم أبداً ؛ فإن ابن رشد لم يعرف إلا بأنه « شارح » أرسطو أى ملخصه .

أما دعوى (التأويل) فهى غامضة أشد الغموض سواء فى كلام الأب قنواتى أو مراد وهبـة .

وعندما يعرضها عاطف العراقى تجد صورة من المراوغة والتضليل لا يمكن الوصول معه إلى حقيقة ، لست أدرى كيف يمكن لكاتب مثل عاطف العراقى يريد أن يصل إلى عقول وقلوب المسلمين على هذا النحو من الألفاظ الفاشية والكلمات العصبية التى يحملها داعية الفلسفة والفلسفة هى ا لحكمة .

هل يمكن لرجل مسلم أن يصف الفكر الإسلام القرآنى الحصين على النحو الذى وصفه به عاطف العراقى ، (فكرهم المظلم ودعوتهم الرجعية) الأهرام ١٩٨٩/١٢/٢٢ .

والحقيقة أن عاطف العراقى ومراد وهبة والأب قنواتى لن يستطيع أحدهم أن يخدعنا عن ابن رشد بهذه الحملة الضخمة ولماذا التركيز على ابن رشد من جماعة العلمانيين التنويريين الذين يرون أن العقل هو الشيء المقدس .

لقد جاء (الأب قنواتى) ليفسح الطريق للمستشرقين وسمومهم أمام الشباب المسلم فى دعوة مغرية ليجعلوا من كتب الاستشراق المسمومة مراجع لهم وهم فى ذلك يخرجون عن نور الإسلام إلى ظلمات الوثنية .

إنهم يدعونهم إلى السهروردى ، وابن رشد ، وابن عربى ، والحلاج وغيرهم من تلامذة أرسطو وأفلاطون .

إن الأب جورج قنواتى على لسان عاطف العراقى يدعوننا إلى الانفتاح على الثقافات الأوربية ويعد الهجوم على المستشرقين ظلماً بالغاً ، فقد قاموا بأعظم المجهودات للتعريف بتراثنا وتحليله تحليلا دقيقاً .

ونحن كمسلمين نؤمن بنظرية الانفتاح على الثقافات والحضارات قبل أن يدعو إليها قنواتى والعراقى ولكن نحن لانقبل دعوتهم التى ترمى إلى التبعية وفرض مفاهيم مسمومة منتقاة تخالف منهج أهل السنة والجماعة .

ولقد سئل الأب قنواتى فى شأن المستشرقين وعما كتبه إدوار سعيد فإذا هو يراوغ ويقول : لقد قال إدوار سعيد الكثير من الحقيقة ولكنه يبالغ فى الهجوم على بعض الجوانب.

وذكر دورهم فى إحياء المخطوطات الإسلامية وتحقيقها ، والحقيقة أن المستشرقين لم يقدموا إلا التراث الزائف والمنحرف لترويجه وكذلك كل ما فيه خلاف .

أما الكتب ذات الأصالة فقدحجبوها لأن أصحابها أعداء لهم وعداوتهم للغزالى واضحة ومحبتهم للسهروردى وابن رشد وابن عربى واضحة .

إن الغزالى لم يكن فى حقيقة الأمر ضد « الأصالة » أو التقدم ولكنه كان ضد وضع العقل وحده موضع المعرفة الحقة واعتباره سبيلاً وحيداً إلى الحقيقة .

وهذا الذى قال به الغزالى هو مفهوم الإسلام الحقيقى ؛ هذا المفهوم الجامع بين الوحى والعقل أو ما يسمى بمصطلح القديم (المعقول والمنقول) .

فمسألة العقل التى يركز عليها جماعة الأب قنواتى وحجب الوحى والغيب مما لا يقبله المسلم صحيح الإيمان .

ثم ما العلاقة بين الغزالى وابن رشد ؟.

لقد كتب ابن رشد كتابه (تهافت التهافت) بعد مائة سنة من الغزالى ؛ وقد كان ابن رشد في جميع أمره ناسخا لأرسطو .

وكانت قضيته فى جملتها مع الغرب والفكر الغربى كما يصورها مراد وهبة حين أشار إلى أن الامبراطور فردريك الثانى أمر بترجمة مؤلفات ابن رشد للانتفاع بها فى الصراع الذى كان بين الامبراطور وبين الكنيسة ، فقدكانت كتابات ابن رشد سلاحاً لمقاومة السلطة الدينية بما يدعم حكم الامبراطور (الأهالى ١٩٩٢/١١/٢٥) ومعنى هذا أن ابن رشد كان مخلب قط فى قضية لا صلة لنا بها نحن المسلمين أبداً .

وهم قد أخذوا من مسألة التأويل لخدمة أهدافهم فى حصار نفوذ الكنيسة ولتصحيح بعض المواقف التى تتعلق بالكتب المقدسة والتى لا علاقة لها مطلقاً بالقرآن الكريم الذى لم يدخل مطلقاً فى دائرة ما كتبه الرهبان وما لم يكتبوه .

ويرتبط هذا بما يلوكونه من دعاوى حول الخرافة والأساطير وهذه كلها مسائل ترمى إلى تزييف مفهوم الإسلام الأصيل .

ويمكن أن يتحدث فيها عن ابن باجة وابن طفيل لأنهم من المشائين العرب الذين أخذوا من اليونان .

وبعد .. فما لنا وتجربة الغرب فى علاقة الدين بالعلم ! .

إن مفهومنا الإسلامى يقوم على تكامل القيم (الدين والدولة) (الدين والعلم) .إن انشطارية القيم هى أساس الفكر الغربى العلمانى .

ومن العجب أنهم يرفضون مقولة الغزو الفكرى ويدعون أن الغرب هو المثل الأعلى فهل صحيح أن الغرب الآن هو المثل الأعلى بعد كل ما كتبه عنه أهله من نوابغ العلماء

وما كتبه فى الأخير مراد هوفمان وجارودى وبوكاى بالإضافة إلى عديد من كتابات المنصفين والفاهمين لمدى الظلم والنهب والفساد الذى ألحقه الغرب بالبلاد الإسلامية التى احتلها حتى يقال إنه لا يوجد منطلق لنهوض المسلمين إلا من خلال حضارة الغرب التى تمر الآن بمرحلة الانهيار على النحو الذى سقطت به من قبل الحضارة اليونانية والرومانية .

إنهم يريدون أن يفرضوا الحضارة الغربية ويتنكرون فى الوقت نفسه لمعطيات الإسلام لهم حتى إنهم يدعون بأن وليم هارفيل لم يأخذ من ابن النفيس بالرغم من الوثائق التى تكشف زيفهـــم .

وهل لا يزال عاطف العراقى مصمماً على تمجيد الفكر الغربى بعد كل الوثائق التى كشفت فساده وانهياره والمقولات التى صححته وكشفت زيفه من رجال غربيين أساساً !.

ويضيق صدرهم حين يتحدث المسلمون عن (أسلمة العلوم والمفاهيم) كما يزعجهم الحديث عن النظريات العلمية من الآيات القرآنية .

وأشد أخطائهم مفهوم الدين نفسه فإنهم حين يتحدثون عن الإسلام يقارنونه باللاهوت المسيحى فى حين أن الإسلام ليس ديناً بمفهوم الغرب ولكنه منهج حياة ونظام مجتمع .

إن الغزوة التى غزاها لطفى السيد وطه حسين وعلى عبد الرازق قد تلاشت ودخل الإسلام مرحلة الأصالة بعد أن سقطت مقولتهم حين خدعونا حين قالوا : إن الفكر الغربى سيلحقنا بالأمم الناهضة وكذبوا وتكشف زيفهم عندما ظهر مدى خطر هذه الخدعة الكبرى التى لم يكتشفها المسلمون إلا بعدضياع القدس ١٩٦٧ .

ويتحدثون عن علوم أوربا والواقع أنه ليس عند الغرب إلا العلم التجريبى الذى أخذوه من المسلمين وينكرونه الآن ؛ أما الأيديولوجيات التى صنعها العقل الغربى من خلال الفروض التى تلاقت مع الإنسان أو اختلفت معه فإنها جميعها قد أصابها العطب .

وأمامنا أعظم ما ادعت أوربا أنها قدمته : الوجودية والعلمانية والفرويدية والدارونية وكلها ثمرات معطوبة لم تكن أكثر من فروض قابلة للمراجعة وقد وضعت فى ظروف تحدى فهى ليست فى الحقيقة علوماً ينتفع بها ولكنها ردود فعل وربما اتفقت مع عصرها أو بيئتها ولكنها لا تصلح لتكون علوم إنسانية تنفع البشرية كلها وسرعان ما أصابها العطب

واحتاجت إلى الحذف والإضافة ، بل إن الماركسية قد اضطرت إلى أن تحجب نظريات علمية كاملة لأنها وضعت فى دائرة الماركسية فأخطأت .

ويتحدثون عن فضل الحملة الفرنسية والثورة الفرنسية حيث ادعى المدعون أن الحملة الفرنسية كانت بداية التاريخ الحديث فى مصر وهى مقولة مضللة فالحملة الفرنسية جاءت لتهدم وما جاءت لتبنى ، ولقد بلغ القناصل قومهم أن هناك نهضة فى الأزهر فى مصر فكانت هذه الحملة لاختراق الأزهر حيث دخلت الخيل المسجد الجامع وحرقت كل العلوم .

ونحن لا نوافق على أن الحملة الفرنسية هى بداية التاريخ الحديث فى مصر كما أننا لا نوافق على أن الثورة الفرنسية كانت أكثر من مؤامرة يهودية على الغرب وعلى الكنيسة وعلى المسجد ومحاولة لهدم الدين جملة على النحو الذى عرف نتيجة الموسوعة وكتابها والدعوة إلى التنوير بمعنى الإلحاد وهدم كل الحواجز الذى فرضها المسجد إزاء نفوذ اليهود فى أوربا فاستطاعت عن طريق الثورة الفرنسية أن يسيطر اليهود على التعليم والتربية والفن والمسرح والوصول إلى المناصب العليا فى السياسة والحكم .

كذلك فإن الأب قنواتى لا يصدق حين يقول : إن سر انتعاش الحضارة الغربية فى بقية أو خلال القرون الوسطى يعود إلى الترجمة النشيطة للتراث اليونانى القديم ، والحقيقة أن المسلمين لم يكونوا فى حاجة إلى الترجمة اليونانية ولم يتقبلوها ولم يؤمنوا بها بل ردوها على أصحابها بعد أن كشفوا عن زيوفها وفسادها خاصة ما كتبه الإمامان الغزالى وابن تيمية .

ولقد عرضوا ما ترجم من تراث الثقافات اليونانية والقبطية والفارسية على الإسلام فرفضوا كل ما يتصل بالوثنيات والإلحاد والإباحة ، وقد كانت أكبر أخطاء الفلاسفة - التى بينها الإمام الغزالى - هو القول :

١ - بقدم العالم ونظرية الفيض التى يقول بها إخوان الصفا وقد حشر الغزالى حشرا فى قائمة الفلاسفة مرة وفى قائمة المتصوفة مرة أخرى نتيجة الحقد الشديد للمستشرقين الغربيين على الغزالى الذى حطم مفهومهم المختلف مع مفهوم الإسلام .

ويقول الغزالى عن الفلاسفة إنه كان مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة كسقراط

وأبقراط وأفلاطون وأرسطو ليسوا أمثالهم وهم منكرون للشرائع والنحل وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة بل إن الغزالى قد حرض المؤمنين على عدم قراءة مؤلفات الفلاسفة وهم يجمعون كل ما عارض به المشاؤون الإمام الغزالى ومفهوم الإسلام الصحيح من كلام أمثال ابن طفيل وقصة حي بن يقظان.

ومن يرجع إلى رسائل ابن سبعين وغيره يجد تلك الحملة المدبرة على الإمام الغزالى الذى لم يقبل أن يكون المفهوم الغربى الخاص بالفلسفة العقلية المقتصرةعلى العقل وحده سبيلاً إلى المعرفة فى الفكر الإسلامى .

ومنذ سقطت الفلسفة بهجوم الغزالى عليها فإنها لم تقم لها قائمة وقد حاولوا أن يجعلوا من ابن رشد بديلاً وكانت محاولة فاشلة وما يزال أمثال عاطف العراقى يكيل الشتائم للإمام الغزالى دوماً ويتغنى الأب قنواتى بالفكر التنويرى من الشعر الجاهلى لطه حسين إلى الإسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرازق وأولاد حارتنا لنجيب محفوظ إلى القصص الفنى فى القرآن لمحمد أحمد خلف الله إلى فقه اللغة للويس عوض والإسلام السياسى لسعيد العشماوى .

كما أنه يرى كل كتابات الأصالة الإسلامية نوعًا من الردة ولكنه استثنى الدكتور بيصار فى رسالته عن ابن رشد حيث أشار إلى أنه قال إن مما يؤخذ على مذهبه من مآخذ (أزلية المادة ووحدة العقل) .

ويقرر الأب قنواتى أن السبب الرئيسى لإهمال ابن رشد هو الحملة العنيفة التى وجهها الغزالى ضد الفلاسفة فى كتابه (تهافت الفلاسفة) ثم إن ابن رشد فى (تهافت التهافت) لم ينجح فى محو الآثار السيئة التى تركها هجوم الغزالى .

وإلى الذين يخدعون أجيالنا الجديدة عن الحضارة الغربية نقول لهم ما قاله علماء الغرب اليوم إن هذه الحضارة متهمة الآن من جانب علمائها وعقلائها وحكمائها بأنها قد فقدت روحها وقيمها وأنه لم يبق منها إلا الجانب المادى (وليم فولبيرت) لقد وضعنا رجلاً على سطح القمر ولكن أقدامنا غائصة فى الوحل (إشارة إلى الانحلال الخلقى وانهيار القيم .

ويقول الدكتور محمد عبد العليم موسى : أذكر الدكتور العراقى أن تراثنا الذى يريد

لنا أن ننساه ونهمله هو التراث الذى ترجمه الأوربيون فى بداية نهضتهم والذى بنوا عليه حضارتهم.

إن الذين يغالون فى الدعوة إلى فلسفة ابن رشد فى بلادنا مخطئون وأخطر ما يدعون إليه القول بأن ابن رشد يقدم نموذجاً لتقديس العقل ولكننا نحن المسلمين لا نقدس العقل وإنما نعطيه حقه ، ولقد استفاد الغرب من ابن رشد لأنه قدم له ما كان يتطلع إليه لينهض ، أما نحن فقد أغضينا عنه لأنه قدم العقل على الوحى مخالفاً لمفهوم الإسلام الأصيل ؛ ولقد أخذنا من الأشاعرة أكثر مما أخذنا من ابن رشد الذين يؤمنون بأنه إذا تعارض العقل مع النص فلابد من تغليب النص .

إنهم يعترضون على تيار مصطفى عبد الرازق الذى أدخل علم أصول الفقه داخل إطار الفلسفة العربية ولكننا بمفهوم أهل السنة والجماعة نؤمن بهذا الاتجاه ونعلن أن أرسطو لم يكن يوماً من الأيام معلماً للعرب ولكن الإمام الشافعى هو صاحب هذه القيادة الفكرية.

لقد حاول عاطف العراقى أن يصور ابن رشد عقلانياً يعلى العقل على كل شىء حتى على القرآن والدين والوحى وهى اليوم مقولة العلمانيين ودعاة الحداثة والإلحاد وهى مرفوضة تماماً .

ونحن نسأل : لماذا لم يدخل ابن رشد جسد الثقافة العربية ؟

الجواب :لأنه يختلف مع طبيعتها الإسلامية ولأن الإسلام يرفض الجسم الغريب الذى جاء به من أرسطو والفلسفة اليونانية .

***

إن لمراد وهبة مقولتين خاطئتين لا يقبل بهما مسلم صحيح الإيمان وهما :

١ــ دعوته إلى فتح الطريق أمام المحرمات الثقافية .

فهو يقول : ليس على العقل سلطان إلا للعقل وحده .

ومن أخطائه المطالبة بإحياء تراث الترجمة اليونانية وما يتصل بها من كتب الزنادقة والملاحدة والطبيعيين والباطنية وعلى أساس أن هذا هو تراث الإسلام ؛ والحق أن هذا هو

التراث الزائف الدخيل ؛ أما تراث الإسلام الأصيل فهو الفكر الإسلامى المتحقق من البناء على أساس القرآن والسنة المطهرة .

والواقع أن تراث الإسلام الأصيل هو أساس وعماد للصحوة الإسلامية وأن العقل جزء من مفهوم المعرفة الأصيل إلى جوار الوحى غيرمنفصل عنه ، الخطأ هو أننا نقايس الأمور بمفهوم الغرب والمسيحية الغربية وندعو إلى تغيير فى الإسلام يحقق هدف العلمانيين فى محاولة اختراق الإسلام .

وهذا لن يتحقق مهما حشد العلمانيون من أمثال لويس عوض ومراد وهبة وأدونيس وأركون وغيرهم .

إن دعوة مراد وهبة إلى فتح الطريق أمام المحرمات الثقافية هو خلط كبير بين الحق والباطل والإيمان والإلحاد .

الحقيقة الأساسية فى هذه القضية هى أن المسلمين لم يترجموا الفكر اليونانى وإنما ترجمه النصارى الذين كانوا يقطنون (حران) أمثال حنين بن إسحق وكانت هناك ولاية من المأمون فتحت الباب واسعاً أمام هذا الفكر الوثنى الإغريقى المادى وقد سمى الذين حملوا لواء هذا الفكر بالمشائين العرب فى مقابل المشائين اليونان ولم يكن ابن سينا أو الفارابى وابن باجة أو غيرهم إلا مترجمين ومفسرين لفكر اليونان الذى اختلط بالفكر المسيحى على النحو الذى عرف عن كتابات الفارابى حين خلط أرسطو (المادى) بأفلاطون (الروحى) .

ولقد وقف علماء المسلمين وقفة حاسمة أمام هذا الفكر اليونانى والفارسى المترجم وكشفوا عن موقف الإسلام الصحيح من التوحيد وكشف الشافعى وابن حنبل والغزالى وابن تيمية (على رأس مجموعة كبرى) لتحرير الفكر الإسلامى من التبعية .

وكانت ضربة الغزالى للفكر اليونانى قوية بتأييد الله تبارك وتعالى فقد كشف عن معالم زيف وفساد مفهوم الفكر اليونانى خاصة فى مقولة قدم العالم وأزلية المادة ووحدة العقل .

ويدعو (مراد وهبة) فى جرأة ويحرض المثقفين على اقتحام المحرمات الثقافية ويصور لهم أن الدفاع عن الإسلام هو نوع من الدفاع عن الخرافة والأسطورة ويدعى أن عصرنا هذا هو عصر تقديس العقل .

فهل من الحق أن الإسلام الذى جاء ليحارب الخرافة والأسطورة يمكن أن يوصف بأحدهما .

وهم حين يهاجمون التراث فليس الإسلام هو تراث الخرافات وإنما تراث الخرافات هو تراث اليونان الذى أنكره علماء الإسلام ويحاول هؤلاء إعادتنا إليه اليوم .

ولقد كان لنا أسلوبنا فى مواجهة الحضارات والثقافات .

ولكننا لا نرى أن الغرب هو المثل الأعلى ولا نقبل تقديس العقل وحجب الوحى والغيب بل إن أفكار ابن رشد التى يروجون لها اليوم لم يقبلها الغرب كلها ولكن قبلتها طائفة وأنكر أسقف باريس التأويلات الرشدية.

إن الإسلام رفض الجسم الغريب الذى جاء به أرسطو والفلسفة اليونانية فى القديم وأن هذه المفاهيم قد انتفع بها الغربيون فيما يتصل بمفاهيمهم الدينية والاجتماعية .

وكانت العقلانية مفتاحاً لهم إلى طريق العصر إزاء نصوص محدودة أو مغلقة أما بالنسبة للإسلام فقد كانت المفاهيم مضيئة مشرقة جامعة بين العقل والقلب ؛ واسعة مرنة تتقبل حضارات الأمم وتغيرات العصور .

وليس علينا أن نأخذ تجربة ثقافة أخرى إذا كانت تتعلق برابطتها بدينها وعقيدتها .



تطـور الفلسفـة المـاديـة

فى أفق الإسـلام

يمكن القول إن الفلسفة المادية قد دخلت إلى الفكر الإسلامى مع الدعوة إلى نظرية دارون من خلال طرح مفاهيم الإرساليات التى دخلت إلى الشرق وتركزت فى قواعد ثلاث هى :

- (القاهرة ـــ استانبول ـــ بيروت)

حيث فتحت مدارس التبشير من كلا التيارين الفرنسى والأمريكى فى لبنان حيث ظهرت الحكمة المشهورة :

أنه إذ جاء ممثل أحدهما ففتح مدرسة فإنه فى اليوم التالى يأتى ممثل الطائفة الأخرى ليفتح مدرسة فى نفس القرية .

ولقد ركز النفوذ الغربى الاستعمارى على مدارس الإرساليات تركيزاً شديداً وجعلها مصدراً لتخريج دعاة التبشير والاستشراق يلبسون ثوب العلماء والأساتذة ينطلقون فى هذه المنطقة الواسعة من الشام (سوريا ولبنان) إلى مصر إلى شمال إفريقيا حيث كانت الصحف العربية كلها فى هذه الفترة تنطلق بأقلام خريجى المدارس التبشيرية وقد ركزوا على مصر بالذات فأرسلوا إليها أفواجاً ضخمة حملت لواء أكبر الصحف وأشهرها وهى المقطم والأهرام وكانت الأهرام تسير فى ركاب النفوذ الفرنسى ، أما المقطم فتجرى فى ركاب النفوذ البريطانى .

هذا بالإضافة إلى دور النشر الأخرى :

كانت الأهرام فى قيادة بشارة تقلا .

وكانت المقطم فى قيادة صروف ونمر ومكاريوس .

وعن دار المقطم صدر المقتطف قائد ثورة العلمانية الفلسفة المادية فى أناة وتؤدة وفى رحاب المقطم جاء شبلى شميل زميل صروف فى الإرسالية ومن خلال المقطم شنت حروب كبرى على الإسلام : حرب على اللغة العربية ، ودعوة إلى الفلسفة المادية وترجمة أخطر الكتب الغربية التى صدرت عن دارون ونظرية النشوء والارتقاء – تفسير (بخنر) ـ وهو أشد التفاسير لنظرية دارون تطرفاً وخطراً ، فقد كان بخنر يرى – ويرى معه بأشد حماسة

شبلي شميل ـ أن نظرية التطور هي دين جديد سيقضي على كل الأديان ويحكم العالم جميعاً وإن بزوغ هذه النظرية يؤكد أن العلم قد أصبح هو دين البشرية وأن الأديان المنزلة قد انتهت مهمتها .

ولقد فتحت المقتطف لشبلي شميل صفحاتها لمناقشة فكرته الخطيرة وكان يعقوب صروف يخفف من وقع ضربات شبلي شميل للدين في محاولة لغرس ثمار الفلسفة المادية دون إحداث ضجة كبرى تلفت نظر علماء الإسلام على النحو الذي لم يلبث أن ظهر واضحاً في كتابات جمال الدين الأفغاني (الرد على الدهريين) الذي قاوم هذه المحاولة التي ساقها النفوذ البريطاني في الهند أساساً ثم امتد إلى مصر وفي كتابات (محمد فريد وجدي) وامتدت المعركة ولم تتوقف .

ثم دخلت إليها محاولات إسماعيل مظهر (في مجلة العصور) لرد حملات الهزيمة في نفس الوقت الذي ظهر فيه سلامة موسى ليحمل لواء نظرية دارون في (الهلال) .

ولم يتوقف العلمانيون عن الدفاع عن دارون ونظرية التطور حيث اتسعت الدائرة للحملة على اللغة العربية والدعوة إلى العامية ثم مضى المقتطف (صروف) والهلال (جرجي زيدان) في الدعوة إلى الاشتراكية والدارونية ومضت صحف المارون العلمانية في الحملة على الإسلام والخلافة والدولة العثمانية من خلال عشرات الصحف والمجلات التي أصدرها خريجو الإرساليات ومضوا بها إلى طرابلس الغرب وتونس والجزائر والمغرب .

وكان العمل يجري على أساس الدفاع عن المهجريين والأدب المهجري ، فهم أخطر ثمار التغريب والغزو الثقافي .

وامتدت المعركة من العامية إلى الاشتراكية إلى الدارونية ، وكان لهذه المعارك قيادات أهمها بالإضافة إلى شيخهم شبلي شميل : جرجي زيدان ، يعقوب صنوع ، ميخائيل نعيمة .

* * *

ولقد طرح هؤلاء الكتاب عشرات من الشبهات والمفاهيم المسمومة كان لها أبعد الأثر في ظهور طبقة من الماديين والعلمانيين امتدت على مدى طويل وولدت هذه الطبقة أسماء كثيرة وأطروحات تمثلت في كتابات أشد خطورة مما كتب سلامة موسى وطه حسين وعلى عبد الرازق وطرحت عديداً من المذاهب الفلسفية المادية فيما بعد (الماركسية ، البنيوية

العلمانية ، والحداثة) وامتدت الدعوة إلى مذاهب العلوم الإنسانية والاجتماعية حيث ظهرت مذاهب الفرويدية (علم النفس) وسارتر (الوجودية) ومفاهيم دور كايم وغيره .
ومن ثم تكوّن هذا التيار الخطير من الفلسفة المادية .

شبلى شميل

أما شبلى شميل (المتوفى ١٩١٧) فقد كان يعتقد أن الدين مناف للفكر ، لأنه يعتمد على الوحى والإيمان المطلق وأن الإنسان سيد مصيره .

وقد أداه إيمانه بالعلم كعقيدة إلى رفض الدين المنزل ، وكان فكره مبنياً على أحكام العلم النهائية ، وكان يقول بالطبيعة وأنه لا يوجد شيء خارج الطبيعة وكان ينكر وجود الله تبارك وتعالى، وكان يعتقد أن المجتمع المثالى هو المجتمع الاشتراكى ، وكان يرى أن الإسلام كدين أكثر واقعية من المسيحية .. ذلك أن الإسلام قدم مخططاً للتنظيم الاجتماعى ومخططاً سياسياً بينما عالجت المسيحية أكثر ما عالجت قضايا الأخلاق ، وحاول أن يدعى كما يقول الغربيون من دعاة الفكر الحر أمثال رينان وروسو ونيتشه أن « الدين ليس له أى تأثير على التطور الدنيوى لأن الأمم المسيحية اليوم أكثر تقدماً وقال إنه لا يمكن أن يكون الدين دائماً عقبة أمام التقدم » .

وما قاله شبلى شميل هو ما تردد من بعد فى كل كتابات العلمانيين ولا يزالون يقولونه حتى اليوم فهو الذى فتح لهم هذا الباب .

ولقد فتحت القوى الأجنبية هذا الباب واسعاً من خلال المارون اللبنانيين خريجى الإرساليات فملؤوا به الصحف العديدة التى أنشأوها فى القاهرة وخدعت الكثيرين .

وكان من أسوأ هؤلاء جرأة وحقداً على الإسلام فرح أنطون وما كتبه ولقد بلغ فى دعواه مبلغاً خطيراً من التطرف ويقول رشيد رضا : « إن ما كتبه فرح أنطون عن فلسفة ابن رشد لم يكن مما لم يكن يفهمه حق الفهم وحكم بأن النصرانية أشد من الإسلام تسامحاً فى الفلسفة والعلم وساء ذلك كل من اطلع عليه ، وقد حاول أن يبين للمسلمين جهلهم بدينهم وإعراضهم عنه ولما وجد رداً عليه تراجع عن عدم فهم الموضوعات الكلامية والفلسفية » .

فرح أنطون

ولقد ناقش الشيخ محمد عبده ذلك الخلط العجيب الذى ذهب إليه فرح أنطون وهو غير عالم بأسس البحث العلمى (وما يزال بعض المغرورين يجرون وراء كلماته وأخطائه)

وقد انتهى الرد إليه إلى كتاب كامل ظهر تحت عنوان (الإسلام و المسيحية مع الدين والمدنية) كشف فيه عن فساد وجهة أنطون وكشف عن تعصب المسيحية وسماحة الإسلام بالوقائع والنصوص الفاصلة (ومع الأسف فقد قام البعض منذ فترة فأعاد طبع هذا الكتاب تحت عنوان (الإسلام والمدنية) ورفعوا منه الجانب الحاسم الذى وضع الكتاب من أجله وقد جرى ذلك عن طريق الأستاذ طاهر الطناحى مرة وتم عن طريق عاطف العراقى وهو عمل شديد الخطورة إذ إنه حجب عن الأجيال الجديدة هذه الحقائق التى قدمها الشيخ محمد عبده عن مقارنته بين الدينين .

واتسع نطاق الدعوة إلى ضرب الإسلام وتاريخ الإسلام عن طريق الموازنة خريجى معاهد الإرساليات وكان دور المقتطف والمقطم واضحاً وممتداً ، وكانت اللغة العربية هى الهدف الأكبر للحملة على الإسلام ، وكانت القضية الكبرى هى دارون وكتابات شبلى شميل .

جرجى زيدان

أما مجلة الهلال فقد عنى جرجى زيدان فيها على التركيز على هدم التاريخ الإسلامى على النحو الذى انكشف أمره والسموم التى حشدها فى كتابه روايات الإسلام هذا فى الدور الأول لها. أما فى الدور الثانى بقيادة (سلامة موسى) فقد كان أشد خطورة فقد عملت الهلال على تأصيل (دارون وفرويد وماركس) .

« ولقد كان الخطأ الذى وقع فيه جرجى زيدان مصدره كراهيته للدولة العثمانية من ناحية ومن ناحية أخرى عدم رجوعه إلى الآثار الأدبية التى خلفها شعراء وكتاب ذلك العصر فانفرد هو بالحكم ولم يراجعه أحد لأن مصادر الدراسة لهذا العصر مخطوطة والرجوع إليها يقتضى من الدارس أن يتردد على دار الكتب مدة طويلة وهذا مالم يفعله جرجى زيدان .

لقد كانت (الهلال) ١٨٩٢ هى ومجلة اللطائف المصورة قد عنيا بتقديم تصوركامل للحركة الماسونية فى صورة كتابين كتب أحدهما جرجى زيدان والثانى شاهين مكاريوس .

وفى هذا إجابة على السؤال الذى ظل يتردد عن بقاء الهلال واستمرارها إلى المئوية وهو خدمة هدف معروف كان أصحابه يحرصون على استمرار الدعوة إليه .

ولقد كان دوره فى كتابة روايات الإســلام هدفًا من أكبر الأهــداف التى عمل لها فضلاً عن الأخطاء التى وجدها الباحثون فى كتابيه عن التمدن الإسلامى.

(راجع كتابنا : جيل العمالقة)

إن أخطر المهام التى قام بها الهلال وقامت بها الصحافة السورية فى مصر هى مقاومة الإسلام والدولة العثمانية وتحويل مصر إلى الإقليمية المصرية وإحياء تاريخ الفراعنة وإحياء الآثار القديمة.

وكانت الأهرام مع الفرنسيين والمقطم مع الإنجليز وكان الهلال معهما معاً وما تزال الحملة على الدولة العثمانية مستمرة إلى اليوم لم تتوقف ، تشهدها فى كتابات غالى شكرى فى الأهرام ١٩٩٥ (قرن التحديث فى مصر).

وكان النفوذ الأجنبى حريصاً على بناء هذه القاعدة فى القاهرة لمقاومة الدولة العثمانية والخلافة والإسلام وكان لها دورها فى العمل الذى وسد للصهيونية وقيام إسرائيل .

ثم بناء الدعوات الهدامة كلها من التحديث إلى العلمانية ، إلى الغزو الفكرى والتغريب .

وإذا كان دور جرجى زيدان خطيراً فإن دور سلامة موسى كان أشد خطورة بل إنه فاق دور شبلى شميل والمقتطف ذلك أنه اعتمد على عملية المراحل وتوزيع القضايا على الأزمنة المختلفة وهو العمل الذى قضى سلامة موسى حياته كلها فى تقديمه للشباب المسلم مغلفاً فى أوراق السوليفان .

وقد كان لصحف المقتطف وكتابات الداروينيين وتعليم نشأة الإنسان وفق نظرية دارون فى كليات العلوم أثرها فى انتشار النظرية المادية وفلسفة الشك.

وهو الذى أطلق عليه جملة (الفلسفة المادية) الذى تشكلت على أساسه مفاهيم الماركسية التى لم تلبث أن غزت العالم ودخلت البلاد الإسلامية على أيدى مجموعة من اليهود والصهيونيين الذين حملوا لواءها وجندوا لها جماعة من أثرياء اليهود .

وقد كان لهذا العمل أثره الخطير على عقليات الشباب المسلم إذ أصبحت مفاهيم الخلق والإيجاد للإنسان مزدوجة فى معاهد الدراسة بين مفهوم الدين لخلق الإنسان وبين مفهوم نظرية دارون والفلسفة المادية التى تقوم على أساس أن أصل الإنسان تطور من فصيلة القرد والحيوان على النحو الذى قامت عليه مفاهيم الفلسفة المادية .

وكانت نظرية دارون كما حمل لواءها سلامة موسى بعد شبلى شميل .

وكان شبلى شميل يتعامل مع الفلسفة المادية بأسلوب الحماسة والاندفاع الذى يتمثل فيه دعاة العقائد دائماً دون تقدير لتقبل الناس لمفاهيمه ودعواه .

ولكن القوى الأجنبية التى كانت حريصة على تغريب الأمة الإسلامية والترويج لهذه المفاهيم المسمومة التى تتمثل فى الفلسفة المادية والذى كان ذلك انتقالاً وتحولاً من نظرية دارون إلى نظرية ماركس وصولاً إلى الهدف الخطير الذى يراد تحويل الأمة الإسلامية إليها فقد كان النفوذ البريطانى فى بلاد الإسلام يعمل على تدمير القوة الإسلامية المؤمنة ، وتحويلها إلى المذاهب المادية لتمزيق روحها وكان سلامة موسى فى مقدمة العاملين لهذا الهدف .

أما الدعوة إلى الوطنية ثم القومية من بعد فقد كانت من الأعمال الخطيرة التى تحدث عنها خريجو الإرساليات التى فتحت أبوابها فى القاهرة وبيروت واستانبول لتدمير الوحدة الإسلامية وإقامة أنظمة سياسية واجتماعية تقوم على تاريخ ما قبل الإسلام ، تستمد وجودها من بعض عناصر الآثار القديمة حيث جرى البحث عنها لإيجاد تصور إقليمى يستمد وجوده من الفرعونية والفينيقية والأشورية والبابلية مصروفاً عن وحدة تاريخ الأمة الإسلامية منذ اليوم الأول للإسلام .

وقد ربطت الدعوة إلى المصرية والوطنية بالحركة السياسية التى كانت تعمل على الاستقلال والتحرر من الاستعمار .

ولكن العمل للمصرية والوطنية لم يلبث أن احتوته القوى الاستعمارية فأصبح دعوة إلى إحياء الفرعونية على النحو الذى قاده سلامة موسى وطه حسين وغيرهم .

كذلك فإنه عندما جرى الحديث على العروبة تدخلت القوى الاستعمارية فجعلت هذه العروبة ماركسية اشتراكية ونزعتها من أحضان الإسلام وظل الأمر كذلك حتى استطاعت اليقظة الإسلامية أن تضع قاعدة الجمع بين القيم الثلاث (الوطنية - العروبة - الإسلام) فى منظومة واحدة حماية لها من عوامل التدمير التى جرى التغريب والعلمانيون والشيوعيون على فرضها على الإسلام بوصفه المنهج الأصيل للأمة نفسها وقد عمل سلامة موسى فى مجال الفكر المصرى تحت عنوان (المصرى للمصرى) وعمل فى مجال العروبة تحت عنوان الاشتراكية .

ولكنه كان إلى ذلك يعمل على تدمير اللغة العربية الفصحى فكان لا يتوقف عن الدعوة إلى العامية ولطالما قدم فكر (ولكوكس) وويلمور وغيرهم من أعداء الفصحى ، بوصفها لغة القرآن الكريم أساساً .

ولم ينس سلامة موسى طوال حياته فكرة التطور ودارون بالرغم من كل الحقائق التى ظهرت وكشفت عن فساد النظرية وأن دارون نفسه أعلن أن هناك حلقة ناقصة فى نظريته وبعد أن كشف العلماء عن خطأ مفهوم الإنسان والقرد .

هذا فضلاً عن الحقائق التى كشفتها عمليات البحث عن الجماجم وحفائر القرى القديمة وخاصة فى كينيا وغيرها من بلاد إفريقيا حيث وجد الجسم الإنسانى كاملاً وواقفاً منذ ملايين السنين.

كما يؤكد فساد نظرية دارون ويدمر خطوات الذين اعتنقوها والذين كانوا يعلمون أنها لم تكن أكثر من محاولة لتدمير العقل الإسلامى وإثارة شبهات حول حقائق القرآن والإسلام .

ولم يتوقف سلامة موسى عند دارون بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك فقدم فرويد وماركس والفرعونية .

أما حملته على اللغة العربية فقد كانت عنيفة تؤكد حقداً شديداً بالغاً نحو ما تحمله اللغة العربية الفصحى مما لم يكن يستطيع سلامة موسى فى هذه الفترة أن يعلن عنه وهو القرآن الكريم .

فقد كان يقول : الدعوة إلى التخلى عن عربيتنا لساناً وخطاً وتراثاً ونسباً وهذا هو ما كان يريده دعاة التبشير والاستشراق .

كان تحقير العربية لغة وخطاً وتراثاً ونسباً من أهم أعماله وكان يعلم أن وراء هذه اللغة عقيدتنا وتاريخنا الإسلامى وقيمنا كلها وجوهر شخصيتنا العربية الإسلامية المؤمنة بالله تبارك وتعالى إلهاً واحداً .

وكما تحطمت نظرية دارون التى عاش سلامة موسى حياته كلها ليؤكد أنه حامى حماها كذلك تحطمت نظرية فرويد التى أولاها اهتماماً كبيراً وكانت فى حقيقتها تمثل هدف التلمودية اليهودية الماسونية التى حملتها بروتوكولات صهيون لتفرضها على الأمة الإسلامية ولكنها لم تستطع بالرغم من كل المحاولات .

وقد أحس سلامة موسى بهذه الهزيمة فى أيامه الأخيرة عندما تعالت صيحة (اليقظة

الإسلامية) وكشفت عن زيف كل هذه المحاولات الضالة المضللة .

ولكن التابعين من أولياء الفلسفة المادية لم يتوقفوا عن العمل بعده بل حملوا لواء العلمانية والشعوبية حتى اليوم ولكن فى جو مختلف فقد انتقلت اليقظة إلى الصحوة وتحطمت أقلام كثيرة .

ولقد كان دعاة الفلسفة المادية يظنون أن العلم هو كل شيء وأنه منهج حياة تستطيع أن تحكم البشرية وتنظمها على النحو الذى دعا إليه (بخنر) ومن تبعه من الماديين غير أن الأمور لم تلبث أن تغيرت وتكشفت عن أن العلم لا يعرف إلا ظواهر الأشياء وأنه اعترف بعجزه عن معرفة الغيب أو معرفة أبعاد الأمور .

ومن هنا جاء تراجعه واعترافه بأن هناك أموراً أخرى غير العلم تحكم الكون وقد رسم الغرب مفهومه للمعرفة فى حدود المادة والعلم والعقل وقد عجز هذ المفهوم أن يحقق للإنسانية ما كانت تأمل فيه وترغب وقد جاء العلم التجريبى فكشف عن عالم المحسوس وفصل بين مفهومه وبين ما يسمى بالعلوم الإنسانية والاجتماعية التى ليست إلا فروض العقول البشرية والتى تخضع لتغيرات الأمم والبيئات .

ثم مضى تيار الفلسفة المادية فى محاولة حصاره للفكر الإسلامى واحتوائه له وكان العامل الأساسى الذى مكن له تعاليم الفلسفة للماركسية التى هى جزء من صناعة الفكر التلمودى والماسونية ومخططات بروتوكولات صهيون .

وكان المنطلق من الفكر الباطنى الشرقى القديم والفكر اليونانى الذى كان يسمى علم الأصنام فى محاولة لعمل منهج يتشكل فيه الفكر الوثنى كله وينتهى إلى تحقيق السموم التى جمعها الفكر الغربى كله سواء الليبرالى أم الماركسى ، وكانت هناك قيم مسمومة يراد تركيزها فى الفكر الإسلامى .

وأهمها :

١ ــ فلسفة الشك الفلسفى ــ طه حسين .

٢ ــ التطور الداروني ــ شبلى شميل وسلامة موسى .

٣ ــ الصراع الطبقى .

٤ ــ العدمية .

٥ ــ الفلسفة الوضعية ــ زكى نجيب محمود .

٦ ــ خرافة الميتافيزيقا .

٧ ـــ الحتمية والجبرية . وهكذا .

وكلها فلسفات مادية مأخوذة من منطلق واحد هو إنكار وجود الله تبارك وتعالى وقد استمرت هذه الفلسفات فى الجامعات وفى كتابات الصحف وقامت عليها بعض المذاهب السياسية كالماركسية والعلمانية وغيرها .

ولقد واجه الإسلام كل هذه الفلسفات وكشف عن زيفها وكانت هناك قضيتان أساسيتان :

أما إحداهما فهى نظرية الشيخ مصطفى عبد الرازق التى قدمت مفهوماً صحيحاً للفكر الإسلامى على أساس أن كتاب الرسالة للإمام الشافعى تمثل منطلق التفكير العلمى الإسلامى الذى نشأ فيه المنهج التجريبى ، وأن محاولة نسبة الفكر الإسلامى إلى أرسطو خاطئة .

ثانياً : ما أورده الدكتور صبرى جرجس فى كتابه عن الفكر اليهودى وهو أن كل ما قام عليه فكر فرويد المسمى بالتحليل النفسى هو نتاج الفكر التلمودى حوله المفكرون اليهود وفى مقدمتهم (فرويد) إلى فكر علمى مضلل وكان الدكتور صبرى جرجس يدرس علم النفس ومذهب فرويد خمسين سنة كاملة ثم خرج بعد ذلك عن هذا الفهم بهذه الحقيقة الدامغة فى كتابه المعروف .

وجاءت شروح العلماء للماركسية والوجودية والمذاهب العلمانية الأوربية لتكشف عن زيف هذه الفلسفات وعجزها عن العطاء .

وكانت الحملة على مذهب دارون أخطر هذه الحملات لأنها كشفت عن حقيقة أثبتتها حفريات الإنسان القديمة منذ آلاف السنين وكلها تكشف عن أن الإنسان ولد كاملاً ومستقلاً .

وأن نظرية التطور نفسها فكر فاسد .

وبهذا انهارت أغلب هذه المذاهب التى سيطرت على الفكر الإسلامى خلال الثلاثينيات وما بعدها .

وقد كان سارتر وماركس وفرويد بعد دارون أقوى دعوات الفلسفة المادية وإنكار الخالق وتجاهل الغيب .

وكانت نظرية الوضعية المنطقية التى عاش لها زكى نجيب محمود وكرس لها حياته أشبه بالداروينة مع شبلى شميل والتحليل النفسى لسلامة موسى كانت كل هذه

الأسماء المعروفة الآن فى أفق التعريف والغزو الفكرى تقيم فكرها على أساس نظريتين .

التطور الداروني ـــ الصراع الطبقي .

ولقد سقطت فى السنوات الأخيرة نظرية الماركسية سقوطاً تاماً وانهدمت كل النظريات التى خرجت من عباءتها وخاصـــة الصراع الطبقي كما سقطت الفلسفة الوضعيـة بكل ما يتصل بها .

ومن مجموع هذه النظريات يمكن استخلاص تصور مادي كامل قوامه :

١ ـــ رفض الميتافيزيقا ـــ أى عالم الغيب وقد حمل كل من دارون وماركس وفرويد هذ ا المفهوم .

٢ ـــ تطور البشرية من المرحلة اللاهوتية إلى المرحلة الميتافيزيقية إلى المرحلة الوضعية .

٣ ـــ نظرية التطور تقـوم على أساس إنكار المفـهـوم الجامع الذى يربط بين الثـوابت والمتغيرات .

وقد كانت البشرية فى عصر أرسطو تؤمن بقيام الحياة على أساس الثبات ثم تحولت فى عصر (هيـــجل) إلى عصر التطور .

وبعد أن كانت نظرية التطور تتصل بالبيلوجيا (دارون) حولها (سبنسر) إلى التطور الاجتماعى .

٤ ـــ قيام المجتمع البشرى على قاعدة الصراع الطبقى بعد أن كان يقوم على أساس التعارف البشرى .

٥ ـــ قيـام المعرفة على العلم والعقل بينما كـانت المعرفة تقـوم أساساً على الوحي والعقل معاً واعتبار الوحى مصدر أساسى للمعرفة .

٦ ـــ التنكر للتراث واللغة والتاريخ والحملة على الثبات فيها وفى القيم والأديان .

٧ ـــ الدعوة إلى عالمية الثقافة بينما ترتبط الثقافة بالعقائد واللغات والقيم .

٨ ـــ الدعوة إلى الفصل بين الدين والدولة .

ومعنى كل هذه النظريات أنها ترمى إلى شىء واحد هو تحرير الثقافة الغربية والفكر الغربى من عقيدة الإيمان بالله تبارك وتعالى والنبوة والوحى والغيب .

ولقد جاء الوقت الذى جمع بين المذهبين المتعارضين مذهب الليبرالية والوجودية من ناحية وبين الشيوعية والصراع الطبقى من ناحية أخرى ومع الأسف فإن كليهـما كان يصب سموماً شديدة الخطر فى مجرى فكرنا الإسلامى .

عبد الرحمن بدوى

نجد هذا واضحاً في كتابات عبد الرحمن بدوى الذى وجه كل فكره نحو الفلسفة اليونانية وغيرها فى الفكر الإسلامى فى عصر الترجمة .

وفتح بذلك أبواباً من الشر كبيرة وخطيرة فقد أحيا الزنادقة والمنحرفين ودعاة التصوف الفلسفى والإلحاد والاتحاد والحلول وسرعان ما أصبح رمزاً على قيادة مذهب الوجودية وكانت أطروحته عنها برآسة الدكتور طه حسين حيث كانت الدعوة تجرى فى الجامعات والصحافة حول أرسطو معلم العرب والمسلمين ومسكويه وابن الراوندى وكل ما أسماه عبد الرحمن بدوى (شخصيات فلسفة) .

ولقد كانت الوجودية منطلقًا خطيراً إلى فكر جديد يحاول أن يسيطر على الشباب المسلم والعربى وإلى دعوة العقل من ناحية أخرى تختلف عن دعوة العقلانيين الماركسيين .

ولما سئل فى السنوات الأخيرة (وهو المقيم فى باريس) ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٩٢ عن أسباب هجرته من مصر قال :

إن الشيوعيين تمكنوا من كل شيء فى مصر فى مطلع الستينيات وتولوا القضاء على كل شيء له قيمة حتى نجحوا فى ذلك تماماً ، ورغم أن الشيوعية زالت فى شرق أوربا وانتهت إلا أنها لا تزال قائمة فى مصر ولها بقايا من ذيول متصلة ومنتشرة فى أجنحة الدولة .

ويقول : لقد حوصر العقل فى بلادنا وأخذ إجازة طويلة وقد انغلقنا على أنفسنا ورفضنا الحوار مع الثقافات الأوربية والتعامل معها والأخذ عنها .

إن الحضارة اليونانية لم تجد مجالاً للانطلاق والتأثير إلا فى ظل العالم الإسلامى المتفتح والمتقبل للثقافات الأخرى ولك أن تلاحظ أن العقل العربى بلغ ذروة تقدمه عندما انفتح على الثقافة اليونانية ولما بدأ يهاجم الثقافات التى تقع خارج حدوده الجغرافية وينصرف عنها بدأ الانحلال والتحدى الذى أفضى إلى الموت الذى يؤرخ له بالقرن السابع الهجرى » .

ومعنى هذا أن هناك صراعاً فى أفق الفكر الإسلامى بين تيارين خطيرين :

تيار يريد أن يردنا إلى الثقافة اليونانية وهى تتمثل فى الفكر الذى أطلق عليه (علم الأصنام) وتيار يريد أن نعيش معركة الصراع الطبقى وفق مفاهيم ماركس ولينين وغيرهما .

ولا سبيل إلى غير ذلك ، ونحن مع كلا التيارين نواجه ما يسمى بالحملة على كل قيم الإسلام .

ولقد أمضى الدكتور عبد الرحمن بدوى أخصب سنى حياته يدعو إلى الفلسفة اليونانية وما اتصل بها من ترجمات المسلمين والعرب مما كون تلك الحصيلة الخطيرة من فكر الإباحية والإلحاد ومما أثر فى أسلوب الكتابة العربية على النحو الذى امتد بعد ذلك فى أدب المهجريين ، ثم فى سموم فكر الحداثة الذى يتمثل فى إحياء هذا الفكر الوثنى المادى الإباحى ومايتصل به من الفكر الباطنى والتصوف الفلسفى الذى توسع فيه بعد ذلك أدونيس ودعا إليه أركون ، وكان عبد الرحمن بدوى هو أول من أدخل الفلسفة الوجودية إلى الفكر الإسلامى عندما نشر رسالته (الزمان الوجودى) ١٩٤٥ .

وتختلف صورة الوجودية عند عبد الرحمن بدوى عما عند زكريا إبراهيم فى محاولة لتغذية نظريته بروافد عربية تتجدد فى أعماق التصوف الفلسفى .

وعنده أن الوجدان يدرك الوجود الذاتى أما العقل فيدرك الوجود الفيزيائى : وجود الأدوات والآلات . وقد رفض فكرة الالتزام ورفض فكرة الضمير ورفض فكرة الفضيلة وهى من القيم الإسلامية التى يقررها الدين الحق لبناء شخصية الإنسان السوى المؤمن بالله تبارك وتعالى . وماذا يكون الإنسان بغير التزام بالقيم أو بالفضيلة كما رفض فكرة الخير لأن الغنى عنده يعنى أن تنقسم الذات على الذوات الأخرى ، ورفض فكرة الإيثار لأنها تعنى أن الذات تتخلى عن نفسها التماساً لوهم الحلول فى الآخرين ورفض فكرة العدل لأنها تعنى التنازل عما لك طمعاً فيما لن ينال ، ورفض فكرة المسئولية لأنها تعنى التخلص من عبء الاختيار لتلقيه على الغير ، وعنده أن الإيثار إنكار وجودك حتى تصير مجرد أداة للآخرين بعد أن كان وجوداً أصيلاً .

وأعدى أعدائه القانون وكل ما يسرى بينه وبين الناس وهكذا تبدو صورة الوجودية كما دعا إليها عبد الرحمن بدوى وهى المعاكس التام للقيم الإسلامية والتى تعنى هدم كل القيم التى جاءت بها الأديان وقد كانت دعواته كلها تملأ النفس العربية بالشك ، ولقد

كانت كتابات عبد الرحمن بدوى مرتبطة بالتحولات الخطيرة .

كتب عن (نيتشه) واشبنجلر وشوبنهور :

الأول مهد للنازية والثانى فيلسوف العنصرية والثالث فيلسوف اليأس المطلق .

أما الوجودية فقد قامت فى مواجهة فلسفة هيجل التى دعت إلى تأليه الروح المطلقة على حساب الفرد وتأليه الكلى على حساب الجزئى ولهذا ضاع الإنسان بوصفه شخصاً وفرداً وقيمة فى ذاته فى مذهب هيجل فقامت الوجودية لرد اعتبار الإنسان فى مقابل الهيجيلية التى عرفت الإنسان فى شىء مجرد مهم هو الروح المطلقة ولم تحسب حساباً لقيمة الفرد أو الشخصية .

هذه هى الوجودية الفلسفة التى تبناها عبد الرحمن بدوى إلى اليوم تأثراً بالفلسفة الوجودية المثالية عند هيدجر والفلسفة الألمانية متأثرة بفلسفة نيتشه الذى ألف عنه عبد الرحمن بدوى أول كتاب عنه ١٩٣٩ من المصادر الملهمة للحزب النازى كما كان هيدجر من أعمدته الفكرية .

وعندما أضحت الوجودية رائجة فى مصر كان عبد الرحمن بدوى بعيداً عنها .

ومن المشروع الوجودى ظهرت بعض الظواهر الأدبية كالحداثة ودراسات عن الجانب الصوفى الإشراقى بحثاً عن الجذور التاريخية فى تراثنا للفلسفة الوجودية . وأخطر ما فى هذه المفاهيم قضية الذات وموقف الفلسفة الوجودية منها وموقف الإسلام فالإسلام يقرر للإنسان أن يعمل فى ميدانين : ميدان الفرد وميدان الجماعة وأن يجعل الفرد فى خدمة الجماعة . ومن هنا يظهر مدى الفوارق العميقة بين الروح الإسلامية وبين الفلسفة الوجودية ، ومن هنا كانت تلك التيارات المسماة بالحداثة بإعلاء الفردية والذاتية والحرية التى تبلغ حد الإطلاق والتى ترفض الانضواء تحت أى مفهوم كلى .

* * *

لقد كان عبد الرحمن بدوى يطمح فى أن يغلب غزو الفكر اليونانى بمفاهيم الإغريق والاستعلاء بالجنس ، فلما سقط هذا الفكر وتغلب الفكر الماركسى فى الخمسينيات أحس بدوى بالصدمة وعرف أن الإسلام لا يمكن أن يهزم وإن غلب فترة ما .

إن أخطر ما يدعو إليه المسلمين عبد الرحمن بدوى اليوم : هو التحرر من الانغلاق

على النفس ، والتحرر من رفض الحوار مع الثقافات الأوربية والتفاعل معها والأخذ عنها . وهى دعوة ظالمة مظلمة حملها كل خصوم الإسلام والعرب وهى محاولة لهدم ذاتيتنا الخاصة واختراق وجودنا والقضاء على أصالتنا وإلا فنحن نتفاهم مع كل الحضارات والثقافات بمقياس حساس وبوعى كامل وحرص شديد حتى لا تحتوينا هذه الثقافات ، وقد كان ذلك موقفنا مع كل ما قدمه عبد الرحمن بدوى وما قدمه خصومه الشيوعيون .

وقد خلف الدكتور عبد الرحمن بدوى لمذهبه الفلسفى بعض الدعاة فى مقدمتهم مصطفى سويف وثالثهم أنيس منصور ، وقد أغرق أنيس منصور الصحف التى كتب بها بعشرات من الجذاذات والروايات والخطابات والقصص وكلها يدور فى دائرة السخرية بالحياة والقيم والعقائد منقولة من قراءات مريضة لكتاب غربيين منحرفين لم يعرفوا إلا العبث والانحلال .

وقد أعلن أكثر من مرة أنه يستمد مفاهيمه هذه أساساً من اعتناقه لمذهب الوجودية على النحو الذى دعا إليه جماعة الوجوديين وعلى رأسهم سارتر وهو مذهب قائم على الإلحاد أساساً وعلى أن الحياة كلها عبث ولعب وسخرية والقيم كلها محتضرة ومنهارة وتافهة .

* * *

ولقد كانت الفترة التى بدأت ١٩٦٠ تقريباً حين تعمق الاتصال الفكرى والسياسى بالروس والدولة الشيوعية إلى استعلاء مذهب ماركس والفكر اليسارى كلية حيث فتحت أمامه أبواب الصحف والفن واتسع نطاق هذه الدعوة فى البلاد العربية واستمر هذا الاتجاه إلى نكسة ١٩٦٧ ثم تلاشى بعد ذلك بسنوات .

وقد دخلت الماركسية أغلب بلاد الشرق الأوسط التى اتصلت بروسيا وحاولت أن تتخذ منها ستاراً للتحرر والخروج من دائرة الاستعمار الغربى .

ولكن أثر الفكر الماركسى كان خطيراً وظهرت فى هذه المرحلة كتابات يسارية شديدة الخطورة حيث إنها اتصلت بالعقيدة والدين والإيمان بالحقائق والغيب والوحى ، وظهر عدد من الكتاب الماركسيين فى مختلف مجالات الفكر والأدب والقصة .

* * *

كتابات الشيوعيين الإسلامية
عبد الرحمن الشرقاوى
"تزييف التراث"

« إنى أستمد يساريتى من الإسلام .. فالإسلام يحوى من العلوم الإنسانية ما هو أكثر تقدماً من جميع الشرائع وجميع المذاهب ويخطىء من يتصور أنى يسارى أنتمى للماركسية ، أنا يسارى ولكنى لست ماركسياً .. الماركسية فى الإسلام لها موقف من الإسلام ، ولكن اليسارية ليست ضد الإسلام على أى حال ، وإن كان البعض من اليساريين لهم موقف ضد الإسلام ، فاليسار الحقيقى فى تصورى هو جزء من المجتمع الإسلامى ونحن نعيش فى دولة تستوعب جميع الديانات السماوية وقد كتبت كل ذلك فى كتبى » .

***

ولقد كانت المحاولة التى يقوم بها دعاة التفسير المادى للتاريخ عاجزة عن أن يحقق أى كسب سواء عن طريق اليسارية أم الماركسية فقد تبين خطأ التفسير الماركسى للتاريخ لفساده واختلفت وجهات النظر فيما يتعلق بأمور كثيرة من الألوهية والنبوة والبعث والغيب لقيام التفسير الماركسى للتاريخ على أساس ما يمكن إدراكه بالحواس الخمس ، أما ما لم يدرك بها فهو لا يدخل فى دائرة الموجود .

ولقد اتخذ أصحاب المذاهب المادية والماركسية من التاريخ الإسلامى مادة لدراسة أفكارهم أمثال الفتى مهران ، ومصرع الحسين ـ رضى الله عنه ـ (من أعمال عبد الرحمن الشرقاوى) حيث يقولون فى المسرحية ما لا يستطيعون أن يقولوه فى كتابات عامة ، ولذلك فالتاريخ عندهم ليس أكثر من إطارللحركة وهم لا يحترمون وقائعه ولا أحداثه ويستهينون بها ويرون أنها موصل إلى غاية وأن إعادة مقايسة وقائعه مضت وانتهت ولا قيمة لها .

فلما أراد الأزهر أن يصحح ما يتعلق بالإسلام بدأت الحملة على الأزهر وعلماء الإسلام فى محاولة لتركيع الأزهر لمركسة الإسلام ، وذلك حتى يتسنى لبعض الشيوعيين

تحقيق أهدافهم بالطعن فى الصحابة وكتاب الوحي وتشويه صورة آل البيت النبوى الكريم ، وقد وصف عبد الرحمن الشرقاوى علماء الإسلام بالمرتزقة والتخلف ، والسر فى ذلك أن الأزهر لم يوافق على عرض مسرحية (الحسين ثائراً) على خشبة المسرح لما تحمله من أفكار ومضمون غير إسلامى .

والواقع أن الأزهر قد اتخذ الموقف الصحيح حين منع هذه المسرحية أو لم يوافق على عرضها ، لأن المسرحية صورت سيد الشهداء في صورة الشيوعي الأمريكي اللاتيني (جيفارا) كما تحمل المسرحية كماً هائلاً من الألفاظ الهابطة والعبارات الجامحة التى لا يعتقد أن الحسين وآله والصحابة رضى الله عنهم يستعملونها .

كذلك فإن المسرحية انطلقت من تصور شيوعى لا أثر للإسلام فيه إلا لبعض الأحداث التاريخية التى لم يستطع الكاتب أن يتجاوزها .

فالمسرحية قائمة على التصور الشيوعى وبعيدة عن الواقع التاريخى فضلاً عن الإسلام.

إن الرفاق الشيوعيين يريدون أن يصدقوا مع أنفسهم مرة واحدة ولا يريدون أن يعترفوا بشيوعيتهم حتي يجدوا لهم مكانة في عقول الناس ولكنهم يصرون على المغالطة والخداع والخروج علي الناس بمقتضيات تطمس هويتهم الحقيقية ويجعلهم يخترقون كل عصر .

ولقد كان من أخطر أعمال الماركسيين استغلال أبى ذر الغفارى – رضى الله عنه – في هذا الصدد استغلالاً كبيراً فى محاولة لجعله اشتراكياً ومنطلقاً للذين يريدون أن يأخذوا من تاريخ الإسلام وتراثه مدخلاً لغايات أبعد وكذلك كان الأمر بالنسبة للإمام الحسين – رضى الله عنه – فقد أريد أن يكون شبيهاً بجيفارا ، أو بديلاً لجيفارا .

وتلك رغبة الماركسيين فى استغلال تاريخ الشعوب وتراثها فى كل أمة ولغة لإدخال مفاهيمهم وإبراز دعوتهم من وراء قلوب وعقول ونفوس طامحة ذات أهواء وآمال فى التبرير والظهور والصدارة .

ولقد كان عبد الرحمن الشرقاوى على هذا النحو ومن هذا القبيل وربما كانت البيئة نفسها وما يتصل بالإقطاع وقصور الأمراء ومظالمهم كان بعيد الأثر فى نفوس هؤلاء الكتاب الذين أرادوا أن يصوروا ذلك من خلال قصص تحت أسماء براقة خادعة : [الحرية والعدل والأدب الواقعى وما يسمى بالعدالة الاجتماعية] .

ولو أن هؤلاء درسوا الإسلام لوجدوا فيه الإجابة الصحيحة لتلك التساؤلات حول مهمة الإنسان وحول حريته وحول العدل الاجتماعى على نحو ربانى أصيل يختلف عن تلك الأطروحات المضللة الخادعة التى طرحها اليهود الذين قادوا الحركة الشيوعية فى بلادنا منذ وقت طويل .

وقد عرض هؤلاء المسرحية والشعر والمسرحية الشعرية سبيلاً للحديث عن الواقعية الاجتماعية والجماهير الكادحة والطلائع والأرض وانطلقوا من هذا إلى ضرب مفهوم البلاغة العربى والبيان العربى فدعوا إلى التحرر من الالتزام بالوزن فى الشعر وترك القوافى فى محاولة اتسع نطاقها من بعد حتى سميت بالشعر الحر ثم فتحت أبواب جهنم للدعوة إلى الحداثة بمفهوم يهدم البيان العربى هدماً ويحطم النموذج البلاغى القرآنى تحطيماً فى دعوة عريضة إلى التحرر من ضوابط الشعر إلى التحرر الكامل من كل الضوابط .

ومن أجل العرض القصير المتصل بأهواء المذاهب الهدامة يهال التراب على كل شئ وتحرف وقائع التاريخ وتضرب كل القيم ويوضع الشئ فى موضع مختلف بصورة الصراع السياسى وتفريغ صورة الحياة فى عصر الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم من روعتها وقدسيتها وما يمتلئ به من سماحة وكرامة وإيمان .

وكان هذا هدفاً أساسياً من أهداف التغريب التى سعت إليها كل القوى العاملة فى مجال الغزو الفكرى (غربية وماركسية وصهيونية) بإطفاء أنوار التاريخ الإسلامى وخسف أضوائه وتفسيره تفسيراً مادياً حتى يزدريه أبناؤه وينخلع عنه أهله ، وتزول روحانيته وكرامته وتضيع قدرته على شحن قلوب الشباب المسلم بالإيمان ووجدان المسلمين باليقين والثقة فى قدرة الأجيال الجديدة على تحرر الأوطان وحماية الثغور واستئناف تبليغ الإسلام للعالمين .

ولقد حاول عبد الرحمن الشرقاوى إضفاء طابع ماركسى على تاريخ الخلفاء وفيما رسمه من صور عن حياة أبى بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم فى محاولة لتصوير الحياة الاجتماعية الإسلامية فى مرحلة الراشدين على أنها صراع اجتماعى وصراع طبقى فهو ينحى شخصية الخليفة ويضرب من حوله من الشخصيات على نحو تبدو فيه الصورة كريهة مضطربة فإذا ذهبت ترجعها إلى النصوص وإلى المصادر وجدت التجاوز فى عرض الروايات الباطلة والأقاصيص الزائفة ووجدت من ورائها تلك الفكرة المسمومة التى تقول بأن

للروائى أن يتصرف ويتجاوز التاريخ من أجل العقدة الفنية والحبكة الروائية .

ولقد ظن الداعون إلى هذا والراغبون فيه أنه سيسحب البساط من تحت أقدام التاريخ الإسلامى أو يزيل من نفوس الشباب المسلم إيمانهم العميق بتاريخهم والإعجاز الواضح فى انتصاراتهم والتى تصدر أساساً عن الإيمان والتضحية والاستشهاد ووعد الله بالنصر للفئة المؤمنة القليلة على الفئة الباغية الكثيرة .

وهم جميعاً على قلب رجل واحد فى المغالطة والتضليل والخداع وانتزاع النصوص من سياقها واستغلال العبارات البراقة التى يدعون أنها تمثل الأسلوب العلمى وهى لا تزيد عن قولهم : إن الفكرة غامضة أو بعيدة عن الموضوعية أو ليست فى الاتجاه الصحيح أو أن كاتباً ليس متخصصاً وقد أتاحت لهم حركة يوليو أن يبرزوا وفتحت لهم أبواب الصحافة والثقافة فخدعوا الكثيرين ولكن حركة اليقظة كانت لهم بالمرصاد فكشفت زيفهم وعرت دعاواهم ودحضت آراءهم وتبين أنهم خصوم الإسلام وأعداؤه وأنهم أشد عداوة للإسلام من الليبراليين فهم خلفاء القوميين والصهيونيين فالمنهج التغريبى فى أصله واحد وإن اتخذ كل منهم قطاعاً اهتم به وأولاه عنايته .

ولقد كان هؤلاء العلمانيون الماركسيون قد اقتحموا حمى الإسلام بأن وجهوا أقلامهم إلى التراث الإسلامى والتاريخ وساروا على الخطة المرسومة التى رسمها لهم شيخ التغريب وعميد الأدب الدكتور طه حسين من أجل إحياء التراث الباطنى وإعادة القرامطة والزنج وإحياء رسائل إخوان الصفا وألف ليلة وكليلة ودمنة من أجل ما تشير إليه من تشكيك فى رسالات السماء ومما كتبه ابن المقفع من أجل إحياء الشعر الإباحى الذى يتزعمه أبو نواس وبشار والضحاك ومن أجل هذا أعطيت شخصيات كبيرة صورة الصلب التى لايقرها الإسلام ممثلة إلى الحلاج وكما حاول كذباً صلاح عبد الصبور عن الحسين عليه السلام فقد زيفت حلقات التاريخ الإسلامى وتركزت على إبراز تناقضات المجتمعات الإسلامية على نحو من تصور الخلفاء والصحابة رضى الله عنهم .

* * *

الدكتور محمد أنيس

ظهر الدكتور محمد أنيس فى إطار الطرح الماركسى الذى شمل الجامعات والإذاعة والصحافة ، وكان له المكان الخطير (كلية الآداب : قسم التاريخ المعاصر) وبذلك استطاع أن يطرح فى قوة واستمرار لمدى طويل : نظرية التفسير المادى للتاريخ وأن يطبقها على تاريخ ثورة ١٩١٩ وغيرها على أساس أن العوامل الاقتصادية هى المصدر لكل حركات العمل السياسى والاجتماعى .

وكان لعمله هذا فى قسم التاريخ آثاره البعيدة فى حجب مفاهيم الإسلام وكان الاهتمام مركزاً على إذاعة التفسير المادى للتاريخ .

ومن هنا كان موقفه الخطير تجاه الدولة العثمانية .

فقد أخذ بالرأى الذى يحمله المستشرقون المبشرون على طول المدى وهو اتهام العثمانيين فى أنهم سبب تخلف العرب ولقد ظل يعمل فى هذا الحقل من ١٩٥٦ إلى نكسة ١٩٦٧ حيث كان له موقفان مختلفان : موقفه من الماركسية ، وموقفه من حزب الوفد .

يقول الدكتور صلاح العقاد : كان الدكتور أنيس محسوباً على اليسار ، أما الآن فقد ذابت الأقطار اليسارية فى ينابيع نفط الخليج حيث يفيض الأساتذة مرتبات عالية .

وشأنه فى ذلك شأن الكثيرين من المفكرين اليساريين المصريين الذى أعيروا إلى جامعات السعودية والخليج فإذا بهم يطلقون ماركس ولينين .

ولكن هل هو طلاق بائن أم مؤقت .

أم أنهم هناك ينشرون فكرهم من وراء وراء .

وكان الدكتور أنيس قد خرج للعمل فى جامعة قسنطينة (المغرب) ـ وببغداد ـ وصنعاء ، فلما تأسس حزب الوفد عاد إلى مصر لتنخرط فى نشاط الحزب ثم انسحب على أثر تحالف مقاداته مع جماعة الإخوان المسلمين ، وكان تعاطفه مع حزب الوفد القديم باعتباره نصيراً للعلمانية والديمقراطية .

وقد جاء كتابه عن (٤ فبراير) دفاعاً عن حزب الوفد وتبريراً ، يقول النحاس باشا :

الحكم على أثر حصار العصر الملكى بالدبابات البريطانية .

ومن ذلك دعواه أن ما حدث فى ٤ فبراير كان تعبيراً عن دخول الصراع بين الوفد والقصر في إطار الصراع العالمي بين القوى الديمقراطية والقوى الفاشية .

ويقول أتباع الدكتور أنيس إنه بنى مدرسة في التاريخ كما بنى مصطفى أمين مدرسة في الصحافة ، ويوسف وهبى فى المسرح ، وهو لدى الباحثين أستاذ جامعى استقطب الاتجاه الماركسى الذى تمقته حركة يوليو وكان سعيه الدءوب إلى إنشاء مدرسة ماركسية فى الجامعة وقد استطاع خلال فترة تزيد على ثلاثين عاماً متصلة داخل الجامعة أن يخلق تياراً جديداً فى دراسة وفهم التاريخ أصبح فيما بعد دراسة كاملة تشغل الآن معظم أبنائها .

وهى مدرسة لها إطارها النظرى الواقعى ومنهجها ذات البعد الاجتماعى الكامل في دراسة تاريخ مصر الحديث .

＊ ＊ ＊

الغـزو المـزدوج
الماركسيّة والعَلمانيّة

* سعيد العشماوى .
* حسين أحمد أمين .
* فرج فودة .
* فؤاد زكريا .
* علماء الفرنكفون : عابد الجابرى .

مَدخَل

كان لابد مع اتساع الصحوة الإسلامية وتعمقها وصمودها أمام الحملة الضخمة التى قام بها الاستشراق والتبشير والماركسية والصهيونية والعلمانية من أجل التأثير على الامتداد الإسلامى الذى كان أبرز معالمه : دخول العلماء الغربيين الذين تصدروا زمناً طويلاً لقيادة الفكر البشرى والعلمانى ـــ دخولهم فى الإسلام وإيمانهم بمفهوم التوحيد الخالص وسلامة المنهج الإسلامى وقدرته على العطاء فى هذا الزمن وفى الزمن على امتداد الزمن وإذا كانت هناك علامات توالت تؤكد عطاء الإسلام إلا أن هذه المرحلة بالذات (بعد قيام الصحوة وامتدادها إلى إيران وأفغانستان) قد هزت قوائم التغريب ودفعه أهله إلى إيجاد جبهة جديدة لاستغلال وسائل أخرى بعد أن حطم الإسلام كل المؤامرات التى ساقها الاستشراق والشيوعية وكان سقوط الشيوعية إحدى الضربات الكبرى التى أزعجت أصحاب الحملة مما دفعهم إلى العمل على تكوين كيانات جديدة تعمل على استغلال كتابات الفكر الباطنى والوثنى ومذاهب الفلسفات القديمة البالية واستغلال ما جمعته قوى الاستشراق والتبشير من شبهات حول آى القرآن الكريم والحديث النبوى وما تضمنته كتب القرامطة والفرس القدامى من أمثال رسائل إخوان الصفا وتفسيرات الفرق الضالة .

وكان على رأس هذه الحركة الجديدة أسماء مجهولة ليس لها تاريخ واضح أو عطاء محدد .

وكانت الفلسفة هى الطريق : الفلسفة المادية ، والقصة المتحدية لأصول الفن الأصيل ، وكان الهجوم على اللغة العربية أهم ركائز هذه الدعوى (إيماناً بأن تدمير الفصحى أحد وسائل التأثير على القرآن والبلاغة العربية) .

فظهرت الحداثة والعلمانية والبنيوية والباطنية وغيرها وهى أسماء مضللة لم يكن يراد بها إلا ضرب الإسلام بوصفه ديناً عالمياً .

وهكذا تضامنت العلمانية مع الماركسية فى خليط عجيب من أجل إشاعة روح الهزيمة .

ومع الأسف الشديد أن أغلب هؤلاء العلمانيين كانوا مسلمين ديناً وعرباً لغة ولهم

فى كل من الإسلام والعروبة قيم ومفاهيم ترتفع بهم فوق الخضوع للمذاهب المادية الوافدة التى تقوم على التنكر للإيمان باللغة والعقيدة والقيم والمثل العليا التى عرفها المسلمون والعرب منذ أربعة عشر قرناً ومن هنا جاءت تلك المرحلة الجديدة التى بدأت بعد إشراقة الإسلام تحمل عوامل جديدة من قبل النفوذ الأجنبى (الاستشراق والتبشير والغزو الثقافى) لكسب مجموعات جديدة من العاملين فى حقل الأدب والفكر بل إنها استطاعت أن تستعبد عدداً من الكتاب الذى خضعوا للمذاهب الهدامة ثم عادوا عنها بعد أن اكتشفوا حقائق الأصالة الإسلامية .

كانت الغزوة هذه المرة تحاول أن تقتحم أسوار الأصالة : جاءت عن طريق الفلسفة والتاريخ واستغلال بعض الكتابات القديمة التى قام بها الزنادقة والملاحدة وإعادة صياغتها من جديد لمحاولة ضرب تاريخ الإسلام وكانت الماركسية هى العلامة الفارقة على هذه الجماعة التى تجمع فى فكرتها ومنهجها كل ما واجه الإسلام فى تاريخه من تحديات وشبهات ومذاهب كان أعظم معالمها الزندقة والكشف وتدمير الحضارة الأخلاقية والاجتماعية للمجتمع المسلم من خلال تقديم القصة والمسرحية والرواية من خلال مفهوم الدراما .

وكانت كتابات الزنادقة الذين كتبوا (رسائل إخوان الصفا) وتابعوا الفلسفات اليونانية والفارسية وكل ما يتصل بالفكر الباطنى وحلقات القرامطة وفكرهم فى محاولة واسعة لمحاولة ضرب القرآن الكريم (ونسوا أن أعلاماً بلغوا أرفع قدر من فهم النصوص قد تراجعوا أمام القرآن الذى هزمهم وكتبوا هم فى كتبهم بصراحة أنهم انهزموا أمام كلام رب العالمين) .

كانت المحاولة الاستعانة بالفكر الباطنى وبكل ما كتب فى إثارة الشبهات حول الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه وتاريخه مما يتصل بالفكر الباطنى وحلقات القرامطة وفكرهم وضرب قيم الإسلام والتهجم على السنة والتاريخ والشريعة الإسلامية واللغة العربية وهذا ما بدا واضحاً فى هذه المرحلة من كتابات سعيد العشماوى وحسين أحمد أمين وفرج فودة وحسن حنفى وغيرهم .

* * *

سعيد العشماوى

أول الغيث :

كتب الدكتور عبد المنعم النمر مقالاً كشف فيه عن حقيقة المستشار العشماوى قرر فيه إنكاره لعموم رسالة سيدنا رسول الله ﷺ للناس جميعاً وأن بعض الناس معفون منها وغير واجب عليهم الإيمان بها بعد أن تبلغهم دعوته على وجهها الصحيح .

يقول الدكتور النمر ـــ ولقد خالفته وبينت له في ردى بالدليل أن من يقول هذا من المسلمين ينتقض إيمانه برسول الله ﷺ ورسالته العالمية للناس كافة ويناقض القرآن والسنة وإجماع المسلمين والمعلوم من الدين بالضرورة فرد على بالإصرار على رأيه مع أنه بذلك يصبح خارجاً على عقيدة المسلمين .

وقد وجه الدكتور النمر إلى العشماوى يقول :

إن له سؤال متمسك بأن يجيب عنه الأستاذ القاضى الكبير وهو لا يزال مصراً على ما ذكره في مقاله حينذاك من أن الله (تبارك وتعالى) أعفى أو لم يكلف جماعات من الناس ـــ ذكرهم في مقاله بوجوب الإيمان بمحمد ﷺ بعد أن تبلغهم دعوته على وجهها الصحيح ولهم بعد أن يرفضوا الإيمان به أن يسموا حينئذ مسلمين كمن آمنوا به وبعموم رسالتـــه .

فتهرب من الجواب .

ومعنى ذلك أنه لم يرجع عن عقيدته الخاطئة إلى العقيدة السليمة بعد مرور عشر سنوات وهو يشغل منصباً قضائياً كبيراً وليس من السهل على الشعب المصرى المسلم ولا على القضاء أن يقبل هذا الوضع ويستسيغه مع اعتلال عقيدته وخروجه على قواعد الإسلام السليمة المجمع عليها بهذه النصوص بل ويدعى أنه مفكر إسلامى كبير ويروج له مروجون إلى أن يرجع إلى الحق (الأخبار ١٩٩٠/٥/١٢) .

كتب الدكتور النمر أن مقالات محمد سعيد العشماوى التي نشرها فى جريدة الأخبار ١٩٧٩/١٢/٩ تحت عنوان : (**الإســلام والأديان**) .

التى جمعها من بعد فى كتاب أصول الشريعة : خلاصتها أن محمداً رسول الله ليس مرسلا للناس كافة وليس واجبـاً على كل من بلغته دعوة الرسول أن يؤمن به وكان نص ما قاله بعد مقدمات :

(ولذلك يكون الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ وبرسالته واجباً على كل من وجهت إليه الدعوة غير أن الله سبحانه وتعالى ترك الحرية لأهل الكتاب فى أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا) يقول الشيخ النمر: والعقيدة الإسلامية كما وضحها القرآن والسنة وأجمع عليها المسلمون وأصبحت معلومة من الدين بالضرورة وكل المسلمين عليها والحمد لله أن رسالة الرسول ﷺ عامة لجميع البشر وأن كل من بلغته دعوته على وجه صحيح أن يؤمنوا بها سواء فى ذلك أهل الكتاب أم غيرهم .

ورد العشماوى على الشيخ النمر ١٩٧٩/١٢/١٣ ولكنه أوغل فى عبارة (ونال منى ومن جميع العلماء وادعى بأننا لا نعرف إلا ألفية ابن مالك والكتب الصفراء بينما هو طاف العالم وحاضر فى أمريكا) .

وقال الدكتور النمر فى الرد عليه :

إنه أصر على رفضه وإنكاره أن محمداً رسول الله ﷺ مبعوث للناس جميعاً من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم .

وأنه أهدر بذلك العقيدة التى عليها المسلمون جميعاً والتى دعا إليها القرآن كما بينتها السنة فى صراحة لا تحتمل التأويل وهو بموقفه هذا قد أنكر هذه الآيات وغيرها من القرآن وأهدر السنة الصحيحة وخالف إجماع المسلمين وأنكر شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة .

* * *

كتــاب الخلافــة

يقول الدكتور توفيـــق الشاوى : ألف العشماوى كتاباً بعنوان (الخلافة الإسلامية) هاجم فيه الدكتور عبد الرزاق السنهورى وتجرأ على الإسلام وعلى قيمه ومبادئه وتناول بالتجريح رسولنا الكريم ﷺ والصحابة جميعاً وجميع خلفاء الأمة الإسلامية وأئمة الفقه الإسلامى حتى إنه وصف (الإمام ابن تيمية) بأنه إرهابى وادعى أن القرآن به أخطاء لغوية وأن الحجاج قد أصلح بعض الأخطاء التى كانت فيه وبقيت أخطاء أخرى تبرع هو بإصلاحها .

وزعم أن الزكاة ليست عبادة مفروضة فى القرآن وإنما هى ضريبة فرضها الخليفة أبوبكر الصديق بمرسوم أصدره وغير ذلك وقال إن السنهورى أخطأ وخلط ووقع فى أخطاء كثيرة تطوع تنبيهنا إليها .

ولم يلبث الأزهر أن جدد اتهامه للمستشار سعيد العشماوى حيث نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية تقريرا اتهم فيه المستشار العشماوى بأنه يسىء إلى النبى ﷺ والصحابة والدين فى مؤلفـاته وطالب التقرير بمصادرة كتب المستشار العشماوى من الأسـواق وهو ما اعتبره المستشار العشماوى تبريراً واضحاً من الأزهر يدفع إلى اغتياله ولم يلبث المستشار العشماوى أن اصطدم مع عدد من علماء الأزهر ومن الكتاب المؤيدين للحركة الإسلامية .

وكانت لجنـة من مجمع البحوث قد توجهت إلى دار سينا للنشر فى معرض القاهرة (يناير ١٩٩٢) وتحفظت على خمسة من كتب العشماوى وهى :

١ ـــ أصول الشريعة .

٢ ـــ الإسلام السياسى.

٣ ـــ الربا والفائدة فى الإسلام .

٤ ـــ الخلافة الإسلامية .

٥ ـــ معالم الإســلام .

وقالت الصحف إن الكتب الخمسة موجودة فى الأسواق منذ سنوات .

وكان كتاب أصول الشريعة قد صدر عام ١٩٧٩ .

وقد اتهم العشماوى فى حديث إلى صحيفة الأهالى (اليسارية) لسان حزب التجمع اتهم الأزهر بأنه سقط فى حبائل جماعات ما أسماه الإسلام السياسى وقال إنهم يسايرون تلك الجماعات وأنهم خضعوا لها وأن كتاب الإسلام السياسى قد نشر فى الجزائر بواسطة الحكومة الجزائرية لمحاربة جماعات الإسلام السياسية فيها بمقتضى ما ورد به من أفكار وآراء .

وأشار المختصون بضرورة منع هذه الكتب من التداول خاصة كتاب الخلافة الإسلامية وقالت إن كتب المستشار العلمانى تشجع على الإرهاب والتطرف بما تحويه من فتنة .

وقال التقرير إن كتاب الخلافة الإسلامية قد تناول بكثير من السقط والغلو تاريخ الصحابة فهو يركز على المساوىء والأخبار السيئة ويضخمها كما كان يفعل عبد الرحمن الشرقاوى وهذا اتجاه العلمانيين عادة .

وأن بالكتاب تحريفاً للتاريخ وتجنيا على الصحابة وتبنياً للروايات الضعيفة وهو يتضمن مطاعن مرفوضة فى القرآن الكريم والرسول ﷺ والخلفاء الراشدين رضى اللهعنهم إلى جانب اهتمامه بالفتن دون تمحيص بما قد يوحى بأنه يريد إعادة الفتنة .

كما هاجم العشماوى ١٩٧٩لجان تقنين الشريعة .

وقال إنه يدعو إلى تنقية الدين الإسلامى مما أدخل عليه من شوائب ومفاهيم غريبة عن روح الإسلام الصحيح .

وأشار الدكتور توفيق الشاوى إلى أن كتاب الخلافة الذى أصدره العشماوى ليس إلا محاولة لتشويه كتاب الدكتور السنهورى الذى نشره عام ١٩٢٩ أطروحة للدكتوراه من جامعة ليون فى فرنسا .

فالسنهورى لا يشكك فى الخلافة بل ينظر إليها على أنها تطورت ويجب أن تصبح منظمة دولية يشترك فيها جميع الشعوب وجميع الدول الإسلامية المستقلة .

ورسالة السنهورى علمية لأنها رسمت للعالم الإسلامي الطريق الجديد الذى يمكن من إقامة منظمة دولية تحل محل الخلافة التى ألغيت فى تركيا وفيه نظرة إلى إقامة هذا

التنظيم الدولى واجب تفرضه الشريعة الإسلامية لأن مبدأ وحدة الأمة الإسلامية أساس فى الشريعـــة .

وقد جاء العشماوى لمعارضة رأى السنهورى فهاجم تاريخ العالم الإسلامى كله بما فى ذلك الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم وجميع الدول الإسلامية السابقة بل هاجم الرسالة الإسلامية ومبادىء الشريعة التى تفرض وحدة الأمة الإسلامية وهاجم القرآن الكريم بصورة لا يمكن أن يقوم عليها مفكر أو مسلم .

وقد أشار التقرير إلى أن كتاب العشماوى يتجه بكل مباحثه نحو غاية محددة هى أن الخلافة الإسلامية لا أصل لها فى الشريعة وأنها وجدت وجوداً باطلاً قام على خلط النبوة بالملك وخلط الدين بالسياسة وقد صور الخلافة الإسلامية فى صورة الخلافة المسيحية وذكر أنها تضفي على الحاكم صفات دينية وهو يعلي شأن الخلافة المسيحية فى حين يكيل الاتهامات للخلافة الإسلامية .

وقال التقرير إنه سب كبار الصحابة ووصفهم بما لا يليق بمكانتهم العظيمة ؛ وهذا ما يدل على قصد متعمد لتخريب الدين .

* * *

من على عبد الرازق إلى سعيد العشماوى

حاول سعيد العشماوى أن يبدأ من يقظة الشك الكبرى فى الدعوى التى ادعاها على عبد الرازق ومضى بها يوسعها ويعمقها .

فقال : إن الخلافة الإسلامية كهانة مقدسة .

وتابع طه حسين فى أن نظام حكم الإسلام لم يطبق بعد عمر بن الخطاب فقدم هذه الصورة المشوهة للخلفاء الراشدين رضى الله عنهم .

وحاول تقديم الرسول ﷺ فى صورة جاهلية ووسع دائرة الشك الفلسفى فادعى بوجود أخطاء فى القرآن ولما كان هدفه الأساسى هو حجب الشريعة الإسلامية وطمس الخلافة الإسلامية فقد بدأ بالتشكيك فى القرآن .

ولقد حاول سعيد العشماوى أن يدعم مقولات المستشرقين والمبشرين والملاحدة فى أغلبها فكتب عن الخلافة فأنكرها وعن الشريعة فعارضها وعن الربا فتجاهله وذلك فى سبيل هدف أساسى هو هدم الدعوة إلى تطبيق الشريعة من ناحية وإلى معارضة إقامة الوحدة الجامعة من ناحية أخرى .

ومن مقولاته فى هذا : أن كلمة الشريعة لم ترد إلا مرة واحدة فى القرآن الكريم ، وأن المقولة الأساسية فى كتابه (عن الشريعة) أن الإسلام دين روحانى وأخلاقى (تشبيهاً له بالمسيحية) وادعوا أنه لا علاقة له بشئون الحكم والسياسة .

وقال : إن الشريعة التى ينادى بها البعض شيء مبتدع لا أصل له فى القرآن ، وكان فى ذلك مردداً لشبهات قديمة .

ترددت كثيراً عندما أصدر على عبد الرازق كتابه (الإسلام وأصول الحكم) .

وقال : إن لفظ الشريعة لم يرد فى القرآن بمعنى النظام القانونى .

وأنه استعمل بالمعنى الاصطلاحى والذى يعنى الفقه ولم يستعمل بالمعنى الأصيل الوارد فى القرآن بما يعنى منهج الله تبارك وتعالى أو الطريق إليه .

وهكذا جرى التشكيك والمراوغة إلى حد القول بأن تقنين الشريعة هل يقصد ما نزل

من عند الله تبارك وتعالى أم يعنى ما صدر عن الناس من الفقه ، ولم يكن الفارق بين الشريعة التى أنزلها الحق تبارك وتعالى وبين الفقه الذى وضعه علماء الدين مسألة مجهولة أو غائبة .

بل إن البعض قد ذهب إلى اعتبار الإمامة أو الخلافة مسألة دينية واعتقاد شيعى لا يعرفه أهل السنة جميعاً .

* * *

ولعل أخطر ما دعا إليه المستشار العشماوى تلك الدعوة المسمومة المضللة التى تقول بأن آيات القرآن ينبغى أ ن تفسر وفقاً للمصدر التاريخى لنزولها أو تبعاً لأسباب التنزيل أما تفسير آيات القرآن على عموم ألفاظها فهو يؤدى إلى اضطراب شديد فى فهم الشريعة وإلى اختلاف كبير بين المسلمين ينتهى إلى تكفير الجميع وتسويغ الاتجاهات المصادرة للديمقراطية والحرية والإنسانية .

وإذا كان هذا التفسير التاريخى الغربى يتصل بالقضايا المختلفة التى تتصل بالتاريخ الإنسانى فإن هذه الدعوة لا تصلح بالنسبة للقرآن الكريم ولا للشريعة الإسلامية التى يقوم الأمر فيها على الوحى الربانى الثابت القائم المستمر والذى لا يتوقف عند موقف معين وإنما يصل من الثوابت المتصلة على مدى الزمن .

ومن هنا كان خطأ المستشار العشماوى فى قوله أن حكم القرآن فى قطع يد السارق مسبوق فى الجاهلية ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم** ﴾ . [المائدة ٣٨]

فهو يدعى أن المصدر التاريخى لهذه الآية هو الوليد بن المغيرةلأنه أول من حكم بقطع يد السارق فى الجاهلية مؤكداً أن الشريعة الإسلامية أخذت من قواعد المجتمع وأعرافه وعوائده ما أصبح أحكاماً فيها ناسياً أن القرآن الكريم (وهو لايصفه بأنه كريم) هو كلام الله عز وجل أزلى بأزليته أبدى بأبديته محفوظ بعنايته وأنه ليس هناك تاريخ قبله يعد مصدراً تاريخياً له وأن الجاهلية ليست لها شريعة تسبق القرآن حتى يأخذ منها بل إن القرآن الكريم سابق على التاريخ وليس من صنع البشركالقوانين التى وضعها الناس فى مختلف الأزمنة تتأثر بحركة المجتمع أو بعادات الناس وتقاليدهم .

ولقد أحصى كثير من الباحثين أخطاء المستشار العشماوى وتجاوزاته وفى مقدمتهم الدكتور محمد عمارة الذى سجل له :

١ ـــ التشكيك فى إلهية ألفاظ القرآن الكريم والادعاء بوجود أخطاء فى القرآن .

٢ ـــ تشويه صورة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم .

٣ ـــ تقديم الرسول ﷺ فى صورة جاهلية .

٤ ـــ تصوير الخلافة الإسلامية بصورة كهانة مقدسة .

وهذا جانب من أخطائه وتجاوزاته:

أولاً : (حول جمع المسلمين على مصحف عثمان) .

١ ـــ لا يترك المستشار العشماوى أى فرصة حتى يشكك فى إلهية اللفظ القرآنى عندما يزعم أن القرآن نزل على المعانى وقصد إليها ، أما الألفاظ التى تعبر بها عن هذه المعانى فقد أجاز للنبى ﷺ أن يعبر عنها بلفظ آخر يفيد المعنى ففتح الباب لكل من يريد التعبير عن معانى القرآن بمترادفات ألفاظه أن يزعم أن نظمه ونصه هذا هو قرآن طالما أنه يعبر عن المعانى التى نزل بها القرآن عليها والتى قصد إليها ..

٢ ـــ كان جمع الأمة على حرف واحد فى المصحف ذلك الذى أنجزته الأمة على عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه هو الذى يطعن فيه العشماوى زاعماً أن ذلك قد أغلق باب الحرية على من يريد التعبير عن معانى القرآن بألفاظ أخرى .

هذا مع الزعم بأن هذا التعبير قرآن وليس تفسيراً للقرآن .

٣ ـــ أكبر أخطائه هو دعواه أن القرآن نزل على المعانى وقصد إليها وإذا كانت المعانى تقبل التعبير عنها بأكثر من لفظ فقد تضمن التنزيل صياغتها فى لفظ .

وهو فى هذه الدعوى لا يفترى عل الأمة ويسفه إجماعها المعصوم وإنما يكذب على الله سبحانه وتعالى وعلى رسوله ﷺ فالقرآن الكريم لم ينزل على المعنى وحده ، وإنما نزل بلفظ يحمل معنى فا لإلهى فيه هو اللفظ والمعنى جميعاً وإعجازه لم يكن بالمعانى فقط .

وإنما كان بالصياغات والنظم والتركيب والألفاظ ، فالقرآن أنزل على سبعة أحرف تيسيراً وترخيصاً للأمة فى قراءته ولم ينزل على لفظ واحد مع فتح الباب لكل من أراد التعبير عن معانيه باللفظ الذى يريد كما يقول المستشار عشماوى ، وعندما زالت ضرورات

الرخصة اجتمعت الأمة على أن المصلحة هى فى جمع القراءة على « الغريمة » أى الحرف الواحد توحيداً للأمة خاصة بعد أن بدأ غير العرب يدخلون الإسلام ويقرأون القرآن فكان جميع المسلمين على رسم واحد لحرف واحد بالمصحف الذى تم إعداده على عهد عثمان رضى الله عنه وهذه هى الحقيقة التى هى من بديهيات الفكر الإسلامى .

لكن العشماوى لا يكتفى بالطعن فى حقيقة أن الأحرف السبعة هى تنزيل وترخيص إلهى ولا يقنع بفرية فتح الباب لقراءات بشرية اللفظ وبالطعن على الأمة فى جمعها واجتماعها فى قراءة القرآن ورسمه على حرف واحد ، لا يكتفى ولا يقنع الرجل بهذا المستوى من الافتراء على القرآن والصحابة رضى الله عنهم والأمة وإنما يذهب ليرى أن اجتماع الأمة على رسم ونص قرآنى واحد قد كان السبب الذى (صنع الإنسان المسلم وأصاب العقل الإسلامى فى مقتل منذ عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه .

هكذا يكتب المستشار العشماوى ويقول : إن اعتماد عثمان بن عفان لقراءة واحدة من قراءات القرآن يعد عملاً خطيراً إذ إن جمع المسلمين على قراءة واحدة حفظ لآيات القرآن فلا شك غير أن هذا الجمع ــ وقد حفظ النص القرآنى ــ صنع الإنسان المسلم فدخل فى طور الجمود والتقليد .

ولعل لا أحد ممن يحترمون عقولهم يدرى العلاقة بين اجتماع الأمة على نص قرآنى واحد وبين صناع الإنسان المسلم كما يقول المستشار العشماوى .

ثانياً : حول ادعاء العشماوى بوجود أخطاء فى القرآن الكريم :

يقول دكتور محمد عمارة: إن تاريخ الإسلام قد عرف ألواناً من الزندقة وطائفة من الزنادقة كان أغلبهم من دعاة إحياء الماسونية والمذاهب الفارسية القديمة ومع هذا فلم يشكك زنديق فى نص القرآن الكريم ولم يزعم ملحد ولا مرتد وجود أخطاء فى آياته الكريمة .

لكن زنديقاً من الزنادقة لم يدع وجود أخطاء فى نص القرآن ولو كان هناك مجال لمثل هذا الادعاء لما غفل عنه أساطين العربية من بلغاء العرب الذى كان التحدى بالقرآن لهم معجزة من معجزات الإسلام ﴿ **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين** ﴾ . [يونس ٣٧] .

أما المستشار العشماوى فإنه قد جاء ليشكك فى صحة آيات من القرآن الكريم بعد أن سبق وفتح الباب لدعوى بشرية النص القرآنى فاستند ـــ بسوء قصد ـــ إلى رواية معلولة نبه راويها ذاته على علتها وتهافتها ليصل إلى ما لم يجرؤ عليه الملحدون والزنادقة والمرتدون من الطعن فى صحة آيات القرآن وتنزهها عن الأخطاء .

٣ ـــ قرأ العشماوى ما ورد فى كتاب المصاحف للسجستانى : كان فى كتاب رجل أن الحجاج بن يوسف غير فى مصحف عثمان رضى الله عنه أحد عشر حرفاً .

وقد انطلق العشماوى فرحاً من هذه الرواية الأحادية المعلولة دون أن يحقق الأمر تحقيق الغيور على مكانة القرآن ليعرف حقيقة الأمر وحقيقة صانعه ، انطلق ليتهم بنى أمية بعدم تقديس القرآن شأن المسلمين ولذلك تركوا (مدرس لغة عربية هو الحجاج) يتدخل فى القرآن ويغير فيه موهماً قارئه بأن القرآن كانت فيه أخطاء فى النسخ لكن مع هذا ما كان يصح أن يتدخل ويغير الحجاج .

ولا يكتفى العشماوى بهذا التشكك فى سلامة اللفظ القرآنى فيمضى على هذا الدرب الذى اخترعه مدعياً أن القـــرآن الذى بيدنا الآن والذى اجتمعت عليه الأمـــة بدعـــواه الظالمة (ما زالت توجد به حتى الآن بعض الأخطاء النحوية واللغوية) .

ويزعم العشماوى اكتشافه لأخطاء نحوية لغوية فى القرآن الكريم لم يكتشفها علماء الإسلام والعربية القدماء منهم والمحدثون مع أنه لو قرأ كتاباً فى نحو العربية ـــ ولا نقول فى تفسير القرآن ـــ مما يدرس فى المعاهد الإعدادية الأزهرية لعلم وجه إعراب هذه الألفاظ .

ولو أن العشماوى قد جهل ذلك كله لكان أمره واقفاً عند جريمة الخوض فى كتاب الله بغير علم ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ . [الأنعام ١٤٤] .

ولكن حرم الرجل يتعدى (الجهل) إلى سوء القصد بدليل أنه قد قرأ المصادر التى أوردت هذه التفسيرات ومنها (الجامع لأحكام القرآن للقرطبى) بل لقد رجع العشماوى وهو يفترى عل القرآن هذه الافتراءات إلى (الموسوعة القرآنية) ولكنه وهذا هو الشاهد على سوء القصد ـــ سكت عن تفنيد صاحب هذه الموسوعة لكل الشبهات واحدة واحدة ، وهو التفنيد الذى ختمه صاحب الموسوعة .

(هذه هى الأحرف التى يروى أن الحجاج غيرها فى مصحف عثمان) .

قرأ العشماوى جميع تلك النصوص بما فيه قول صاحب الموسوعة القرآنية بعد البرهنة العلمية (وإذن فلا تغيير للحجاج فى كتاب الله) لكنه لم يناقشه بل ولم يشر إليه ووقف عند حدود التشكيك فى سلامة حفظ النص القرآنى وهو ما يؤكد سوء القصد الذى بلغ بالرجل مبلغاً غير مسبوق .

ثالثاً : تقديم الرسول ﷺ فى صورة جاهلية :

يقول الدكتور محمد عمارة : جعل الإسلام من (عصمة الرسول ﷺ) عقيدة من العقائد المعلومة من الدين بالضرورة والتى لا يكتمل إيمان المؤمن إن هو جحدها لأن على العصمة يتوقف صدق التبليغ عن الله تبارك وتعالى والثقة بما يدعو إليه الرسل والأنبياء فهى من أصول الاعتقاد بل وعليها تتأسس أصول الدين وعقائده .

وقد أكد العلماء بأن عصمة الرسل فى التبليغ أصل من أصول الإسلام شهد به الكتاب وأيدته السنة وأجمعت عليه الأمة ذلك الأصل الذى اعتمدت عليه الأديان .

هذه العصمة التى هى أصل أجمع على وجوده أهل الملل والشرائع والذى لا يخفى على أحد من أهل النظرة فى الدين يذكره المستشار العشماوى فيقول : إن القرآن الكريم لم يعتبر الدين معصوماً بل ويذهب إلى تسفيه الاعتقاد فى عصمة الأنبياء بادعاء أن هذا دخيل على الإسلام من النصرانية إذ دخلت فكرة عصمة الأنبياء إلى الفكر الإسلامى نقلاً من الفكر المسيحى الذى يؤمن بأن المسيح أقنوم (صورة)لله وأنه لذلك لا يمكن أن يخطىءلأنه معصوم بطبيعته من الوقوع فى الخطأ .

فالرجل يجحد عقيدة اجتمعت عليها كل الشرائع والملل وتأسست عليها الثقة فى كل عقائد الدين ويرجعها إلى فكر نصرانى دخيل ، على أن هناك ظاهرة لست أدرى سببها فى فكر المستشار عشماوى وهى ظاهرة قول الشىء ونقيضه وأحياناً فى الكتاب الواحد نفسه والتى قد تعود إلى غيبة وعيه عنه وهو يكتب أحياناً أو إلى خلط وتخليط وتلفيق بين ما يختلقه من ادعاءات أو إلى الدوافع التى قد تكون ــ والله أعلم ــ وراء حرصه المريب والشديد على ادعاء أن الخمر غير محرمة فى الإسلام ، كذلك يسعى المستشار عشماوى إلى التشكيك فى كمال واكتمال تبليغ الرسول ﷺ ما أوحى إليه من ربه فيوهم قارئه بأن

محمداً ﷺ ومن قبله عيسى عليه السلام قد عرفا من وحى السماء ما لم يستطيعا إبلاغه إلى الناس .

ومفروض أن المستشار العشماوى قد قرأ قول الله تبارك وتعالى :

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ [البقرة ١٥٩] .

ــ ومن تجاوزاته ادعاؤه أن وثيقة (دولة المدينة ـ الصحيفة) التى وضعها الرسول ﷺ للدولة الجديدة منظمة ومحددة يصفها المستشار بأنها وثيقة شبه جاهلية وليست إسلامية ومعنى هذا أنه يتفوق على كل أعداء الرسول ﷺ ويصف عمل النبى ﷺ ـ الذى أخرج الناس من شرك الجاهلية وحكمها ـ بأنه شبه جاهلى لا أثر فيه للقرآن ولا للإسلام ولا لتعاليمهما . ولقد دفعنى الظن بأن الرجل ربما كان ناقلاً لهذا القول الشاذ عن بعض مراجعه ــ خاصة كتاب اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية للكاتب اليهودى الصهيونى (إسرائيل ولفنسون) فلما رجعت إلى المرجع لم أجد أثراً لهذا الافتراء وهكذا تفوق « محمد العشماوى » على إسرائيل فى الافتراء على رسول الله ﷺ وانفرد بما لم يسبقه إليه حتى المشركون .

ويمضى العشماوى فيزعم أن الإسلام قد تحول إلى اتجاه عسكرى منذ غزوة خيبر (عام ١٧)ثم يعلن انحيازه إلى يهود خيبر ودفاعه عنهم كمظلومين ــ ضد الظلم الذى يتمثل فى غزو الرسول ﷺ والمؤمنين لهم دون ذنب ارتكبوه لأن هؤلاء اليهود بعبارة العشماوى ــ لم يكونوا من المشركين كما أنهم لم يكونوا قد أساءوا إلى النبى ﷺ أو إلى الإسلام بشىء ، فعل هذا بينما إسرائيل ولفنسون فى كتابه تاريخ اليهود فى بلاد العرب ينصف الإسلام ورسوله ﷺ وأمته فى قتالهم يهود خيبر ويعدد الأسباب التى جعلت المسلمين يقاتلون هؤلاء اليهود متجاهلاً أن هؤلاء القادة اليهود الذين دانت لهم خيبر قد سعوا إلى مشركى مكة يؤلبونهم على حرب رسول الله ﷺ والمسلمين ويعدونهم بالمؤازرة ثم سعوا إلى غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه .

ويقول إسرائيل ولفنسون : إن اليهود ما كان ينبغى لهم ـ وهم أهل توحيد ـ أن يصرحوا أمام زعماء الشرك بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى .

وهكذا يرى إسرائيل ولفنسون فى غزو المسلمين لخيبر قصاصاً ويراه محمد سعيد العشماوى ظلماً من الرسول ﷺ والمسلمين ليهود خيبر .

رابعاً : هل كانت الخلافة الإسلامية كهانة مقدسة :

يقول الدكتور محمد عمارة: إن الخلافة الإسلامية نظام جامع بين الله والأمة ودولة الخلافة وبذلك يتميز نظام الخلافة الإسلامية عن النظامين اللذين عرفتهما الحضارة الغربية للدولة ، **فأحدهما** وهو الذى ادعى أصحابه الحكم بالتفويض والحـــق الإلهى وقد قام على (الله ـــ الدولة) ولا ذكر فيه ولا سلطان للأمة .

وثانيهما : هو النظام العلمانى وقد قام على (الأمة ـــ الدولة) .

ولا ذكر فيه ولا سيادة لحدود الله وشريعته فى تدبير سياسة الاجتماع البشرى والعمران الإنسانى ، فالخلافة الإسلامية هى النظـــام المدنى الذى تلتزم دولته بسيادة الشريعة (الله) وسلطة الأمة (الإنسان) متميزة عن دولة الكهانة التى غلبت فيها سلطة الأمة وعن دولة العلمانية التى تحررت من الشريعة وانفلتت من حدود الله .

أما المستشار عشماوى فإنه يزعم مالم يزعمه أحد من قبل: وهو أن الخلافة الإسلامية منذ نشأتها فى العهد الراشد وعلى يد أبى بكر الصديق رضى الله عنه كانت سلطة دينية وكهانة وحكماً بالحق الإلهى .وأن الخلفاء كانوا معصومين ومقدسين وأنها قد استمرت كذلك حتى ألغاها أتاتورك سنة ١٩٢٤ ، فالكهانة والخلط بين ما لله وما للناس واغتصاب حقوق النبىﷺ من قبل الخلفاء وادعاء أن الخلافة عن الله وليست عن الناس ، كل هذا الانحراف عن الإسلام والانقلاب على مبادئه . يدعى العشماوى أن أبا بكر رضى الله عنه هو صانعه وأنه قد بدأ مع بداية الخلافة ثم غدا لزيم وقسيم كل فكر سياسى فى الإسلام .

ويقول : إن الخلافة الأموية كانت قيصرية كسروية حكم الخلفاء فيها بدعوى خلافة الله أو الحق الإلهى المقدس فى الحكم .

وتؤكد المصادر التاريخية خلاف ذلك وأن تولى الخلافة كان عن طريق الاختيار والشورى والبيعة وليس الحكم بالاستخلاف الإلهى المباشر وبالحق الإلهى . وهكذا لم تكن الخلافة الإسلامية كهانة ولكنها كانت بيعة شورية .

وهكذا نجد أن مفاهيم كل القضايا التى طرحها المستشار العشماوى كانت مستمدة

من كتب الاستشراق واليهود وأنها كانت ترمى إلى نقل هذه السموم إلى الفكر الإسلامى على يد كاتب عربى قد جانبه التوفيق حين ذهب إلى حد إنكار حقائق الإسلام الأساسية ومهاجمته للقرآن الكريم وللرسول الكريم ﷺ فى سبيل هدم حقائق أساسية قام عليها الإسلام وأهمها الوحى والغيب وإثارة الشبهة حول وحدة المسلمين الجامعة ممثلة فى الخلافة فى سبيل معارضة الحقائق التى قدمتها كتب الفقه وما كتبه الدكتور السنهورى فى أطروحته المعروفة ، ولا ريب أن هذا طور جديد فى فكر الغزو الثقافى الذى بدأه الدكتور طه حسين وتطور فى كتابات خلف الله وعلى عبد الرازق إلى الحد الذى وصل إليه فى كتابات المستشار العشماوى الذى كان يعد نفسه فى الأساس إلى تدمير كل حصون الإسلام الثابتة سواء فى النبوة أو الوحى أو الخلافة أو تاريخ الإسلام والخلفاء استمداداً من كتب كثيرة كتبها الزنادقة والمستشرقون والعلمانيون وبالأخص كتابات دعاة الفكر الباطنى ولهم تاريخهم منذ ترجمة الفلسفة اليونانية وما أدخلوه من مفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد ومفاهيم رسائل إخوان الصفا التى كتبها زعماء القرامطة والمزدكية والمانوية وخبراء الغنوصى وما يتصل بتعدد الآلهة وغيرها .

وليس بغريب أن يظهر هذا الرعيل من الكتاب الذين جمعوا بين العلمانية والماركسية فى إطار الباطنية القديمة لا ينفصل عنهم أمثال أدونيس وأركون وجماعة الفرنكفون كل هذه المجموعات تهدف أساساً إلى خدمة الصهيونية .

وقد شهدت كل لجان الفحص لكتابات المستشار العشماوى على انحراف هذا الفكر وأن هذه الكتابات تتناول بكثير من السقط والغلو تاريخ الصحابة رضى الله عنهم .

فهو يركز على المساوىء والأخبار السيئة ويضخمها وهذا اتجاه العلمانيين عادة وأن كتاب « الخلافة الإسلامية » يعد تحريفاً للتاريخ وتجنياً على الصحابة رضى الله عنهم وتبنياً للروايات الضعيفة وهو يتضمن مطاعن مرفوضة فى القرآن الكريم والرسول ﷺ والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم إلى جانب اهتمامه بالفتن دون تمحيص بما يوحى بأنه يريد إعادة الفتنة .



حسين أحمد أمين

إن المفارقة التى غفل عنها هؤلاء الكتاب ، هو عجزهم عن التفريق بين دين ودين ، فالأديان كلها من عند الله تبارك وتعالى ولكنها اختلفت بالنسبة لفوارق الأزمنة والأمم .

ثم جاء الإسلام خاتماً للأديان بالدعوة العالمية لكل البشر ، فكان لابد أن يختلف فى منهجه اختلافاً واضحاً بمفهوم أن البشرية قد وصلت إلى درجة تستطيع معها أن تستوعب مفهوم الدين الكامل الجامع .. هذا ما عرفه المسلمون منذ اليوم الأول وإلى الآن وإلى يوم الدين ، ولكن الذين يتصدرون للدعوة إلى التنوير والتجديد لا يقايسون الأمور بمقاييسها الحقيقية ، وإنما هم ينقلون لنا موقف الغرب التاريخى بالنسبة للمسيحية المنزلة بعد أن انحرفت عن مفهومها الربانى الأصيل وبعد أن انتقلت إلى الغرب وانتقلت أساساً من دين سماوى مرتبط بالتوراة وجاء لبنى إسرائيل وحدهم ، هكذا جاءت رسالة عيسى عليه السلام لتصحيح موقف بنى إسرائيل من الغلو فى المادة وتعنى بأن تقيم لهم منهجاً ربانياً يربط بين الروح والمادة .

وقد كان من أخطر ما قام به الاستشراق والتبشير والمناهج التى حاول الغربيون فرضها على المسلمين أن يقدموا لهم صورة الصراع الذى قام بين الغرب الوثنى (الذى شكلته الفلسفة اليونانية المادية ، وبين الدين المسيحى وكيف وقع الصراع الشديد بين العلماء ورجال الدين ، ومن هنا ظهرت تلك المحاولات الخطيرة التى تحاول أن تنقل إلى أفق الإسلام مفاهيم غريبة تماماً ولا تصلح للحقل الإسلامى ، وقد حمل لواء هذه المحاولات الغريبة عن أفق الإسلام مجموعة من العلمانيين والماركسيين حيث ربطوا بين هذه المدارس والمفاهيم وبين الإسلام ، فحملت مفاهيم يهودية ومفاهيم مسيحية ومفاهيم ماركسية ومفاهيم وثنية ومفاهيم التلمود والبروتوكولات ، وما اتصل بذلك من خلافات وصراعات أدت بهم إلى الدعوة إلى تطوير مفاهيم العقيدة والثقافة بما يتفق مع متغيرات العصر فى فتح الباب إلى تغيير شامل لكل الثوابت والقيم خاصة القيم الأخلاقية والفصل الكامل بين المادة والروح ، وبين الثوابت والمتغيرات .

والمعروف أنه كان وراء ذلك التحول الخطير فى الفكر الغربى نتيجة لمحاولات الصهيونية التلمودية فى تدمير قيم المسيحية كدين ، وعقيدة ، ويمكن القول بأن هذه المحاولات قد تجمعت فى مؤامرة خطيرة إلى طرح هذه السموم فى أفق الإسلام السمح اليسير الذى قام منذ أربعة عشر قرناً على ثوابت العقيدة والوحى والغيب مع وجود الدعوة إلى التغيير فيما يتعلق بكل متعلقات الحياة والمجتمع مع بقاء مفاهيم العقيدة ثابتة تماماً .

ولقد حاول التغريبيون على مدى العقود الماضية الاقتراب من (الثوابت) ممثلة فى القرآن والسنة والوحى والغيب من بعيد فى محاولات خطيرة ضربت فى مواقعها على النحو الذى كتبه طه حسين وسلامة موسى وعلي عبد الرازق وخلف الله وكثيرون حاولوا الدعوة إلى بشرية القرآن والتشكيك فى الحديث النبوى وتزييف وقائع التاريخ الإسلامى حتى جاء اليوم الذى يتصدى مثل حسين أحمد أمين إلى تجديد الحديث عن ما يسمى (تطوير العقائد الدينية) وكان المصدر الأول لذلك هو ما كتبه هـ.ج ويلز ونقله سلامة موسى ، وكان يقصد المسيحية فى ذلك أساساً .

ثم جاء اليوم حسين أحمد أمين إلى إعادة ترديد ذلك بالنسبة للإسلام وقد تصدى له الدكتور محمد عمارة لدحض مفهومه الخاطىء حين يقول :

(إن المفاهيم والمعتقدات والقيم فى أى دين لا تبقى أبداً على حالها ، وإن إعادة تفسير العقيدة فى ضوء التغيرات المستمرة من أجل مجابهتها مجابهة إيجابية أمر لا غنى عنه إن نحن أردنا لهذه العقيدة البقاء) .

ولا شك أن دعوة حسين أحمد أمين إلى مثل هذا العمل يخرجه تماماً من زمرة المفكرين الأصلاء لأنه إما أنه يجهل الإسلام تماماً وإما أنه يزيف للناس دعوة باطلة تسقطه تماماً من عداد المفكرين الأصلاء ، فهو يجهل أو يتجاهل ما يتصل بثوابت الإسلام التى تتعلق بالعقيدة والتى لا يمكن الاقتراب منها أو مسها .

يقول الدكتور محمد عمارة : أخشى أن أقول : إن مثل هذا (الفكر) هو أقرب إلى الهزل منه إلى الجد وأقرب إلى خفة العقل أيضاً منه إلى ما تعارف الكافة على تسميته بالفكر فضلاً عن الاجتهاد .

وبعد الافتراء على (الواقع) يأتى دور الافتراء على التاريخ فيزعم أن المسلمين الأوائل

قد أبدوا همة عظيمة فى سبيل تطوير العقيدة والشريعة والمفاهيم الإسلامية ، ولم يقل لنا كيف طور المسلمون العقيدة والشريعة ، واجتهدوا فى ذلك وهى قد جاءت فى نصوص قطعية الدلالة والثبوت ، كما قرروا أنه لا يجوز معها الاجتهاد ، وما الصور التى طوروا عليها عقائد التوحيد والألوهية والنبوة والرسالة والقدر والغيب والملائكة والصور التى تطورت إليها الشريعة كفلسفة للفقه والقانون وكحدود ثابتة وكقواعد للجزاء .

ألم يحدث إجماع الآن على أن الاجتهاد والنمو والتطور إنما هو فى الفروع وعلومها والنظم والآليات والمؤسسات لا فى الأصول والثوابت والقيم والأركان ، لم يسأل نفسه شيئاً من ذلك ولو جمع إلى أن (التدبر) ما هو ضرورى من (عدالة العلماء) لما خاض فى هذا الميدان على هذا النحو غير المسبوق فى تناول عقائد وثوابت الإسلام وهو التناول الذى حمل حجة الإسلام الغزالى أن يجعل عنوان أحد كتبه : (إلجام العوام عن علم الكلام) لكنه النموذج الهزلى المفتقر إلى العدالة لتلاميذ التنوير الغربى العلمانى عندما يعيب بثوابت المقدسات .

ويقول الأستاذ منذر الأسعد فى الرد على افتراءات حسين أحمد أمين : اتخذ نفس منهج أساتذته من المستشرقين والعلمانيين ويقوم هذا المنهج على التشكيك فى أحكام الإسلام الواضحة بغية الاصطدام بالرفض الشامل والحاد أحياناً لتلك الافتراءات ، وقد وجد الكاتب من يغذى هذا الطموح من الإعلاميين اليساريين والعلمانيين أطلقت عليهم لقب الكاتب اللاإسلامى فهو كاتب يبحث عن الشهرة وقد تصدى له الكثيرون لكشف افتراءاته.

ويقول الدكتور محمد عمارة : إنه سأل حسين أحمد أمين عندما أورد الحديث المكذوب عن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ لمصلحة من تنزع سلاح الأمة وهى فى حالة حرب ؟ . فقال : أنا أريد أن أشكك فى كل شىء .

ويرى الأستاذ السيد الغضبان : أن اختيار حسين أحمد أمين للهجوم على الإسلام ليس مصادفة ، إنه اختيار مقصود ليهاجم الإسلام والمسلمين من موقع رفع أحد أفراده يوماً راية إسلامية (باعتباره ابن أحمد أمين) .

وقد كتب حسين أحمد أمين عن تطبيق الشريعة الإسلامية ، فى مجلة المصور وامتلأت المقالات بالمغالطات الفاضحة الفادحة وانتقاء حوادث متفرقة من التاريخ الإسلامى فى أخطر صوره ليجعلها حجة على دعوى (فساد الإسلام) وانطلق القلم المسعور ينهش

فى جسد الإسلام والمسلمين وسط مظاهرة صحفية وكتب الكثيرون ردوداً ، ولكن المسئولين عن (المصور) لم يرفضوا فقط إعطاء الفرصة المتكافئة فى النشر للرأيين المختلفين فى نفس المكان بل ضاقوا حتى بنشر الردود فى زوايا بريد القراء ، ثم توقفوا عن النشر عندما أدركوا بوضوح أن ما وصلهم من ردود يكشف تفاهة وجهل الكاتب الملاكى للمصور (يقصد حسين أحمد أمين) وحرض المسئولون بالمصور كاتبهم ليطور هجومه فيسب كل الرموز الإسلامية ، أمثال سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - وعمر بن عبد العزيز ، ولا يتورع أن يصفهم بالجهل والحمق .

ومع تصاعد هذه الحملة الغريبة بدأ صبر كثير من المسلمين ينفد ورأى المسئولون فى المصور بوادر نذر غاضبة توشك أن تهب عليهم من مؤسسات إسلامية فتوقف الكاتب عن الكتابة عن الإسلام وتحول لكتابة ذكريات عن والده .

ثم عاد الكاتب (حسين أحمد أمين) مرة أخرى إلى الهجوم على الإسلام ولكنه اختار فى هذه المرة أن يتناول الإسلام بالسخرية وأن يحقر المسلمين بسيل من الأساليب الساخرة عن كل شىء فى الإسلام وهبط هذا الكاتب إلى أحط درك وهو يسخر من الإسلام بوضع آيات من القرآن الكريم فى سياق هذه السخرية ، وهلل المسئولون بالمصور لهذا المقال الجريمة فجعلوا عنوانه على غلاف المصور وأفردوا خمس صفحات كاملة لهذا السيل من السخرية بالإسلام وتحقير المسلمين .

يبقى بعد ذلك موقف المسئولين عن مجلة المصور فلا يمكن أن نتصور أن هذه المسئولية تعطى الحق المطلق لتسخر مجلة يملكها شعب مصر وأغلبيته الغالبة من المسلمين للنيل من الإسلام وتحقير المسلمين إذا كان هو رأى السيد / مكرم محمد أحمد فليكتبه فى أى مجلة يملكها من يؤمن مثله بالسخرية من الإسلام وتحقير المسلمين ، وإذا كان السيد مكرم يتصور أن دوره السياسى يمكن أن يكون حصناً منيعاً ينطلق منه للتهجم على الإسلام والسخرية منه ، فهو واهم خاصة وقد بلغت السخرية من الإسلام حداً يستثير أكثر المسلمين حلماً . [٧ أكتوبر ١٩٨٦ - جريدة الشعب]

* * *

فرج فودة

يتحدث الأستاذ كمال خالد المحامى عن الرجل الذى طبق اسمه وطبقت شهرته المشارق والمغارب (فرج فودة) فيقول :

عرفته فى فترة حماسه الشديد لتشكيل حزب الوفد الجديد (فبراير ١٩٧٨) ولم تكن قد ظهرت عليه بعد أعراض هذا العداء الشديد لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية .

إنه مواطن مصرى عاد إلى مصر بعد طول غياب فى الخارج متعجلاً قيام الحزب فى لهفة وحماس شديدين .

قبل عودة الحزب إلى استئناف نشاطه فى أغسطس ١٩٨٣ أصدر كتابه (الوفد والمستقبل) وتولى فؤاد سراج الدين بنفسه مهمة توزيع كمية كبيرة منه على قيادات الوفد الجديد .

كان انزعاجى الشديد عندما قرأت هذا الكتاب ووصلت إلى الصفحات الأخيرة التى أخذ المؤلف يلف ويدور إذ كشف ـ وبكل وضوح ـ عن أن حزب الوفد الجديد تفرضه ضرورة حضارية هى التصدى للحزب السياسى المنظم والقوى الوحيد فى الساحة المصرية الآن ، وهو على حد تعبيره الحزب الدينى الإسلامى بكافة اتجاهاته وقال ص (١٠٦) : (سوف يكون الصراع حتى نهاية هذا القرن فى مصر بين الوفد والاتجاه السياسى الدينى المتطرف ، وسوف يكون لكل منهم قواعده الشعبية وسوف يلتف حول الوفد جميع المؤمنين بالديمقراطية والوحدة الوطنية أفراداً وأحزاباً ، وعلى ضوء هذا الصراع سوف يتحدد المستقبل: الانتماء للمستقبل أم للماضى ، الديمقراطية أم الإرهاب ، الليبرالية أم القهر ، الانتماء للعصر أم للتاريخ ، مصر أولاً أو العقيدة أولاً .

ثم يحدد النشيد الذى كان يردده المتهمون فى قضية اغتيال السادات :

فى سبيل الله قمنا   نبتغى رفع اللواء
لا لحزب قد عملنا   نحن للدين فداء

ويقول : ولنذكر معاً ذلك النشيد الذى ألفه خالد الإسلامبولى خلال محاكمته فى قضية اغتيال السادات :

لا من أجل وطن خرجنا ، ولا من أجل أرض قاتلنا : نحن جند الله

لم يكن هذا نشيداً بل ناقوس خطر ، إن هذا الناقوس يجب أن يتنبه له الجميع ،

ويجب أن يدركوا أن الحزب الوحيد المؤهل لقيادة هذا الصراع لمصلحة التقدم وهو الوفد بكل قواعده الشعبية) .

يقول كمال خالد بعد قراءة هذا الكتاب : انتابنى شعور قوى بالشك والارتياب فى مؤلفه ورسخ فى ذهنى أنه لا بد وأن يكون إما مدفوعاً لوضع قنبلة زمنية لنسف الوفد من داخله ، أو ملحداً من ألد أعداء الشرائع السماوية ، أو ماسونياً ممن لقنوا دروساً فى الخارج فى فن محاربة الاتجاهات والتيارات الدينية وانطلقوا لينشروا فى مشارق الأرض ومغاربها ، يشنون حرباً ضروساً على الاتجاه الإسلامى فى كل مكان .

تلك الحرب التى يخطط لها ويمولها بسخاء شديد (تحالف دولى خطير من الدول الكبيرة فى الشرق والغرب) . والتى اجتمعت على مقاومة الشرائع السماوية بوجه عام والإسلام بوجه خاص ، على الرغم من أنها دول متصارعة متنافرة ، ولكنها لم تتفق ولم توحد كلمتها إلا فى هذا العداء التقليدى لنداء الشعوب بتطبيق أحكام الشريعة الغراء والحق أقول إننى عندما صارحت الأستاذ فؤاد سراج الدين بخطورة هذا الكتاب على شعبية الوفد بين الجماهير وعتبت عليه تشجيع نشره وتوزيعه ، فوجئت باندهاشه الشديد لما ذكرته من مضمون الكتاب وأبدى امتعاضه لهذه الفقرات .

وكان موقف ـ فرج فودة ـ مع حزب الوفد قد انكشف وعرف الجميع أنه تابع لجهات تريد أن توقع الخلاف والفتنة بين أعضاء الوفد .

قال محمد الحيوان : إن الدكتور فرج فودة لن تعوزه الشجاعة بالإعلان أن برنامجه السياسى مختصر فى نقطة واحدة هى (عدم تطبيق الشريعة الإسلامية) بما يعنى إطلاق حرية السكارى والزناة .

وقد أعلن فرج فودة فى كتابه الوفد والمستقبل : أنه يؤمن بأن رفع الشعارات الدينية هى المدخل السهل لأى حزب لاجتذاب مشاعر البسطاء والذين يرفعون هذه الشعارات تحت مسميات سياسية فى محاولة لكسب سياسى سريع لا يدركون أن هذا يمثل مدخلاً أسهل إلى تفكك الوحدة الوطنية فى البلاد وإلى الإرهاب الفكرى للمواطنين » .

فهى حقيقة يلتزم بها فرج فودة بما يرفعه من شعارات تندرج تحت مبدأ الفصل بين الدين والسياسة ، وهو على حد قوله « **التفسير الدقيق لشعار العلمانية الذى ينادى به** ».

ولقد أثبتت أول تجربة خاضها الدكتور فرج فودة عدم التزامه بشىء من ذلك بل على

النقيض فقد كان أول وأكثر من تاجر بالدين وأقحمه إقحاماً بالغ السذاجة فى معركته الانتخابية التى خاضها فى انتخابات مجلس الشعب الأخيرة ١٩٨٧ إذ لجأ إلى ترشيح نفسه فى دائرة شبرا التى يكثر فيها عدد النصارى بالنسبة لبقية الأحياء الأخرى تاركاً دائرته الانتخابية التى يقيم بها ويعمل فيها بمصر الجديدة وشد الرحال إلى شبرا رافعاً هذا الشعار بالنص (الله أكبر ، الله محبة) وكلاهما شعار دينى اتخذه على حد تعبيره المدخل السهل لاجتذاب مشاعر البسطاء ، وقد وصف هو نفسه الذين يرفعون هذه الشعارات تحت مسميات سياسية فى محاولة لكسب سياسى سريع بأنهم لا يدركون أن هذا يمثل مدخلاً أسهل إلى تفكك الوحدة الوطنية .

فهل كان الدكتور فرج فودة لا يدرك هو أيضاً أن لجوءه لدائرة شبرا سعياً وراء أصوات النصارى ليجنى ثمرة رفضه لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية يمثل مدخلاً سهلاً إلى بث الفرقة وتفكك الوحدة الوطنية وإشعال نار الفتنة الطائفية ؟ .

ومما لا شك فيه أن حيلته لم تنطل على معظم المواطنين غير المسلمين بدائرة شبرا ، وجاءت النتيجة مخيبة لآماله ، فهل أقلع عن هذا الطريق الوعر المحفوف بالمخاطر ، وهل استوعب الدرس ؟ .

إن الإجابة تقتضى الوقوف على تفاصيل الجولة التى قام بهذا صيف هذا العام ١٩٨٨ بالخارج ، وتفاصيل ما دار فى المؤتمرات والندوات التى عقدت له بالمحافل الكنسية والتى حاول أن يصور نفسه فيها على أنه حامى حمى النصارى فى مصر ، وقد علمت أن بعضهم قد أبت عليهم مصريتهم وكرامتهم إلا أن يرفضوا هذا الزعم وبادروا بكشف الأوراق وإفساد مفعول المحاولة .

وإذا كانت العلمانية قد نشأت فى الأصل لمقاومة نفوذ الكنيسة الذى تعاظم واشتد فى أوربا فى القرون الوسطى ، فهل العلمانية التى يرفع الدكتور فرج فودة اليوم لواءها والتى يؤكد أن تفسيرها الدقيق هو الفصل بين الدين والسياسة هى علمانية من نوع خاص وجديد يقترب من الكنيسة ويتزلف إليها ويتمسح بها يعرض عليها بضاعته ويبتعد عن المسجد وينفر منه ويتاجر بمحاداته ويتربص بشيوخه وعلمائه ويكشف عن عوراتهم ويتهكم عليهم ويسخر منهم ، وهذا فى يقينى أكبر ما يسىء إلى الدكتور فرج فودة ويهز صورته فى نظر الكنيسة قبل المسجد .

تناقض غريب يكشف عن وقائع وأحداث مادية ثابتة لا ينبغى أن ندهش لها أو نستغرب وقوعها فى هذا الزمان الذى سيطرت فيه المادية وارتفعت فيه شعارات بغيضة من أكبرها شيوعاً شعار : « اللى تغلب به العب به » وهو الموازى العصرى الحديث للمبدأ الميكيافيلى البغيض (الغاية تبرر الواسطة) فهل من عودة ياصديقى العزيز » أ . هـ

هذا هو نص المقال الذى كتبه الأستاذ كمال خالد المحامى فى مجلة « الاعتصام » يناير ١٩٨٩ تحت عنوان (الرجل العلمانى الذى اهتزت صورته فى الكنيسة قبل المسجد رغم المؤتمرات والندوات التى عقدت له فى المحافل الكنسية .

أصدرت ندوة العلماء بالأزهر بياناً تضمن رأيها فى تأسيس حزب المستقبل قالت : اعترضت لجنة العلماء فى بيانها على تأسيس حزب المستقبل فى أول سابقة من نوعها بعد قيام الأحزاب الستة فى مصر والتى تتولى لجنة الأحزاب السياسية دون غيرها البت فى قيامه من عدمه طبقاً للقانون .

حذر بيان لجنة العلماء من قيام حزب المستقبل الذى يؤسسه فرج فودة ، وقال البيان : إن الحزب يمثل خطراً على أمن الأمة واستقرارها ووصف أعضاء الحزب بأنهم أعداء لكل ماهو إسلامى ، وأن هدفهم المعلن هو عدم تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بدعوى تفوق القانون الوضعى ، إن أعضاء الحزب دأبوا على الهجوم على التاريخ الإسلامى والتطاول على بعض أصحاب النبى سيدنا محمد ﷺ وعلى الرموز الإسلامية وعلماء الأمة ، كما دأبوا على الهجوم على التيار الإسلامى واستعداء النظام وتحريضه على ضرب الأمة .

وقال بيان ندوة العلماء : إن الدولة الثيوقراطية أو الدولة الدينية لا يعرفها الإسلام ولا يطالب بها والعلمانية والإسلام نقيضان لا يجتمعان ، ومحاورة الدولة الدينية والدولة المدنية فيه مغالطة فلا هى الدولة الدينية فى الإسلام ولا هى الدولة العلمانية فى الفكر الغربى .

وأشار بعض الباحثين إلى أن حزب المستقبل يعمل فى هدفه المعلن :

أولا : على منع تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بدعوى تفوق القانون الوضعى .

ثانيا : الدأب على الهجوم على التاريخ الإسلامى والتطاول على بعض أصحاب النبى ﷺ وعلى الرموز الإسلامية وعلماء الأمة .

ثالثاً : الهجوم على التيار الإسلامى واستعداء النظام وتحريضه على ضرب الأمة .

والمعروف أن فرج فودة يستقى معلوماته عن التاريخ الإسلامى من « ألف ليلة » و « الأغانى » .

وكان فرج فودة قد أصدر كتاباً ضم إليه مجموعة أفكاره التى تتلخص فى المناداة بتنحية الدين عن قيادة الحياة وتضمن مجموعة من الأفكار المسمومة أهمها :

(١) إنكار كثير مما علم من الدين بالضرورة ، الأمر الذى يخرجه من جماعة المجتهدين إلى جماعات أخرى .

(٢) رفضه المطلق لتطبيق الشريعة الإسلامية بما يدعو إليه جهاراً من محاصرة كافة مظاهر الدين فى مختلف أجهزة الدولة .

(٣) تشويه أعلام الإسلام وتزييف تاريخه وتحريض الأمة بمختلف فعالياتها السياسية والفكرية على التنكر للإسلام (معتدلين ومتشددين) .

(٤) ما قدم من أفكار نشرها فى كتبه وبعض الصحف وعرضها من خلال وسائل الإعلام خرج بها على مقياس الاعتدال وخالف العرب وخالف القانون الذى حدد لمصر هويتها الإسلامية وضرورة المحافظة على القيم والأخلاق .

(٥) وأد الفكر المعارض له وتحريض الدولة على القضاء على أصحابه .

(٦) الدعوة إلى منع علماء الأمة من أداء واجبهم نحو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(٧) تشويه تاريخ الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة رضى الله عنهم واتهامهم بتهم لا يصح أن يتهم بها عامة الناس والتطاول على (ابن عباس) رضى الله عنهما واتهامه بالاستيلاء على أموال المسلمين بالباطل ، واتهامه للعشرة المبشرين بالجنة رضى الله عنهم ونقدهم نقداً لاذعاً .

فعل ذلك ليصل إلى إغلاق ملف الشريعة فيما يتصل بالدولة وسياسة الحكم .

(٨) وكان أخطر أعماله التركيز على موضوع الشريعة الإسلامية وتشويه صورة الإسلام ورموزه حتى إنه وصل إلى تأويل بعض آيات القرآن الكريم وإنكار الكثير من أحاديث النبى ﷺ الصحيحة والتأكيد على قصر العمل بكثير من أحكام الشريعة على عصر النبى ﷺ بمقولة باطلة أن الأوامر التى كانت تصدر من خلال القرآن كانت أوامر شخصية لا يطالب بها إلامن نزلت فى شأنهم أو قيلت فى حقهم .

(٩) يعتمد فى كتاباته على آراء وضعية روتها بعض كتب التاريخ وأثبت المتخصصون

أنها من المدسوسات على تاريخنا الإسلامى وألفت فيها كتب تدلل على تلفيقها وكذبها إلى حد أنه كان يستخلص من هذه الآراء الضعيفة والمردودة ما يدفعه إلى الهجوم على كبار الصحابة كأبى بكر وعثمان وعلى وابن عباس وغيرهم من كبار الصحابة رضى الله عنهم جميعاً الذين اتهمهم فى ذمتهم وشرفهم وأراد أن يمحو الحب والتقدير لأقرب الناس إلى رسول الله ﷺ وبخاصة العشرة المبشرين بالجنة رضى الله عنهم جميعاً الذين كان يتهكم عليهم تهكماً شديداً .

وقد وصل فرج فودة فى تشويه صورة الإسلام ورموزه إلى حد تأويل بعض آيات القرآن الكريم وإنكار الكثير من أحاديث النبى ﷺ الصحيحة والتأكيد على قصر العمل بكثير من أحكام الشريعة على عصر النبى ﷺ .

(١٠) كان يتهجم على الإسلام بصورة غاية فى الابتذال والوقاحة ونحن نعلم أن أى مسلم يرد آية واحدة من القرآن فإن ذلك يخرجه من ملة الإسلام .

هذا إلى سفاهات تتعدى على مقدسات ٥٠ مليون مصرى ويصف عقيدتهم بالرجعية والظلامية والإرهاب ولاشك أن السخرية والتهكم والكلمات اللاذعة لا تكون أبداً فى أسلوب كاتب يحترم نفسه.

ولم يكتف بمعارضة تطبيق الشريعة فى مصر وإنما يعارض تطبيقها فى أى بلد إسلامى.

(١١) يعلن فرج فودة تعاطفه مع المرتدين الذين حاربهم أبوبكر رضى الله عنه ويخطىء أبا بكر رضى الله عنه فى قتاله لمانعى الزكاة .

(١٢) كان يجالد بآرائه فى مقاومة تطبيق الشريعة وجعل هذا الاتجاه بضاعته بوضوح كامل مع الإخوة المسيحيين ومع الصهيونية والماسونية وأنه ذهب للجمعية المصرية القبطية فى كندا وأمريكا وأعطى ندوات فى الكنائس هناك .

وكان يرى أن إسرائيل لابد أن تصبح جزءاً من نسيج المنطقة وعنصراً من عناصر تكاملها.



فُؤَادزكَرِيَّا

يركز الدكتور فؤاد زكريا حملته على الإسلام والفكر الإسلامى فى ركائز أساسية هى :

(١) تقديس العقل .

(٢) إعلاء شأن الحضارة الغربية المادية .

(٣) الترويج للأفكار الوافدة .

ويرى فؤاد زكريا أن أبرز نواحى القصور فى حياتنا الفكرية هى:

(١) الجمود الفكرى الذى يؤدى إلى الاعتقاد بأن كل شىء ثابت ، ورفض فكرة (التغيير) التى أصبحت دعامة من دعامات الحياة المعاصرة .

(٢) الاعتقاد بأن القديم أفضل دائماً من الجديد .

وأن كل من سبق أعظم ، وأن المثل الأعلى فى الحياة والفكر والسلوك كان موجوداً فى الماضى بينما الحاضر يتدهور والمستقبل مجهول .

(٣) ندرة النزعة الاستقلالية التى تناقش كل شىء وتضعه تحت مجهر النقد ولايخشى من إعلان رأيه فيه والخضوع لكل أنواع السلطة .

(٤) الاعتقاد بأن الخطأ والظلم والانحراف هو الوضع الأصلى للأشياء والنظر بعين الريبة والشك إلى كل من يحرص على السير فى طريق مستقل .

وتؤكد كل هذه المفاهيم ولاء الدكتور فؤاد زكريا الواضح والصحيح للفكر الماسونى الماركسى المستمد من بروتوكولات صهيون وأساليب الماركسية .

هذه الفلسفة التى تقوم أساساً على تدمير (ثوابت الأديان) وحرب القيم خاصة القيم الأخلاقية وفرض التغيير المستمر هذا المفهوم الذى يهدف أساساً إلى حرب الدين وثوابت قيمه خاصة ما يتعلق بثوابت الإسلام .

فهو كما يقول يعمل على الدفاع عن حرية الفكر ضد الوحى السماوى وضد المذاهب التى تتصل بالروح والغيب .

ومن هنا نرى حديثه إلى تعصير الإسلام حيث لا يريد العلمانيون إدخال الدين فى تفاصيل الحياة ويرمون إلى عزله حيث جاء الإسلام شاملاً لكل أمور الحياة فهو دين ودولة ، وعقيدة وسلوك ومحاولة الفصل بينهما محاولة تعسفية .

والواقع أن الدكتور فؤاد زكريا لم يدرس إلا الفلسفة المادية والماركسية ، ووقف فى مجال المادية و لم يتمكن من أن يوسع نطاق ثقافته ليفهم آفاق الفكر الإسلامى الواسع المجالات خاصة فى نطاق الحق ومنهجه فى المعرفة .

بالإضافة إلى ذلك الحق الكامن فى الاتجاه العلمانى والماركسى والإنكار الكامن فى صميم النفس للوحى والقرآن .

ولما كان فؤاد زكريا يدرس للطلبة المسلمين مادة فلسفة العلوم فإنه عمل على تشكيك الطلاب فى عقيدتهم .

فقد قال إن الطب قادر على زيادة عمر الإنسان وإنقاصه ، فنهض مجموعة من الطلبة يردون على زعمه بأدلة علمية فقالوا له :

كيف يكون الطب قادراً على زيادة عمر الإنسان وإنقاصه والعلم لم يتوصل إلى يومنا هذا إلى إدراك تركيب الخلية التى تغير وحدة بناء الكائن الحى ، وعمر الإنسان قد قدره الله تبارك وتعالى ﴿ .. **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ [الأعراف : ٣٤] .

قالوا : ليست هذه هى المرة الأولى التى يتعرض فيها لعقيدتنا ، لقد كتب مقالاً مشهوراً فى الأهرام بعد حرب رمضان تحت عنوان : (معركتنا واللا معقول) تجرأ فيه على إنكار الغيبيات والطعن فى عقيدة الأمة التى ينتسب إليها ، وجزى الله الشيخ عبد الحميد كشك خيراً الذى رد عليه فى خطبة الجمعة .

وهكذا كان اتجاه فؤاد زكريا الممتد (على طريقة زكى نجيب محمود) .

أولاً : إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة والسخرية من الإيمان بالغيب الذى هو عقيدة طلبة الجامعة .

(**ثانياً**) مهاجمة علماء المسلمين ورميهم بالكذب .

وقد قيل له من المختصين : إن مادة فلسفة العلوم يجب ألا تخرج من التصورات الإسلامية ولا تتعارض مع أى حقيقة علمية ثابتة بالدليل المنطقى

ولقد دحض الكتاب الأصلاء دعوته إلى (تعصير الإسلام) ـ أى العصر ـ وقالوا هل يخضع الثابت للمتغير .. إن العصر يتغير بتغير الإنسان والزمان .

***

يدخل دكتور فؤاد زكريا فى جماعة الغزو المزدوج : الماركسية والعلمانية ذلك أنه عندما أحس التغريب أن تطبيق الشريعة أصبح مطلباً شعبياً واسع النطاق خرجت الثعابين من جحورها فكانت هذه المجموعة القاتلة المتصدرة للإسلام وقضاياه إنما تريد أن يقول إنه لا أمل مطلقاً فى قيام دعوة الله ولا تطبيق شريعته فهو يلتمس لها كل الأخطاء فى سبيل أن تهدم هذا الوجود الذى تكوّن ومضى فى طريق الصحوة الإسلامية .

فهى حرب لكل القيم ولكل عناصر الحياة من معالم التصحيح للخطأ الذى فرضه النفوذ الأجنبى أكثر من قرنين ومضى حتى ظن البعض اليوم أنه هو الحقيقة وأن ما تدعو له الصحوة غريب ومرفوض ، ولذلك فهم يركزون على البحث عن شبهات ومغامز وعن بعض المواقف المعترضة وهم لا يريدون لشىء ما أن يستمر أو يمتد ، فإذا تحدث الناس عن أسلمة العلوم والمناهج ثار زكى نجيب محمود وفؤاد زكريا وحسين أحمد أمين وغيرهم وحملوا المعاول ، وإذا تحدث المسلمون عن تلاقى العلوم الحديثة مع معجزة القرآن حمحموا وحملوا المعاول ، وهم يرون أن كل التجارب التى قدموها غير صالحة وأن أغلب التجارب سقطت وينسون ـ وهم رجال المنطق ـ أن كل تجربة لابد أن يصيبها الاضطراب ولابد من تعديل مسارها حتى تصل إلى الغاية .

إن الموجة الحالية برغم انتشارها الواسع ظاهرة دخيلة على التدين الأصيل وسوف لا يبقى إلا الأصيل ؛ ولابد من العودة إلى المنابع .

إن الصحوة الإسلامية مشروع متكامل هدفه إنقاذ الإنسان وبناء الحضارة والذين يحلمون بنهضة جديدة للإسلام ، ومن العجب أن يرى فؤاد ذكريا أن تطبيق الشريعة الذى دام أكثر من ثلاثة عشر قرناً فى مفهومه نكراناً لأصول الشريعة وخروجاً عليها .

لقد جمع الدكتور فؤاد زكريا ركامه المسموم وترجمه وأعطاه الغرب جائزة عالمية لهذا العام ورضي عنه الأوربيون لأنه هاجم الصحوة الإسلامية وهاجم أهل الأصالة الذين هاجموا الاستشراق .

ودافع عن التيار التغريبى المسموم وهلل له علمانى المبشرين فى مصر .

ماذا يقول فؤاد زكريا عن الفكر الإسلامى وهو يتناوله بميزانين مغلوطين : العلمانية والماركسية .

وذلك الصلف الشديد والاستكبار الشديد الذى تتميز به كتاباته .

وماذا يريد إلا أن يعبّد[1] الطريق لمفاهيم الاستشراق والتغريب فهو مضلل حيث يقول إن الإسلام لا يصلح إلا أن يكون (سنداً روحياً) لما ينقله من الغرب أى أن يكون مبرراً لفكر علمانى قائم على الإلحاد والإباحة وأنه يؤيد قبول المسلمين للعلوم الغربية بما تحمله من إنكار لله تبارك وتعالى ووحيه وهديه .

وما كان الإسلام يوماً ؛ ولن يكون إلى آخر الدهر خادماً للحضارات أو موالياً لها أو مبرراً لأخطائها وانحرافاتها .

ويردد الدكتور فؤاد زكريا عدة مقولات ترمى كلها إلى انتقاص الإسلام من خلال الحملة على التراث والتاريخ والماضى وهى حملة على مضمون الإسلام نفسه من خلال التركيز على عبارات مضللة كقوله إن الفكر العربى شديد التقيد بالماضى حتى يكاد يكون هذا الماضى بديلاً عن الحاضر مما يحول دون وجود القدرة على النظرة المستقبلية لدى المفكرين العرب بوجه عام .

وهذه الحملة التى تتخذ من الكلمات الغامضة سبيلاً إلى التنكر وراءها لتغطية كلمات أخرى هى الإسلام والقرآن والغيب والوحى ، ذلك لأن العلمانيين من كتاب الغرب أمثال فؤاد زكريا يتخفون وراء الكلمات .

ولكن هل هناك أمة من دول الغرب تنكرت لماضيها أو عقيدتها على النحو الذى يدعو ننا إليه ، ذلك أن الغرب حين أقام نهضته عاد إلى تراث الوثنية اليونانية فجعلها أساساً له وأحيا أساطيرها ومحرماتها ، أما المسلمون فإنهم حين أقاموا صحوتهم عادوا إلى إحياء ميراثهم الربانى المتمثل فى القرآن الكريم والسنة المطهرة وهو ميراث غير قابل للتجاوز وليس من صنع البشر حتى يكون مثل الفكر اليونانى وغيره مما صنع المفكرون الغربيون فى العصر الحديث من نظريات وأفكار عجزت عن التجاوب مع متغيرات العصور والبيئات بينما لا يزال

---

(١) أى يذلل ويمهد .

الإسلام قادراً على العطاء وما يزال الفكر البشرى يحاول اللحاق به فلا يستطيع .

فكيف يحاول الدكتور فؤاد زكريا وجماعته من العلمانيين والماركسيين أن يهاجموا الإسلام وفكره وتاريخه بدعوى أنه من الماضى أو التراث الذى يتحول مع متغيرات العصور .

ذلك لأن أمثال فؤاد زكريا لا يستطيع أن يتجاوز أهواءه فيرى أن هنا ك فارقاً واسعاً بين التراث وبين الميراث المتمثل فى القرآن والسنة والذى يحمل إلى البشرية القيم الثوابت من العقيدة التى تقوم على التوحيد الخالص والإيمان بالغيب والبعث ثم جاء التراث بعد ذلك من عمل العلماء والمصلحين لإضاءة الطريق إلى منهج الله تبارك وتعالى .

وعيبه أنه لم يستطع أن يفرق بين تراث المسلمين المستمد من القرآن والسنة والتراث الغربى المستمد من الفكر الوثنى والأساطير والذى يحمل عليه علماء التجريب اليوم لمخالفته للحقائق العقلية المتجددة .

ولا يزال هذا الفارق واضحاً بين الفكر الغربى وبين الفكر الإسلامى كما لم يزل مفهوم الإسلام الجامع بين الثوابت والمتغيرات غير واضح فى نفوس العلمانيين بالإضافة إلى مفهوم الإسلام الجامع بين الدين والدولة لا يفترقان .

وبعد فنحن المسلمين ننظر إلى المستقبل ونتطلع إليه دون أن يؤثر ذلك فى ثوابتنا التى نتطلق منها إلى بناء الجديد : ذلك أن لنا فى مجال صناعة المستقبل قيماً واضحة جامعة من المادة والروح وبين الماضى والحاضر ، فنحن نقر مفهوم المعرفة الجامع أما هم فيقيمون المعرفة على الحاضر وحده ، ومن ثم فقد فقدوا بذلك الحقيقة الأساسية الجامعة التى تربط الإسلام والفكر الإسلامى كله بالإيمان بالله تبارك وتعالى من خلال مفهوم التوحيد الخالص .

وليس صحيحاً ما يذهب إليه فؤاد زكريا وغيره من مقولة أن جذورنا الدينية هى السبب الحقيقى لعجزنا عن تحقيق التقدم ، ذلك أن جذورنا فى مجموعها جذور إسلامية جامعة (وليست جذوراً دينية) بمفهوم الفصل بين القيم؛ ولا ريب أن تأخر المسلمين عن الوصول إلى الغاية في بناء النهضة يرجع أساساً إلى المعوقات التى يضعها النفوذ الغربى الوافد والمسيطر على المجتمعات الإسلامية حين يحرم المسلمين من تطبيق منهجهم وشريعتهم الربانية مما يسمح بسيطرة مفاهيم الغرب التى تضع المسلمين فى مكان التبعية للغرب .

إن الماضى عندنا هو التراث وهو مستمد من الإسلام أساساً وليس صحيحًا أن قيمنا الإسلامية مستمدة من الخرافة أو الأساطير ولكنها تستمد منه الأصل الأصيل القائم فى كتاب الله تبارك وتعالى الذى أنزله لإعادة بناء البشرية بناءً جديداً .

من هنا نعرف أن فؤاد زكريا لم يكن صادقاً حين أطلق مقولته عن التراث إنه مصدر تخلفنا الفكرى .

ولنا أن نسأله : ماذا تعنى كلمة (التراث) عنده وهو الذى يفهم أن كلمة (الدين) تعنى اللاهوت .

ذلك أن للدين وللتراث فى الإسلام مفهوماً مختلفاً عن مفهوم الغرب الذى يتحدث عن الأساطير والخرافات .

لقد حاول صديقه زكى نجيب محمود أن يتحدث عن التراث الإسلامى فلم يجد أمامه غير مفاهيم المترجمات من اليونانية فأقام مفهوماً مضللاً قائماً على وحدة الوجود والحلول والاتحاد ومجموع ما عرفه اليونان من عبادة الآلهة وما حوته رسائل إخوان الصفا وما يتصل بالغنوص والعقول العشرة وغيرها .

إن نظرة فؤاد زكريا إلى التراث الإسلامى لا يمكن أن تحقق إنصافاً فهو ينظر إليه نظر الكاره الحاقد الذى ينتقص كل ما حول الإسلام ويعلى من شأن الفكر العلمانى والفكر الماركسى ويؤمن بأنه الطريق الوحيد للعرب والمسلمين إلى نهضة موهومة مضللة كاذبة لن تحدث أبداً .

تحدث كثيرون عن الموقف الخطير الذى يقفه فؤاد زكريا من فقهاء الإسلام بوصفهم الطليعة التى ظلت تتصدى لأعداء الأمة من الملاحدة والمنحرفين ، ولذلك فهى موضع الحرب الدائمة خاصة لقدرتهم على الجدل وكشف زيف محاولات التغريب الملتوية مع ألسنة المستشرقين ودعاة التغريب ، وهى مرتبطة هنا بحملتهم على الأزهر وعلى معاهد العلم الإسلامى ورميها بالجمود ودعوتها إلى تطوير مناهجها .

ويرمى فؤاد زكريا الفقهاء بأنهم أهل نقل لا أهل عقل وأنهم يحافظون على النص بعد تعقيله وتحديثه (التعقيل والتحديث) هو التأويل الذى يطمعون فيه حين يرون أن ثوابت الإسلام تقف فى وجههم حجر عثرة .

ولا ريب كان الفقهاء فى مقدمة من قاوموا نفوذ الاستعمار أولاً ثم نفوذ دعاة الغزو الثقافى ثانياً فى دأب لم يتوقف . وهم يكرهون موقف الفقهاء لمواجهتهم للفلسفات والكلام والتصوف الفلسفى دفاعاً عن صحيح العقيدة وضد البدع وعن الأصالة ضد التبعية لأنهم يتحصنون حصون الاعتزال والتصوف الفلسفى ليسددوا طلقاتهم إلى الإسلام .

ومن هنا كانت محاولاتهم إلى ما يسمى تطوير الإسلام بالدعوة إلى إخراجه عن الأصالة وإشاعة هذه الروح عن طريق إحياء الفلكلور والإغراق فى التصوف الفلسفى ويرون فى الدعوة إلى العودة الإسلامية التى حررت الشباب المسلم من المفهوم الكلامى أو الفلسفى أو التصوف الفلسفى خطراً شديداً وأنه مقدمة لعودة الإسلام الأصيل الذى يخشونه والذى عاشوا يحاربونه حين فرضوا أن الإسلام صلاة وصيام وحج واحتفال بالمولد النبوى ، والتوقف عن مناصحة الحكام أو الدعوة إلى شريعة الإسلام بالمحافظة على النص والاجتهاد ، فى مجال الفروع والعودة إلى المنابع مع ثبات الشريعة وتطور الفقه وتكامل الوجدان والعقل.

* * *

بين الدين والفلسفة

يقول فؤاد زكريا : الدين أياً كان ظاهرة اجتماعية نسجتها الأفكار البشرية بينما الفلسفة كالعلم حقيقة راسخة لا تبنى أحكامها إلا على ما يسمى المنطق الدقيق .

ويجيب الأستاذ محمد سعيد رمضان البوطى :

إن الإسلام ليس ظاهرة اجتماعية نسجتها الأفكار الإنسانية بل هو حقيقة موضوعية ذات وجود مستقل عن الإنسان ، وفكرة تتمثل فى الوحى الذى لا قبل للعقل الإنسانى بجلبه أو رده وليس له نحوه أكثر من دور التلقى ثم الوعى والفهم .

أما الفلسفة فليست مجموعة حقائق قائمة على المنطق بل هى فى أكثر ما انتهت إليه وحامت حوله معاناة فكرية أورثت أخيلة وتصورات تتعلق بمسائل عديدة لا يمكن لطبيعة العقل البشرى أن تستقل بالبقاء .

وستظل الفلسفة جملة محاولات للاقتحام بالعقل البشرى وراء المساحة المحدودة له حيث ظلام الغيب الخفى المتوارى وراء عمر الأزمنة والدهور أو وراء تلافيف المستقبل الغامض المجهول .

ويرجع خطأهم إلى أنهم لا يقيمون (منهج المعرفة الإنسانية) على قاعدته الأساسية ويكتفون بأن يقيموه على المنقول وحده ، وأمامنا المكانة التى أحرزتها الفلسفة المثالية والسمعة السيئة التى اكتسبتها الفلسفة المادية وكذلك الفلسفة الوضعية ذلك لأن المثالية ترتبط فى أذهان هؤلاء بالجوانب الروحية والمثل العليا فى حين أن المادية ترتبط بالسعى وراء الماديات.

وإن كان الإلحاد المادى ليس أكثر سوءاً من الإلحاد المثالى والحق أن كثيراً من الجزئيات التى اختلف الماديون فيها والمثاليون إنما جاءت من جانب الماديين ، وإن كانوا يجحدون بالخالق ، كذلك هناك فروق بين قانون الرؤية الإسلامية والرؤية الدينية الأخرى عند الغربيين .

يقول الدكتور فؤاد زكريا : الإسلام اقتحم خارج حدوده فى البحث فى الطبيعيات والكونيات وكان عليه أن يهتدى بهدى الفلسفة وأهلها الذين اعترفوا بعجزهم عن الخوض فى تلك الميادين فوقفوا عند حد ما يعرفون .

وهنا تتجه أصبع الاتهام إلى القرآن وأحكامه التقريرية فى الكونيات كالسماء والأرض والأفلاك والبحار والرياح اللواقح والسحب والأمطار واختزان الأرض للمياه .

إن محاولة التفسير العلمى للقرآن تزعج أمثال فؤاد زكريا إزعاجاً شديداً لأنهم يرونها باباً إلى إدخال الناس فى الإسلام ، فهو يطالب فقهاء النصوص الدينية أن يقطعوا صلة ما بين هذه النصوص ومعانيها الكونية بأى لون من ألوان التأويل أو التحوير حتى يوقفوا الدين عند حدوده ويبعدوه عما لا يدخل فى اختصاصه .

إن محاولة الدعوة إلى إبعاد الدين عما ليس من اختصاصه بمفهوم أن القرآن إنتاج عقلى بشرى ، وبذلك يصبح الإسلام مجموعاً إبداعاً إنشائياً وتراثاً عربياً خاضعاً لاحتمالات الواقع والخطأ والصواب ، فهم يرون أنه لا داعى للثورة عليه ولكن عليه أن يتخذ طريقه فى المجتمع إلى جانب الأديان الأخرى لكى يتم إبعاده عن السياسة والاقتصاد والعلم وأن يمتنع عن الخوض فيما ليس من شأنه .

يرجع هذا كله إلى مفهوم غربى خاطىء للإسلام مقارناً بالأديان الأخرى أو التى تغيرت عن وضعها الربانى .

يقول الأستاذ سعيد رمضان البوطى :

إنه الاعتقاد بأن الإسلام ديانة وضعية صنعتها عقول بشرية فهى تخضع لاحتمالات الخطأ والصواب والمعرفة والجهل ونحن نجزم بأن الإسلام حقيقة موضوعية ذات وجود مستقل عن فكر الإنسان يتمثل فى الوحى الإلهى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .

أما مقولته فهى تعنى إسلاماً ابتداعياً خاصاً قائمًا بذهنه هو ـ أى بذهن الدكتور فؤاد زكريا ـ وتصوره أن الإسلام كالأديان الأخرى نسيج فكر إنسانى وبأن الدنيا ليست إلا حقلاً للأفكار البشرية التى تخطىء وتصيب ومن ذلك إنكاره قول الله تبارك وتعالى :

﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾ [سورة فصلت : ٤٢] ومن ذلك إنكار إعطاء النص الدينى أى حاكمية أو سلطة فى شىء من ميادين الأحوال الشخصية أو السياسية أو الاقتصاد أو العلوم أو الاجتماع ويرى أن قبول هذه الحاكمية يناقض النزعة الإنسانية فى التراث الفلسفى .

ومن ذلك خطأ دعواه بأن الوحى لا يمكن أن يتنزل إلا على بشر من الناس ، وإذا انسكب الوحى فى الذات الإنسانية فإنه يفقد بذلك ذاتيته فى الكيان ويندمج فى الكيان الإنسانى بكل ما يتصف به من قصور وضعف وأهواء فيفقد الوحى بذلك عصمته وصلاحيته المطلقة ولا بد أن تقف عندئذ هيمنته وحاكميته ، وإذا كان العجز قد بلغ بهذا الإله إلى حيث لا يستطيع أن يبلغنا وحيه ويعلمنا مضمونه إلا ممزوجاً بشوائب بشرية مستهلكة وسط عوامل الضعف من العجز الإنسانى ، فأى قيمة تبقى إذن لألوهية هذا الإله وما هو الموجب للتقيد بحكمه والخضوع لسلطانه ! .

خطأ أن القول بأن تنزيل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم حتى امتزجت حقائقه فى بشريته وتعكر صفاؤه فى دورات ضعفه وعجزه الإنسانى فتحول ذلك الوحى الصافى إلى أفكاروصياغات بشرية غير منزهة عن الخطأ والصواب ، كل هذا تجاوز وخطأ من الذين يقولونه ولو كان الأمر كذلك لكان أولى الناس بالإعلان عنه هو محمد صلى الله عليه وسلم ، إنهم يقولون ذلك من أجل أن يخضعوا الدين للتنظير الفلسفى ، وأن يسير فى ركاب الفلسفة وطبق ما يخطه له ويرشده إليه وهذا كله وهم وضلال .

* * *

وأخيراً لقد خرس قلم الدكتور فؤاد زكريا وكان من أعتى الأقلام المسمومة تهجماً على الإسلام وقيم الدين عامة بعد أن انهارت النظرية الماركسية التى كانوا يحتضنونها ويحاولون أن يجعلوا منها منهج حياة للمسلمين ، كان قلمه رديئاً مسموماً حاقداً ينطلق من منطلق الكراهية للدين الحق ، وكان يجرى على طريق شيخهم فى الفلسفة زكى نجيب محمود على نحو تحس معه بأنه خليفته فى المذهب الفلسفى الإلحادى .

وخلال أكثر من خمسين سنة لم يتوقف زكى نجيب محمود فى الدعوة إلى نظريته المسمومة (الجبرية المنطقية) ، ولو أن رجلاً غربياً يهودياً أو نصرانياً أو شيوعياً أراد أن يسىء إلى الإسلام ما استطاع أن يفعل بأسوأ مما فعل الدكتور فؤاد زكريا الذى كانت كلماته تنضح بالحقد والكراهية والكيد لدين هو ابنه ، وهذا يعطينا أبعاد الخطر الخطير الذى وقعت فيه أمتنا حين احتوتها التيارات الوافدة فحملتها إلى تغيير معتقدها وشعورها ووجدانها على هذا النحو حتى يصبح أبناء الإسلام حرباً عليه على هذا النحو الذى رأيناه فى مقالاته التى نشرها فى الصحف ، فتراه حين يتناول النصوص الإسلامية يتناولها بازدراء شديد واستهانة كأنه يخشى أن يجرى على قلمه كلمة كأنما هى جراثيم ، إنه ليس كاتباً محايداً أو متمرداً بل له حقد خاص ، أليس هو الذى هاجم النصر فى رمضان وادعى ما ادعاه ؟ .

لقد توصل المسلمون إلى مفهوم الأصالة فى أمر الفلسفة على النحو الذى قدمه الشيخ مصطفى عبد الرازق بما يحفظ للمسلمين أصالتهم ويدفع عنهم تلك الأطروحات المضللة التى قدمها بعض الذين قالوا : إن أرسطو معلم العرب .

ويقرر ذلك المفهوم الجامع للمعرفة : بين العلم والوحى ، والعقل والقلب وصدر المسلمون فى هذا الفهم عن ميراثهم الأصيل وطريقهم الممتد منذ أربعة عشر قرناً .. وقد كشفوا عن فساد محاولة المشائين الإسلاميين فى احتواء المسلمين داخل دائرة الفكر اليونانى المترجم من أرسطو وأفلاطون .

ولقد كشف الإمام الغزالى عن خطأ تلك المحاولة التى قام بها الفارابى وابن سينا ثم ابن رشد والذى عرف من بعد أنها كانت من صنيع القرامطة وأتباعهم أصحاب رسائل إخوان الصفا .

ولقد كان من الضرورى أن يلتمس المسلمون أصالتهم ومنهجهم الربانى بعد أن ساروا

شوطاً كاملاً فى ظلمات التنوير الغربى والعلمانية والحداثة حيث لم يجدوا ما يحقق لهم شيئاً فكان عليهم أن يلتمسوا منهجهم ويعودوا إلى الأصالة وإلى المنابع .

لقد ذهبنا إلى آخر الشوط من فلسفة الغرب ومن فلسفة الماركسية وكانت التجربة ساقطة ، لأنها لم تكن تستمد خطوطها من الأصول التى تكون عليه الفكر الإسلامى خلال أربعة عشر قرناً ، وكان علينا أن نلتمس منهجاً وطريقاً وأن ندافع عن الأصالة والخصوصية الإسلامية ضد محاولات الغزو والتغريب والاحتواء وفى طريقنا هذا لا نؤمن بأن الثقافة عالمية لنكون أتباعاً لها ولا ننسى فى ذلك دورنا وعطاءنا الذى يتمثل فى العلوم التجريبية التى قدمها من خلال منهج الإسلام ومن أصول القرآن الكريم .

كانت الأصالة ضد التبعية هى حقيقة دورنا منذ اليوم وكان علينا الدفاع عن الأصيل ضد الدخيل وحماية العقيدة من الشرك وأن يظل مفهومنا للتوحيد الخالص والوحى والغيب كجزء أصيل من مفهوم المعرفة الجامع .

ومفهوم الأصالة الذى بناه حراس العقيدة لا يحبس العقيدة فى كهوف التخلف أو يحجب عنها نور العقل كما يدعون .



علماء الفرنكفون

عابد الجابرى

العودة إلى إحياء الفارابى وابن سينا بقيادة ابن رشد فى مواجهة الإمام الغزالى وأهل السنة جميعاً . كل هؤلاء :

(عابد الجابرى ، محمد أركون ، حسين مروة ؛ أدونيس ، حسن حنفى) يصدرون أساساً من منطلق واحد هو مدرسة الفلسفة اليونانية وإحياء مفاهيمها التى ارتبطت بالقرامطة والتيار الباطنى ومفاهيم رسائل إخوان الصفا .

هذا التراث وهذه السموم من الفكر البابلى والفينيقى والسريانى والإغريقى والغنوصى جميعاً تتصدر قوى كثيرة اليوم لإحيائها وتجديدها فى منطلق واحد هو :

مدرسة العلمانية والفرنكفون والفلسفة المادية كأساس لعملية تدمير الأصالة الإسلامية .

حيث يقرر (محمد عابد الجابرى) بأن الهرمسية الأفلاطونية المحدثة انتقلت إلى الثقافة العربية الإسلامية من خلال مدرسة السريانية فى إنطاكية ونصيبين وحران وجندسابور .

ويسمى الهرمسية (الموروث القديم) ويرى أن الهرمسة والأفلاطونية المحدثة من الأصول التى انتقلت واندمجت فى الثقافة العربية الإسلامية وشكلتا ما دعاه الجابرى (اللامعقول العقلى أو العقل المستقبل فى هذه الثقافة) .

كما أشار الجابرى فى مجال الحديث عن الفقه الإسلامى إلى محاولة بعض المستشرقين افتراض تأثر الفقه الإسلامى بالحقوق الرومانية مما ينقص من أصالة الشريعة الإسلامية وتميزها وخصوصيتها ومصدرها الإلهى .

ومع الأسف أن الجابرى رفض رأى بعض المستشرقين المعتدلين أمثال ستنلانا وجيب فى إنكار ذلك .

ذلك أن الجابرى فى منهجه كله لم يكن إلا تلميذاً لغلاة المستشرقين فى محاولة لوضع (تصور) مغربى أندلسى يختلف عن ما وضعه المستشرقون الذين اتصلوا بالمشرق

الإسلامى ومن اتصلوا بالتراث الفارسى المجوسى .

لقد استند الجابرى على مصادر مايرهوف وماسنيون ومتز ونيكلسون فى هذه الآراء فى محاولة تغريب مغربية فرنسية تتمثل كأداة لفرض تيار الفرنكفون على حوض البحر الأبيض المتوسط وتمديده من خلال جامعة سنجوز فى الإسكندرية .

إن الجابرى يقف على رأس هذه المدرسة القائمة على إحياء الفلسفة الباطنية الفارسية والمسيحية واليونان والغنوصى جميعاً فى تركيب جديد وهى مدرسة مختلطة تقف عند حدود الوطن العربى وتتنكر لاسم الإسلام ومضمونه جميعاً .

وهم أساساً يروجون للمصطلحات الأوربية ويفرضونها على الفكر الإسلامى (الأنا والآخر) .

وهم يحاولون أن يجعلوا من هذا (التراث الزائف) الذى شكلته مدرسة حنين بن إسحق والرهاو ... والذى تم عن طريق الترجمة والاقتباس إلى (دمج هذا بوصفه موروث إسلامى أو عربى فى محاولة لتزييف أصالة الفكر الإسلامى القرآنى الربانى الأصيل) .

* * *

ويركز عابد الجابرى على نقاط خطيرة يريد فرضها على الفكر الإسلامى .

أولاً : استبعاد القيم الإسلامية والعقيدة من مفهوم الثقافة (لأنه لايمكن أن تصل المساواة بين أئمة المسلمين والكافرين إلا باستبعاد العقيدة عن الثقافة) .

وذلك ما يسمى استبعاد التراث الإسلامى من واقع المثقف العربى أسوة بالفكر الغربى.

ثانياً : يرى أن الثقافة التى تشكلت خلال الفترة المعروفة بعصر التدوين هى الفترة التى رسمت للعقل العربى صورة العصر الجاهلى والعصر الإسلامى الأول ، فعصر التدوين هو المرجع الذى شكل ثقافة العقل العربى وليس العصر الجاهلى .

وهذا الفهم فيه تحامل شديد ، ذلك أن الكاتب لا يجهل أن الذى شكل العقل العربى ليس هو عصر التدوين عام ١٤٣ هـ بل هو القرآن الكريم والسنة النبوية ولا يجهل أن الجاهلية لا تعنى ما ذكره فقط بل هذه بعض آثار الجاهلية .

فالظلمات تعنى الكفر بالله والإيمان بالطاغوت والنور يعنى الإيمان بالله (تبارك وتعالى) والكفر بالطاغوت :

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٧] .

ولا تزال مفاهيم عابد الجابرى مشتقة من أشد المستشرقين بغضاً وحقداً على الإسلام .

ويؤكد علماء الإسلام الأصلاء خطأ مقولة أن الصورة التى رسمت عن العقل العربى عند كل من الجاهلية وصدر الإسلام إنما أخذت من عصر التدوين .

هذا خطأ غليظ والرد أن تصورات المسلم عن الإنسان والكون والحياة قد جاءت فى القرآن الكريم وهذا ما جعل الدكتور موريس بوكاى يعلن أن ما جاء فى القرآن الكريم قد توصل إليه العلم الحديث أخيراً ولا تناقض بينهما ، وأن كل ما جاء بالكتاب المقدس عن ذلك هو خرافات (دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة) .

ويكاد يجمع كل الذين راجعوا مشروع الجابرى على أن الجابرى يضع مقدمات خاطئة ليصل إلى هدفه الذى بدأه طه حسين قبل هذا (استمد كلاهما من الفكر الفرنسى العلمانى) ليلبس على المسلمين دينهم ويزعم أن ما جاء فى القرآن ليس معصوماً ولا مقدساً ويعتريه اجتهاد البشر وأخطاؤهم .

ثالثاً : لقد تجاهل الجابرى أن القرآن هو الذى حدد أنواع الجاهلية وكشف ثقافتها وأحوالها وهو الذى حدد ما يعد من الدين الإسلامى وما يعد من الجاهلية وكان ذلك بوحى من الله تبارك وتعالى إلى نبيه ﷺ قبل القرن الأول وليس هو ما دونه العلماء فى عصر التدوين فى القرن الثانى .

ولكن المؤلف لا يريد أن يطعن فى القرآن كما فعل طه حسين — بل يتبع ذلك بادعاء أن عصر التدوين هو الذى حدد هذه المعالم وهو من عمل العلماء فيسهل رده .

رابعاً : من المغالطات أنه زعم أن شروط قبول الحديث هى الشروط التى وضعها العلماء لتوثيق الرواة فجعلها هو مصدر ثقافة العرب والمسلمين وبنى على ذلك أنه طالما أن أهل الحديث أنفسهم يرون أن يصححوا وأن الخبر ليس قطعياً فإن المصدر الثقافى للعرب ليس قطعيّاً .

خامساً : تجاهل أن المصادر التى أخذ منها العرب المسلمون ثقافتهم قطعية فهى القرآن الكريم والسنة النبوية فالقرآن الكريم لا يمكن أن يخضع لهذا الظن المتواتر فى السنة النبوية

أما سنة الإرجاء وهى باقى السنة النبوية فهذه قسمان : قسم أجمع أهل السنة على العمل به وهو الغالبية العظمى ، الثانية « الصحاح » وبالتالى لا تخضع للتشكيك الذى يستند إليه الكاتب .

سادساً : أوهم المؤلف القارىء أن عصر التدوين هو كل المصادر الإسلامية فهو بهذا يلغى السنة المتواترة والسنة العملية المجمع على العمل بها من المرجعية العليا كمصدر للثقافة والمعرفة للعرب المسلمين .

سابعاً : الزعم بأن الشيعة أرجعوا تاريخ تدوين الحديث عنهم إلى عصر النبى ﷺ فهذا يعنى أنه من زمنهﷺ وجدت فرقة الشيعة ، فهل يوجد مسلم يقبل مقولة أن التشيع لأمير المؤمنين على رضى الله عنه ظهر فى عصر النبىﷺ .

وقد بدأ التدوين الرسمى للحديث فى القرن الأول للهجرة ووالى المدينة عمرو بن حزم يجمع ما عند السيدة عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية وما لدى القاسم بن محمد بن أبى بكر ثم كلف الخليفة عمر بن عبد العزيز الإمام ابن شهاب الزهرى بجمع السنة من جميع الأقطار وكل ذلك تم قبل نشأة مذهب الشيعة ، فكيف يقال : إنهم أخفوا مرويات الشيعة وكيف يزعم أن سليمان ، وأبى ذر ، وابن رافع من الشيعة على أن مذهبهم لم ينشأ إلا بعد فتنة الخوارج وبعد استشهاد الإمام على رضى الله عنه حيث كان جميع المسلمين يقرون بخلافته ولم يشذ إلا الخوارج وحيث إن معاوية رضى الله عنه لم ينازع فى أمر الخلافة بل فى قتلة عثمان رضى الله عنه .

ثامناً : ردد عابد الجابرى مقولة المستشرق جولد زيهر :

فقال إن مهمة الفقه التشريع للمجتمع بل هى شرع الله الثابت فى القرآن والسنة .

وكان جولد زيهر قد زعم أن الأحاديث من صنع الفقهاء ليسبغوا على التشريع الإسلامى صبغة القبول .

* * *

يقسم عابد الجابرى الفكر الإسلامى إلى ثلاث قضايا :

البيـــــان ـــ العـــــرفان ـــ البرهـــــان .

أما البيان فهو السنة وهو يقدم عليها العرفان والبرهان .

أما العرفان فهو الفكر الباطنى والتصوف الفلسفى أما البرهان فهو المنطق الأرسطى وفكر الاعتزال وهما اللذان يعنى بهما .

وهو يشترك مع (أدونيس) فى مفاهيم الحداثة الغربية والثابت والمتحول ، ويرى أن قراءة التراث تستفيد من المادية الجدلية ، ومن هنا فإن عابد الجابرى يركز فى مشروعه الفكرى على كتابات المشائين الإسلاميين : الفارابى والفلسفة المشرقية لابن سينا ويكتشف فلسفات أخرى فى المغرب والأندلس كابن باجة وابن رشد .

وبذلك فهو يحجب كل قيم الفكر الإسلامى الأساسية القائمة على التوحيد الخالص ومنهج المعرفة ذى الجناحين وما قدمه الفكر الإسلامى فى مجالى التجريب والعلوم .

وقد جاءت كل كتابات المستشرقين وأتباعهم وفى مقدمتهم:

أركون وأدونيس ترمى إلى استعادة هذه المرحلة التى سيطرت عليه (جماعة حنين بن إسحق) وما يتصل بها والتى أولاها المأمون اهتمامه الكبير فى محاولة لفرض مفاهيم خلق القرآن والحلول والاتحاد وغيرها على الفكر الإسلامى .

وهى المرحلة المظلمة التى احتشد لها علماء الإسلام وقاوموها وحطموها تماماً وعلى رأسهم الإمام الغزالى الذى كشف عن فساد محاولة المشائين أمثال ابن سينا والفارابى ، ومن العجب أن جميع هؤلاء يصدرون عن دعوة واحدة هى إعادة عهد مدرسة حنين بن إسحق.

وقد قاوم هذه المدرسة الشافعى وابن حنبل والغزالى وابن تيمية وعشرات غيرهم من العلماء الأبرار .

وهذا العمل كله الذى يعمل فيه هؤلاء المغربون إنما يرمى إلى هدم أصالة الإسلام التى وصلت إلى مرحلة الصحوة وكشفت زيف محاولات النفوذ الأجنبى فى العمل على حصر الإسلام فى مفاهيم العبادة والعقيدة (بمفهوم اللاهوت فى الفكر الغربى) وذلك فى سبيل العمل على هدم مقومات الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع يجمع بين الدين والدولة وبين الدين والاجتماع والدين عنده مفهوم جامع للدنيا والآخرة ولأن تكون الدنيا مزرعة للآخرة .

أما المنهج القائم على العرفان والبرهان فإنما يهدف العرفان فرض التصوف الفلسفى ويهدف البرهان إلى فرض مفاهيم المنطق الأرسطى وفكر الاعتزال .

أما (البيان) الذى يتجاوزونه فإنه هو السنة شقيقة القرآن إنما هى تتمثل فى الفقه والبلاغة .

ويجمع منهج الإسلام للمعرفة هذه العناصر كلها ويشكلها فى « منظومة جامعة » تجمع الثوابت والمتغيرات وتربط الفروع بالأصول والعقل بالروح ، والمعنوى بالمادى على نهج الإسلام نفسه فى بناء الدين الحق الذى يختلف فى هذا التصور عن كل ما سبقه مما كتبه الأحبار والرهبان ومما كان من أديان بشرية قاصرة على عصر أو على بيئة مما يختلف مع منهج الإسلام الجامع بين القيم فى إطار تكامل ثابت مرن إلى يوم تقوم الساعة .

أما مشروع عابد الجابرى فهو إنما إعادة إحياء كل تراث الوثنيات القديمة التى واجهها الإسلام وقضى عليها والتى لا يمكن أن تعود بحال مهما حاول ذلك أدونيس وأركون ومعهم علامة المغرب (الجابرى) الذى يقدم فى منهج العرفان كل سموم التصوف الباطنى والإشراقى والتفسير الباطنى للقرآن وتربط بينها وبين الاتجاهات اللاعقلانية مثل التنجيم والسحر والطلسمات وحركة النجوم مما يطلق عليه (اللامعقول العقلى) وما تتصل برسائل إخوان الصفا إلى الحلاج وغيره إلى الهرمسية والأفلاطونية الجديدة .

إن إعادة تقديم هذا السموم التى تفرقت على أجيال مختلفة والتى حاربها الإسلام فكان فى كل عصر علم مناضل يحطم هذه الأوهام حيث حارب الإسلام الوثنيات التى سبقته والتى عادت إلى الظهور فى عصور الترجمة وما بعدها .

إن القضية فى حقيقتها هى استعمال المستشرقين وعلمائهم للمناهج التى حاربوا بها المسيحية والكنيسة لهدم الفكر الإسلامى بظن أن هذه الأدوات قد تصلح لهدم الإسلام وهذا محال بظن أن الإسلام والقرآن والسنة النبوية قد تواجه مناهج الغرب التى وضعوها لمواجهة المسيحية والكنيسة .

إن التقاط المناهج الغربية الجديدة أمثال (الحداثة والبنيوية والتفكيكية) يمكن قياس الفكر الإسلامى عليها كما يفعل الجابرى وأركون وغيرهما .

ويتركز خطأهم فى الظن بأن الإسلام والقرآن هو (تراث) على نحو تراث الدين فى الغرب ناسين أن الإسلام ليس تراثاً بمفهوم الغرب ، ذلك أن فى الإسلام الميراث (هو القرآن المنزل من الله تبارك وتعالى).

التراث وهو كتابات العلماء فى مختلف مجالات الفقه واللغة والتاريخ .

لقد ذهب عابد الجابرى إلى إخضاع التراث الإسلامى لمنهج البنيوية ثم عاد فى طرحه من خلال منهج جديد ظهر فى الأوساط الفكرية الفرنسية هو منهج التفكيك ولسوف يدور حول المناهج دوران الرحى للبحث عن منهج آخر ولن يحقق له شيئاً فالإسلام أكبر منه وأكبر من الذين سلطوه علينا .

ولنقل للجابرى ارجع فلن تصل إلى شىء ، ذلك أن تجديد الفهم للنصوص الإسلامية باتباع الوسائل العلمية المادية هو الهزيمة المنكرة ولن يستطيع الدعاة إلى العقل وحده دون الإيمان والروح والغيب لاستكمال منهج المعرفة كما حدده الإسلام ، لن يستطيعوا الوصول إلى شىء ما .

نحن لا نقول : إن مفاهيم الثقافة الغربية ونظرياتها لا تصلح لنا ولسنا فى حاجة إليها وأن ما عندنا يكفينا .

فالإسلام يعلمنا أن نعرف علوم الإنسان والعصر ونقبل منها ما يتفق مع منظومتنا وما نقبله نصهره فى إطار فكرنا الإسلامى القائم على التوحيد والتكامل الجامع ولا نرد إلا ما يختلف مع أصالتنا ومع مفهوم التوحيد ومع تكامل منهج المعرفة القائم على الوحى والعقل معاً فالإسلام قد دعا إلى طلب العلم ولو فى الصين أو من أبعد أطراف الأرض وأن نكون على وعى بما يقدمه فكر التغريب والغزو الثقافى .

ولقد تعلمنا من تجربتنا مع الفكر الغربى والفكر الماركسى عجز هذه المناهج عن عطاء حقيقى لأنها فى الأصل وفى أيديولوجياتها لم تكن تقصد أن تقدم للبشرية عطاء محرراً خالصاً لوجه العلم والتقدم .

ولقد تبين لنا : أن هذه الأيدلوجيات والمناهج الوافدة إنما هى ردود أفعال مرتبطة بعصرها وبيئتها ولم تكن خالصة للبشرية وقد رأينا ذلك حين اتخذ أولياء المذاهب الغربية واحداً منها ونقله إلى اللغة العربية فإذا هو يختفى فى وطنه ويقوم مقامه مذهب آخر ، فالوجودية ما إن بدأ نقلها إلى العالم العربى حتى توارت فى موطنها تاركة المجال للبنيوية وما إن أخذوا فى نقلها حتى توارت تاركة المجال للتفكيكية .

* * *

ولقد كان موقف العلمانيين والماركسيين واضحاً فى الحملة على القيم الإسلامية التى قدمها الإسلام للبشرية والتى يحاول البعض اليوم أن يطلق عليها اسم التراث أو القديم أو السلفية ، هذا الذى يسمى فى الحقيقة (الميراث) المتمثل فى القرآن الكريم والسنة المطهرة وليس هو التراث بمفهوم الغرب لميراثه من أساطير الأولين وجماع الفكر الباطنى والوثنى والمجوسى واليونانى الذى ما زال يطلق عليه (علم الأصنام) .

فنحن حين ندعو إلى ربط الحاضر بالماضى لا نقصد التراث وإنما نقصد الميراث حيث رسم لنا الإسلام تكامل الثوابت والمتغيرات .

ولما كانت العقيدة والشريعة من الثوابت فإن الدعوة المسمومة من التجديد فى الإسلام التى يحمل لواءها أمثال عابد الجابرى هى دعوة باطلة .

أما ما عدا العقيدة والشريعة من العلوم والمناهج والنظم فهى من المتغيرات التى تتجدد بالتطور والتغيير .

لماذا لا يريدون أن يكون لنا تراث فى مجال العلوم والنظم ؟ إنها محاولة لعزلنا عن ماضينا كله وليس صحيحاً أنه لاشىء منه يلزم الحاضر والمستقبل ذلك أنه لابد لنا من وصل الماضى بالحاضر وأن نبدأ التجديد من آخر مراحل العلوم التجريبية .

أما ما يسمى العلوم الإنسانية ففيها اختلاف كبير إذ إن لكل قوم علومهم الإنسانية المرتبطة بعقيدتهم وقيمهم وما يتصل بخصائصهم الذاتية .

إنهم يريدون أن التجديد (أى الاجتهاد) لا يكفى ويحاولون تخطيه فى جرأة عجيبة .

يقول عابد الجابرى : إن الحلول للمشاكل الجديدة لا يتوصل إليها إلا بالاجتهاد فى القيم بل يتجاوزه والتحرر من عوائق التقدم وهذا هو مضمون الحداثة .

فالحداثة فى جوهرها (على حد عبارتهم) هى ثورة على التراث القديم : تراث الماضى والحاضر من أجل خلق تراث جديد .

* * *

ويتابع الجابرى أعداء الإسلام الذين ما زالوا يحملون على الإمام الغزالى الذى حطم الصنم الذى صنعته الفلسفة اليونانية والتى ما زالوا ينبحون عليها ولم يستطع الجابرى أن يكون مؤصلاً لأنه يستمد فكره أساساً من مفاهيم الذين يغضبون على الإمام الغزالى لأنه أقفل عليهم الباب .

لقد هاجم الغزالى أرسطو والمعتزلة والفلسفة والتصوف الفلسفى (وقد جاء بعد ذلك الإمام (ابن تيمية) التى دحض فساد منهج المنطق الأرسطى .

وحتى يبقى الفكر الإسلامى فى المغرب مقيماً فى إطار الفكر الغربى ولذلك فهم يدخلون مناهج الفلسفة والنقد الغربية (والفرنسية بالذات) لصهر الفكر الإسلامى داخلها .

الهدف هو أقلمة العقل العربى (وإخراجه من أصالته وعالميته وربانيته) ليصبح تابعاً للعالم الأوربى الحديث .

ولعل أكبر خطأ مقولة التغريب ، وتابعهم فيها الجابرى أن العرب كانوا وسطاء بين الحضارة الإغريقية والحضارة الأوربية الحديثة وأهميتهم تكمن فى مقامهم بأداء هذا الدور فقط .

وهذه مقولة ظالمة ظلماً كبيراً فإن ما قدمه المسلمون للإنسانية وللحضارة منذ أنشأوا المنهج التجريبى وإلى اليوم سيظل علامة على دورهم الخطير ، ذلك أن الدنيا كلها تشهد الآن بأن للعرب والمسلمين دوراً أساسياً عالميًا سيبقى إلى آخر الزمان وهو قيام العرب بوضع أساس العلم التجريبى ومنهج المعرفة الجامعة .

* * *

والسؤال الذى يوجه الجابرى له إجابة :

لماذا توقفت النهضة العربية ثم تحولت إلى انحطاط . لماذا لم تتطور وسائل معرفة الثقافة العربية خلال النهضة فى العصور الوسطى والتى كان يمكن لها أن تحقق انبعاثاً ثقافياً وعلمياً مكملاً التقدم على غرار ما حصل فى أوربا انطلاقاً من القرن الخامس عشر .

هذا التساؤل فيه مغالطة كبرى وتضليل شديد ، فإن الغرب قد انتزع من المسلمين كل ما كان فى أيديهم من علوم التجريب .

وسرعان ما فرض نفسه على هذه البلاد وحرمها من الشريعة الإسلامية ومن علومها وحجبها وراء مفاهيم وافدة من الغرب بعضها مسيحى وبعضها يونانى وبعضها من فكر الشعوبية والباطنية القديمة.

وهكذا سيطر الغرب بفكره وسلطانه حتى أوقف حركة الإسلام بغزو التغريب للفكر

الإسلامى ، هذا الذى أخذ المسلمون ينطلقون منها من خلال الصحوة الكبرى ولكن الغرب وأولياءه لا يزالون يعملون للتأثير على حركة الصحوة فليثبت المسلمون وليعرفوا من أين تأتى العاصفة .

* * *

يقسم الجابرى الفكر العربى إلى زمنين حيث يلغى الثانى الأول (الأول) من الفارابى وابن سينا وابن باجة كما صوره ابن رشد أنه حماس منقطع النظير لابن رشد فقد استعار الأوربيون فكر هذا الفيلسوف ليجددوا به أنفسهم وعندهم أن الغزالى وابن تيمية قد أعاقا تطور الفكر العربى الإسلامى .

والواقع أن هذه المدرسة كلها تقف خارج الفكر الإسلامى الذى كشف أخطاء المشائين الإسلاميين ودعاة الحداثة ، أما الأصالة فإنها هى التماس المنابع والعودة إلى منطلق الإسلام الصحيح الذى نزل به القرآن وجاءت به السنة .

وبالجملة فإن الجابرى أقام مذهبه على تدميركل ما هو موجود وعدم أخذ التراث العربى الإسلامى بعين الاعتبار وأنه يحاول أن يعطى الأمر كله للعصر وعلومه مع تجاهل وإغفال الإسلام بوصفه منهج وميراث ونظام كامل فهو يدعونا إلى الانفتاح على علوم الغرب دون الاحتفاظ بقيمنا الأساسية ومنهج المعرفة الإسلامى الجامع .

* * *

وإذا كان الجابرى يرى أن هذه الفلسفة معجزة اليونان فإن علوم اللغة العربية هى معجزة العرب (من نحو وفقه وكلام وبلاغة) أى علوم البيان كما أن الفقه الإسلامى هو إعجاز آخر للحضارة الإسلامية وهو عطاؤها الخاص ، وعلم أصول الفقه هو أول محاولة فى العالم لإنشاء علم القانون وهى القواعد التى يتوسل بها لاستنباط الأحكام من الأدلة ، هذا العمل الذى قام به الشافعى فحق أن يسمى عند المسلمين المعلم الأول وليس أرسطو كما يدعى التغريبيون .

وبالجملة فإن الجابرى أخذ يعيد النظر فى الفكر الإسلامى فى المغرب والأندلس ليقدم معطيات جديدة تثبت الولاء للتغريب فى ثوب جديد من الخداع والمراوغة فتنخفض كلمة الإسلام ، ويصبح الكلام عن الفكر الغربى .

ولقد كانت مواقفه من التغريب هو موقف المستشرقين وأتباعهم فى الشرق سواء من العقل أو من التراث أو من الفلسفة المادية اليونانية أو من التجديد والاجتهاد .

إنهم أساساً يروجون للمصطلحات الأوربية ويفرضونها على الفكر الإسلامى وإن أى كلام عن الغرب فإنه لا يستطيع أن ينسى ما حاق فى الوطن الإسلامى خاصة المغرب من ظلم الغرب حتى يجيء الجابرى اليوم فيقول إنه غرب الحرية والديمقراطية والتقدم فهو النموذج وبالتالى ليس الآخر .

* * *

الجابرى واللغـــة العـــربية

يقول الدكتور رمضان عبد التواب : إن الدكتور الجابرى من المشتغلين بالفلسفة غير أنه أراد أن يجرب قلمه فى ميدان اللغة فتقحم الميدان بغير سلاح وكتب بعنوان (الأعرابى صانع العالم العربى) .

فطارت بعض سهامه الطائشة التى وجهها إلى لغتنا العربية الفصحى فأصابته فى مقتل فهو فى جانب يرى أن العامية أغنى من الفصحى ومن جانب آخر يرمى العامية بأنها ليست لغة ثقافة وفكر ، ومع ذلك تراه قادراً على التهجم على الفصحى فى ثوب هابط ومتمثلاً بذلك على أن الفصحى لا تعانى فقراً فى التعبير بقدر ما يكون هو من فقر فى التفكير.

والدكتور الجابرى لا يعرف شيئاً من التاريخ اللغوى للعربية فيصمها بالعجز عن مواكبة التطور وقبول مالابد منه من التغير والتجدد ويعزو هذا العجز إلى ما قام به النحاة واللغويون من تقنين اللغة وما علمنا قط أن هذه القوانين قد منعت لغة العصور المتعاقبة من التطور على مستوى الأصوات والأبنية والدلالة والتركيب فى مجال الأدب ولغة التخاطب على السواء .

وهو لم يفهم الغرض من طريقة التقاليب التى أراد به عبقرى اللغة العربية الخليل بن أحمد الفراهيدى أن يميز المستعمل من المهمل فى كلام العرب بطريقة رياضية غاية فى الدقة والإتقان فظن أن هذا المهمل الذى أفرزته طريقة التقاليب بكلمات صحيحة لأنها ممكنة وليس لأنها واقعية وما قال بذلك أحد علمناه ـــ من علماء اللغة العربية .

ويعود الدكتور الجابرى فى إصرار ظالم فيصم طريقة الخليل بن أحمد بأنها لم تكن

إلا مظهراً واحداً من مظاهر الصنعة والاصطناع التى تعرضت لها اللغة العربية فى عصر التدوين والتى جعلت منها قوالب جامدة ونهائية .

ويصل الدكتور الجابرى إلى قمة الغفلة عما وضعه علماء اللغة المحدثون من شروط التسجيل للغة من اللغات بغية الوصول إلى القوانين اللغوية التى تحكمها ، وأهم هذه الشروط أن يكون الراوى غير متأثر بعوامل ثقافية يكون لها دخل فى تغيير لغته وألا يكون قد اختلط بغيره من أبناء اللغات أو اللهجات الأخرى .

ويغفل الدكتور الجابرى عن كل ذلك فيلوم اللغويين العرب على أنهم فطنوا بحسهم اللغوى إلى ما تنادى به أحدث النظريات اللغوية قبل أكثر من ألف عام حين اتجهوا إلى سكان البادية لجمع اللغة العربية من أفواه متكئة فى بعض ما قاله على شيء من العبارات الصبيانية التى جرت من سن الحداثة على أقلام بعض المشتغلين بالعربية فى العصر الحاضر.

يقول الجابرى لقد اتجه جامعو اللغة ورواتها إلى البادية إلى الأعراب الأقحاح وأصبح هؤلاء الأعراب الحفاة العراة مطلوبين بكل إلحاح .

وينسى الجابرى : أن هذا البدوى الذى يصفه بهذا الوصف الظالم هو الذى نزل عليه القرآن بلغته وقد أداه جهله بهذه المقولة إلى الادعاء بأن جمع اللغة من الأعراب البدو ومنهم وحدهم لابد أن يترك فيها آثارهم أى بعض خصائصهم الراجعة إلى ظروف معيشتهم وفى مقدمتها الطبيعة الحسية لتفكيرهم ورؤاهم .

ثم يقول : إن جمع اللغة من الأعراب دون غيرهم معناه جعل عالم هذه اللغة محدوداً بحدود عالم أولئك الأعرا ب .

ويؤكد الدكتور الجابرى هذا الادعاء الظالم حين يقول مرة أخرى :

إن العالم الذى نشأت فيه اللغة العربية أو على الأقل جمعت منه : عالم حسى لا تاريخى : عالم البدو من العرب الذين كانوا يعيشون زمناً ممتداً كامتداد الصحراء : زمن التكرار والرتابة ومكاناً بل فضاءً فارغاً هادئا ، كل شيء فيه صورة حسية بصرية أو سمعية .

وينسى الدكتور الجابرى أن هذه اللغة التى يعيبها عنده أنها لغة العرب البدو ، هى التى نقل فى ثوبها تراث الإغريق والسريان وليس هؤلاء و لاأولئك من البدو .

وهو يدعى على علماء اللغة العرب ما لم يقولوا به على الإطلاق .

فقد سبق أن ذكرنا أن الخليل بن أحمد حين سلك طريقة التقاليب فى معجمه (العين) لم يكن يقصد إلا إلى حد المستعمل والمهمل من كلام العرب ، ولكن الدكتور الجابرى يتجرأ على هذا العالم الجليل فيزعم أنه لجأ إلى الاشتقاق الصناعى الذى يكرس الانطلاق من اللفظ إلى المعنى ، إن من ضرب نشتق ، يضرب ونبحث لها عن معنى .

ولاشك أن الخليل بن أحمد يتململ فى قبره من هذا الكلام الذى يلقى جزافاً بلا دليل إلا التقول بالهوى والغرض ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه والله أعلم [٢ سبتمبر ١٨٨٩ العلم الثقافى] .

إن هذا داخل فى دائرة منظمة الفرنكفون التى تعمل على أن تجعل اللغة الفرنسية فوق كل اللغات حتى بالنسبة لأبناء اللغة العربية من المسلمين والعرب .

وهكذا يمضى الدكتور الجابرى ويشق طريقه نحو فرنسة الفكر الإسلامى واللغة العربية لغة القرآن الكريم .

* * *

ما العناصر التى تشكل عملية الغزو الجديدة من خلال جماعات الملاحدة من الماركسيين والعلمانيين وغلمان اليهود والنصارى .

وأتباع الماسونية العالمية المتسكعين فى ما يسمى بمعاهد الدراسات الإسلامية فى بعض مدن أوربا وأمريكا الذين أثبتت كتاباتهم وسيرهم ونشاطاتهم أنه لا يجمعهم إلا التآمر على الإسلام والتشكيك فى القرآن وإلغاء معانيه واستبدال الثقافة الإسلامية والعلوم التى بنيت عليها بثقافات ذات أصول نصرانية يهودية مادية .

أولئك الذين يدعون إلى إعادة النظر فى تفسير القرآن الكريم فى إطار غير إطاره إنما يريدون اتباع المنهج الاستشراقى الذى يدعو إلى دراسة القرآن الكريم باعتباره ديناً بشرياً يمثل فى زعمهم مرحلة ما فى الفكر البشرى فيطبقون عليه مناهج العلوم الاجتماعية المادية الحديثة التى تعد الأديان أساساً ظواهر اجتماعية بشرية ، منطلقين من عدم التمييز بين الوحى الإلهى الصادق وبين الفكر الدينى البشرى المتطور لعدم إيمانهم أصلاً بوجود الله سبحانه وتعالى ووحيه إلى أنبيائه ورسله . ومن الناحية اللغوية يريدون تطبيق نظريات لغوية

أوربية حديثة منقوضة بأخرى غيرها ظهرت بناء على تطور الحياة فى أوروبا ، وتمثل منطق تطور لغاتها تبعاً لذلك ، ويدعون إلى إهمال تفسير القرآن الكريم فى إطار تركيب اللغة العربية وخصائصها التعبيرية التى بها نزل .

هل يمكن أن يفسر القرآن الكريم ويدرك معانيه ومقاصده وأسرار التعبير فيه من يعتقد أنه كتاب بشرى صادر عن محمد ﷺ ؟! .

* * *

إن المحاولة التى يجرى حولها دعاة التغريب الجدد : حسين مروة ، طيب تشرى ، حسن حنفى ، إلى محمد أركون وعابد الجابرى ، عبد الله العروى .

تلخص العناصر التى تشكل عملية الغزو الجديدة فى عبارة واحدة هى « بشرية القرآن والدين » .

أو ما يسمونه (أنسنة) الدين والقرآن ، وهذا العنصر واضح تماماً فى كتابات عدد كبير من الأسماء اللامعة التى تمثل دعاة العلمانية والتنوير ، ويرى ذلك واضحاً فى كتابات حسن حنفى بالذات .

* * *

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

*   *   *

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٣١٢٤ / ١٩٩٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ ـ شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ــ ١١٢٣١